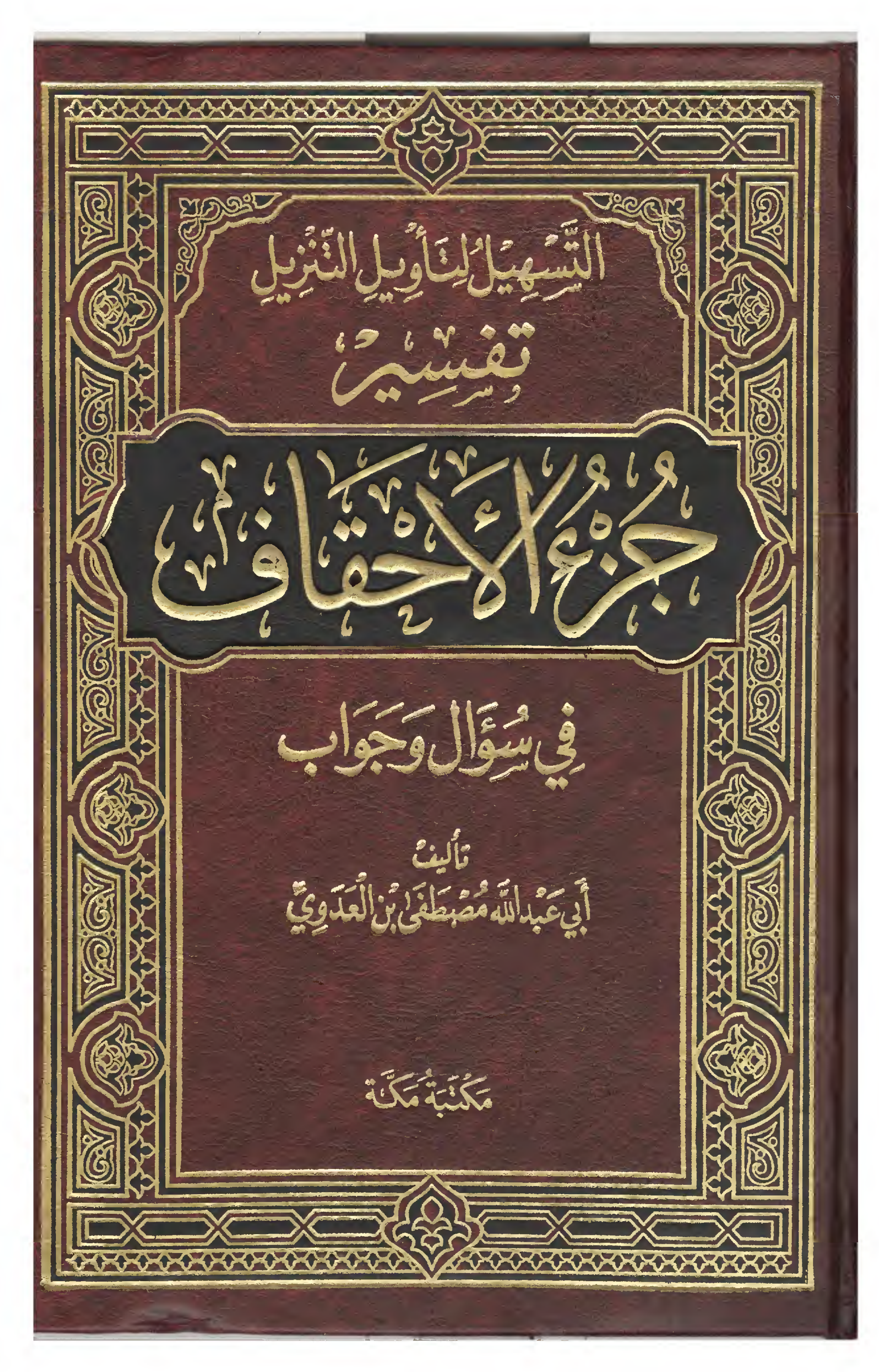


التسهيل لتأويل التنزيل
تفسير
جزء الأحقاف
في سؤال وجواب
تأليف
أبي عبد الله مصطفى بن العدوي
مكتبة مكة

التسهيل لتأويل التنزيل

تفسير جزء الأحقاف

في سؤال وجواب

تأليف

أبي عبد الله مصطفى بن العدوي

مكتبة مكة

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: ١-١٢]

س: - اذكر معنى ما يلي:

﴿حمٓ - ٱلْعَزِيزِ - خَلَقْنَا - أَجَلٍ مُّسَمًّى - كَفَرُوا - عَمَّآ أُنذِرُوا - تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ - أَرُونِي - شِرْكٌ - أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ - أَضَلُّ - لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ - غَٰفِلُونَ - حُشِرَ - كَٰفِرِينَ - تُتْلَىٰ - ءَايَٰتُنَا - بَيِّنَٰتٍ - لِلْحَقِّ - سِحْرٌ - مُّبِينٌ - ٱفْتَرَىٰهُ - فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا - تُفِيضُونَ فِيهِ - شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ - بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿حمٓ﴾	أحرفٌ مقطعةٌ لا يعلم معناها إلا الله
﴿ٱلْعَزِيزِ﴾	الذي لا يغلب، بل هو غالبٌ على أمره يفعل ما يريد - عظيم السلطان لا يقهر
﴿خَلَقْنَا﴾	صنعنا - أوجدنا - أحدثنا
﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾	زمن مُحددٌ ومُقدرٌ
﴿كَفَرُوا﴾	جحدوا وحدانية الله
﴿عَمَّآ أُنذِرُوا﴾	عن الذي أنذروا به وهو القرآن
﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	تعبدون مع الله - تعبدونها وتتركون عبادة الله
﴿أَرُونِي﴾	أطلعوني
﴿شِرْكٌ﴾	نصيب
﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾	بقية من علم - علمٌ يؤثر عن الأولين - علمٌ آثركم الله به وفضلكم به على غيركم وخصّكم به
﴿أَضَلُّ﴾	أبعد عن الحق
﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾	لا يجيبه ولا يحقق مراده
﴿غَٰفِلُونَ﴾	ساهون لا يعقلون ولا يفهمون

﴿حُشِرَ﴾	جمع (وذلك يوم القيامة)
﴿كَٰفِرِينَ﴾	جاحدين مُنكرين
﴿تُتۡلَىٰ﴾	تُقرأ
﴿ءَايَٰتُنَا﴾	آيات القرآن المنزلة من عند الله - حججنا التي احتججنا بها على عبادنا
﴿بَيِّنَٰتٖ﴾	واضحات - نيِّرات
﴿لِلۡحَقِّ﴾	للقرآن
﴿سِحۡرٞ﴾	خداع وتمويه وتضليل
﴿مُّبِينٌ﴾	مُظهر لمن تأمله أنه ساحر - ظاهر
﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾	اختلقه من عند نفسه - تقوَّله - تخرَّصه
﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾	فلا تدفعون عني من عذاب الله شيئًا
﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾	تخوضون فيه من الكلام في شأني وفي شأن القرآن (وذلك عند وصفكم القرآن بأنه سحرٌ..) - تتكلمون فيه
﴿شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾	شاهدًا عليَّ وعليكم
﴿بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾	أول الرسل التي أرسلها الله إلى خلقه، فالبدع من الشيء أوله

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، هذا القرآن تنزيلٌ من عند الله العزيز الحكيم.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: المراد جميع العوالم التي بين السماء والأرض من ملائكة وإنسٍ وجنٍّ وشجرٍ وحجرٍ وبحارٍ وأنهار ودواب وطيور سوارح، وعموم كل ما بين السموات والأرض من مخلوقات.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا ولكلٍّ أجلٌ مسمى محددٌ مقدرٌ عند الله، ينتهي هذا الشيء بانتهاء أجله، فإذا بلغ مخلوقٌ الأجل الذي حدده الله له وأجلَّه إليه وقدَّره له أفناه الله عزَّ وجلَّ عند بلوغ هذا الأجل وأعدمه.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الآيات التي توضح أن الآجال مسماة.

ج: من الأدلة على ذلك:

* قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨].
* وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤].
* وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

❁ ❁ ❁

البيان لكون السموات والأرض لم تخلقا عبثًا

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾؟

ج: المعنى الإجمالي، والله تعالى أعلم، وما أوجدنا ولا أحدثنا ولا صنعنا

السموات والأرض والمخلوقات التي بينهما من ملائكة وإنس وجن وبحار وأشجار وجبال وسائر المخلوقات إلا كي نقيم الحق في ذلك ونعدل بينهم في ذلك ونجازيهم بأعمالهم، فيعمل العامل فنجازيه بعمله، ونأخذ للمظلوم عن ظلمه، ونجازي أهل التوحيد والطاعات ونكافؤهم، ونعاقب أهل الشرك والتمرد والعصيان والظلم، ولكل مخلوق عندنا أجل قدرناه له ينتهي عنده ويفنى ويُعدم، ومع هذا البيان كله وذلك الإنذار فأهل الكفر عن القرآن معرضون، لايتعظون ولا يعتبرون، فهذا حالهم وهذا دينهم مع ما يرونه من الآيات، ومع ما يرونه من فناء الخلق جيلًا بعد جيلٍ وقومًا بعد قومٍ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يقول تعالى ذكره: ما أحدثنا السموات والأرض فأوجدناهما خلقًا مصنوعًا، وما بينهما من أصناف العالم إلا بالحقّ، يعني: إلا لإقامة الحقّ والعدل في الخلق.

وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: وإلا بأجل لكل ذلك معلوم عنده يفنيه إذا هو بلغه، ويعدمه بعد أن كان موجودًا بإيجاده إياه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ يقول تعالى ذكره: والذين جحدوا وحدانية الله عن إنذار الله إياهم معرضون، لا يتعظون به، ولا يتفكرون فيعتبرون.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتابًا وأرسل إليهم رسولًا، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غبّ ذلك.

قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن»:

ولهذا قال هنا: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا عبثا ولا سدى

بل ليعرف العباد عظمة خالقهما ويستدلوا على كماله ويعلموا أن الذي خلقهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ساعة معينة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً، لا لتكليف وحساب وجزاء، وأنكر ذلك على من ظنه، في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

فقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي تنزه وتعاظم، وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث، وحساب وجزاء.

وهذا الذي نزه تعالى عنه نفسه، نزهه عنه أولو الألباب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، فقوله عنهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت هذا الخلق، باطلاً لا لحكمة تكليف، وبعث حساب وجزاء.

وقوله جل وعلا في آية الأحقاف هذه: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلاً، ولا لعباً ولا عبثاً.

وهذا المفهوم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩].

وقوله تعالى في آية الأحقاف هذه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وبتقدير أجل

مسمى، أي وقت معين محدد ينتهي إليه أمد السماوات والأرض، وهو يوم القيامة كما صرح الله بذلك في أخريات الحجر في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ الآية [الحجر: ٨٥].

فقوله في الحجر: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يوضح معنى قوله في الأحقاف: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقد بيّن تعالى في آيات من كتابه أن للسماوات والأرض أمداً ينتهي إليه أمرهما. كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ [التكوير: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ الآية [المزمل: ١٤]. إلى غير ذلك من الآيات.

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

ما ذكره جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦]، وقوله في يس: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والإعراض عن الشيء الصدود عنه. وعدم الإقبال إليه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - قل يا رسول الله لهؤلاء الكفار أهل الشرك: أرأيتم يا أهل الشرك هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله وجعلتموها شريكةً لله في عبادته، وتركتم توحيد الله بسببها ﴿أَرُونِى﴾ أطلعوني ماذا خلقت هذه الأوثان والآلهة من الأرض، ما الذي خلقته هذه الآلهة من الأرض؟!!، إنها لم تخلق شيئًا، بل الخالق هو الله خلق الأرض وما فيها.

وكذا أروني يا أهل الشرك هل الآلهة شريكة في السموات التي خلقها الله.

ائتوني يا أهل الشرك بكتابٍ نزل من عند الله مثل هذا القرآن يدل على أن الآلهة والأوثان خلقت شيئًا من الأرض أو أنها شريكة لله في السموات.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: أرأيتم أيها القوم الآلهة والأوثان التي تعبدون من دون الله، أروني أيّ شيء خلقوا من الأرض، فإن ربي خلق الأرض كلها، فدعوتموها من أجل خلقها ما خلقت من ذلك آلهة وأربابًا، فيكون لكم بذلك في عبادتكم إياها حجة، فإن من حجتي على عبادتي إلهي، وإفرادي له الألوهة، أنه خلق الأرض فابتدعها من غير أصل.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يقول تعالى ذكره: أم لآلهتكم التي تعبدونها أيها الناس، شرك مع الله في السموات السبع، فيكون لكم أيضًا بذلك حجة في عبادتكموها، فإن من حجتي على إفرادي العبادة لربي، أنه لا شريك له في خلقها، وأنه المنفرد بخلقها دون كلّ ما سواه.

وقوله: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ يقول تعالى ذكره: بكتاب جاء من عند الله من قبل هذا القرآن الذي أُنزل عليّ، بأن ما تعبدون من الآلهة والأوثان خلقوا من الأرض شيئًا، أو أن لهم مع الله شركًا في السموات، فيكون ذلك حجة لكم على عبادتكم إياها؛ لأنها إذا صحّ لها ذلك صحت لها الشركة في النِّعم التي أنتم فيها، ووجب لها عليكم الشكر، واستحقت منكم الخدمة؛ لأن ذلك لا يقدر أن يخلقه إلا الله.

وقوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء الحجاز والعراق ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بالألف، بمعنى: أو ائتوني ببقية من علم. ورُوي عن أبي عبد الرحمن السلميّ أنه كان يقرؤه (أَوْ أَثْرَةٍ مِنْ عِلْمٍ)، بمعنى: أو خاصة من علم أوتيتموه، وأوثرتم به على غيركم، والقراءة التي لا أستجيز غيرها ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بالألف، لإجماع قرّاء الأمصار عليها.

واختلف أهل التأويل في تأويلها، فقال بعضهم: معناه: أو ائتوني بعلم بأن

آلهتكم خَلَقت من الأرض شيئًا، وأن لها شرك في السموات من قبل الخطّ الذي تخطونه في الأرض، فإنكم معشر العرب أهل عيافة وزجر وكهانة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا لله - عزَّ وجلَّ - فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بَيِّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ أي: لا دليل لكم نقليًا ولا عقليًا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: (أو أثَرة من علم) أي: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو أحد يأثُر علمًا. وقال العوفي عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن»:

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثانًا وأندادًا لا تملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، قل لهم - مبينًا عجز أوثانهم وأنها لا تستحق شيئًا من العبادة -: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئًا؟ هل خلقوا جبالًا؟ هل أجروا أنهارًا؟ هل نشروا حيوانًا؟ هل أنبتوا أشجارًا؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟

لا شيء من ذلك بإقرارهم على أنفسهم فضلًا عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي فقال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أنهم

عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فعلم أن جدال المشركين في شركهم غير مستندين على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول فاسدة. يدلك على فسادها استقراء أحوالهم وتتبع علومهم وأعمالهم والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته هل أفادهم شيئًا في الدنيا أو في الآخرة؟

❁ ❁ ❁

س: لأهل العلم قولان في قراءة ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ وضحهما مع بيان معنيهما.

ج: القراءة الأولى هي:

أثارة بالألف، والمعنى بقيةٌ من علم.

القراءة الثانية هي:

أثرة بلا ألف والمعنى شيء آثركم الله به أو خصَّكم الله به دون غيركم.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ في ماذا؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن كنتم صادقين في أنها تنفع أو تضر.

وقال آخرون: إن كنتم صادقين في أنها خلقت شيئًا من الأرض أو أنها شريكة لله في السموات.

❁ ❁ ❁

ضلال من دعا غير الله عزَّ وجلَّ

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - ليس هناك شخص أشد ابتعادًا عن الحق وانصرافًا

عنه من شخص يدعو إلهًا من دون الله لا يفهم مراده ولا يسمع كلامه ولا يعقل معناه، ومن ثَمَّ فإنه لا يجيبه مهما دعاه، ولا يحقق له رجاءه ولا مُناه مهما أطال الدعاء، ولو استمر يدعو إلى يوم القيامة؛ وذلك لأن هذه الآلهة المعبودة من دون الله لا تفهم شيئًا ولا تعقل ولا تقدر على شيءٍ، فالواقف أمام صخرةٍ يدعوها أو حجرٍ يرجوه أو شجرة يسألها أو ميت يسأله، كل ذلك لا يجيب ولا يطيع ولا يفهم عنه المراد ولا يحقق له الرجاء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأيّ عبد أضلّ من عبد يدعو من دون الله آلهة لا تستجيب له إلى يوم القيامة: يقول: لا تُجيب دعاءه أبدًا، لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ يقول تعالى ذكره: وآلهتهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة؛ لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل. وإنما عني بوصفها بالغفلة، تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له، إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئًا، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه. وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقُبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئًا ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب.

وقيل: من لا يستجيب له، فأخرج ذكر الآلهة وهي جماد مخرج ذكر بني آدم، ومن له الاختيار والتمييز، إذ كانت قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلام في ذلك على نحو ما كان جاريًا فيه عندهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: لا أضل ممن يدعو أصنامًا، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد حجارة صُمّ.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «تيسير الكريم الرحمن»:

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

أي: مدة مقامه في الدنيا لا ينتفع به بمثقال ذرة ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ لا يسمعون منهم دعاء ولا يجيبون لهم نداء هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشرككم. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يلعن بعضهم بعضًا ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وإذا جمع الناس يوم القيامة مع آلهتهم التي عبدوها من دون الله تبرأت الآلهة المعبودة ممن عبدوها وأنكرت هذه العبادة قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧﴾ [الفرقان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا جُمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب، كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء؛ لأنهم يتبرؤون منهم ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ يقول تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا تبرأنا إليك منهم يا ربنا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾.

[العنكبوت: ٢٥]

س: كثيرًا ما يصف أهل الكفر القرآن بأنه سحر، اذكر بعض ما ورد في ذلك؟

ج: من الوارد في ذلك:

قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٢٤].

وما ذكره تعالى عنهم إذ قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأحقاف: ٧].

وقولهم في شأن التوراة والقرآن، ونبي الله موسى ونبيه محمد ﷺ: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ [القصص: ٤٨].

❀ ❀ ❀

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وإذا تليت على هؤلاء المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى آيات الكتاب العزيز، تلك الآيات الواضحات الدالة على وحدانية الله عزَّ وجلَّ والدالة كذلك على بطلان عبادتهم للأوثان والأصنام والدالة على جهل أهل الكفر بما هم عليه قائمون، فإذا تليت الآيات على هؤلاء كذبوا بها ووصفوها بأنها سحرٌ تُخدع به النفوس والأذهان ويُذهب الأبصار وتُقلب به الحقائق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا يقرأ على هؤلاء المشركين بالله من قومك آياتنا، يعني حججنا التي احتججناها عليهم فيما أنزلناه من كتابنا على محمد ﷺ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني واضحات نيرات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: قال الذين جحدوا وحدانية الله، وكذّبوا رسوله للحقّ لما جاءهم من عند الله، فأنزله على رسوله ﷺ ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ يعنون هذا القرآن خداع يخدعنا، ويأخذ بقلوب من سمعه فعل السحر ﴿مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ يقول: يُبين لمن تأمله ممن سمعه أنه سحر مبين.

❀ ❀ ❀

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - قل لهؤلاء الكفار الذين يدَّعُون أن النبي ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه وأن الله ما أنزل شيئًا عليه، قل لهؤلاء الذين اتهموك بذلك ورموك به: إن اختلقت هذا القرآن من عند نفسي فلا تستطيعون دفع عذاب الله عني، وذلك لأن الذي يكذب على الله ينتقم الله منه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وكما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ وعلى كل حال فربي يا أهل الشرك عالمٌ بقولكم وبوصفكم الذي وصفتموني به وصفتم به كتابه المنزل من عنده، وهو شاهد عليَّ بما تكلمت به، وشاهد عليكم كذلك بما تكلمتم به، ثم هو غفور رحيم إذا تبتم تاب عليكم وغفر لكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أم يقولون هؤلاء المشركون بالله من قريش: افترى محمد هذا القرآن، فاختلقه وتخرّصه كذبًا، قل لهم يا محمد إن افتريته وتخرّصته على الله كذبًا ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ يقول: فلا تغنون عني من الله إن عاقبني على افترائي إياه، وتخرّصي عليه شيئًا، ولا تقدرون أن تدفعوا عني سوءًا إن أصابني به.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يقول: ربي أعلم من كل شيء سواه بما تقولون بينكم في هذا القرآن والهاء من قوله: ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من ذكر القرآن.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يقول: كفى بالله شاهدًا علي وعليكم بما تقولون من تكذيبكم لي فيما جئتكم به من عند الله الغفور الرحيم لهم، بأن لا يعذبهم عليها بعد توبتهم منها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشد العقوبة، ولم يَقْدرْ أحد من أهل الأرض - لا أنتم ولا غيركم - أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أضواء البيان»:

وما تضمنته آية الأحقاف هذه وآية الحاقة المبينة لها من أنه لو افترى على الله أو تقول عليه عاجله بالعذاب، وأنه لا يقدر أحد على دفعه عنه. جاء معناه في بعض الآيات؛ كقوله تعالى في يونس: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥] أي إني أخاف إن عصيت ربي بالافتراء عليه بتبديل قرآنه أو الإتيان بقرآن غيره. عذاب يوم عظيم.

وذكر الله تعالى مثل هذا عن بعض الرسل في آيات أخر كقوله عن صالح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ الآية [هود: ٦٣]. وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ الآية [هود: ٣٠].

❀ ❀ ❀

س: كثيرًا ما يصف أهل الكفر هذا القرآن بأنه افتراء، وأن النبي ﷺ أتى به من عند نفسه، اذكر ما يوضح ذلك.

ج: من الآيات الواردة في ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يونس: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣].

❁ ❁ ❁

س: لِمَ خُتمت الآيات المباركات بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾؟

ج: فيما يبدو - والله تعالى أعلم - أنها ختمت بذلك لحثهم على التوبة والرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ، فالمعنى إذا رجعتم عما أنتم عليه من الضلال والكفر غفر الله لكم ورحمكم.

وقال الحافظ ابن كثير:

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر ورحم. وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى ذلك:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك من قريش ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يعني: ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه، قد كان من قبلي له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم؛ يقال منه: هو بدع في هذا الأمر، وبديع فيه، إذا كان فيه أوّل. ومن البدع قول عديّ بن زيد.

فَلا أنا بِدْعٌ مِنْ حَوادِث تَعْتَرِي ... رِجالًا عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَى وَأَسعد

ومن البديع قول الأحوص:

فَخَرَتْ فانْتَمَتْ فقُلْتُ انْظُرِيني ... لَيسَ جَهْلٌ أَتيْتُه بِبَدِيع

يعني بأوّل، يقال: هو بدع من قوم أبداع.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

❁ أحدها: أن الآية الكريمة على ظاهرها، أي أن النبي ﷺ لم يكن يدري ما يفعل به ولا بغيره يوم القيامة، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أخبره بعد ذلك إذ قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ٢].

وقال في أن أهل الإيمان: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح: ٥].

ويشهد لهذا المعنى ما أخرجه البخاري من حديث خارجة بن زيد بن ثابت «أن أم العلاء - امرأةً من نسائهم بايعت النبي ﷺ - أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين. قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه. فدخل علينا النبي فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يُدريك أن الله أكرمه؟ قالت: قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟ قال: **أما هو فقد جاءهُ والله اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري والله - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي**. قالت: فوالله لا أزكي أحدًا بعده. قالت: فأحزني ذلك، فنمت، فرأيتُ لعثمان عينًا تجري، فجئت رسول الله وأخبرته، فقال: **ذلك عمله**»[(١)].

وقد أورد الطبري رحمه الله تعالى جملة من الآثار عن الصحابة والتابعين بذلك وإن كانت أسانيدها لا تخلو من مقال.

---

(١) البخاري (حديث ٣٩٢٩).

* القول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ إنما هو في الدنيا، والمراد ما يُفعل بي هل أنتصر عليكم في الدنيا أم أنني سأبتلى كما ابتلي غيري من الأنبياء وأهل الفضل والصلاح بالقتل والإخراج من الديار والجوع والمرض ونحو ذلك.

وكذا ما أدري ما يفعل بكم في الدنيا هل يخسف بكم؟! هل ينتقم منكم وتهزموا شر هزيمة؟!، هل ستنزل عليكم شر هزيمة هل ستنزل عليكم حجارةٌ من السماء،.. ونحو ذلك، واحتج أصحاب هذا القول بأنه من المحال أن يكون رسول الله لا يدرى ما يفعل به ولا بالمؤمنين يوم القيامة، وقد أرسله الله عزَّ وجلَّ بشيرًا ونذيرًا، بشيرًا لمن أطاع بالجنة ونذيرًا لمن عصى بالنار.

* القول الثالث: وأراه أضعف الأقوال ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الفرائض والأحكام، أي ماذا سيفرض عليَّ وعليكم من الأحكام.

* وأورد الطبري رحمه الله تعالى مضمون هذه الأقوال واختار القول الثاني فقال:

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: عني به رسول الله ﷺ وقيل له: قل للمؤمنين بك ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة، وإلام نصير هنالك، قالوا ثم بين الله لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به حالهم في الآخرة، فقيل له: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢]، وقال: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ [الفتح: ٥].

ثم أورد أثر ابن عباس رضي الله عنهما[١] في ذلك إذ قال: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ فأنزل الله بعد هذا ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وكذا أورد أثرًا عن الحسن وعكرمة[٢]، وفي إسناده ضعف، قالا: قال في حم

(١) الطبري (٣١٢٣٩) وفي سنده مقال.

(٢) الطبري (٣١٢٤٠)، وفي سنده ضعف.

الأحقاف: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩﴾ فنسختها الآية التي في سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ....﴾ [الفتح: ١-٢] الآية، فخرج نبي الله ﷺ حين نزلت هذه الآية، فبشرهم بأنه غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال له رجال من المؤمنين: هنيئًا لك يا نبي الله، قد علمنا ما يفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ في سورة الأحزاب، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧﴾ [الأحزاب: ٤٧]، وقال: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ...﴾ [الفتح: ٥-٦] الآية، فبين الله ما يفعل به وبهم.

وأثرًا عن قتادة[1] بإسنادٍ صحيح: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ ثم درى أو علم من رسول الله ﷺ بعد ذلك ما يفعل به، يقول: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢].

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل، القول الذي قاله الحسن البصري، الذي رواه عنه أبو بكر الهُذَلِيّ.

وإنما قلنا ذلك أولاها بالصواب؛ لأن الخطاب من مبتدإ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خروج من الله عزَّ وجلَّ خطابا للمشركين وخبرًا عنهم، وتوبيخًا لهم، واحتجاجًا من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ عليهم.

فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن هذه الآية أيضًا سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم، أو خبر عنهم. وإذا كان ذلك كذلك، فمحال أن يقال للنبي ﷺ: قل للمشركين ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وآيات كتاب الله عزَّ وجلَّ في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأن المشركين في النار مخلدون، والمؤمنون به في الجنان منعمون، وبذلك يرهبهم مرّة، ويرغبهم أخرى، ولو قال لهم ذلك، لقالوا له: فعلام نتبعك إذن وأنت لا تدري إلى أيّ حال تصير غدًا

---

(١) الطبري (٣١٢٤١) بسندٍ صحيح لغيره.

في القيامة، إلى خفض ودعة، أم إلى شدّة وعـذاب؛ وإنما اتباعنا إياك إن اتبعناك، وتصديقنا بما تدعونا إليه، رغبة في نعمة، وكرامة نصيبها، أو رهبة من عقوبة، وعذاب نهرب منه، ولكن ذلك كما قال الحسن، ثم بين الله لنبيه ﷺ ما هو فاعل به، وبمن كذب بما جاء به من قومه وغيرهم.

كذا قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ واختار.

والذي يظهر لي، والله تعالى أعلم، أن الرأي الأول هو الأقوى للآتي ذِكره:

أولًا: أنه ظاهر الآية الكريمة ويتمشى مع عموم لفظها.

ثانيًا: أنه قول أكثر أهل العلم.

ثالثًا: أنه يُمكن توجيه ما وجِّه إليه بأنه يُقال إنه لم يكن يدري ما يفعل به ولا بغيره على سبيل التفصيل والتعيين. أما على سبيل الإجمال فيدري أن الرسل وأهل الإيمان مآلهم إلى الجنة.

رابعًا: أن ما يرد عليه من الاستدراك الذي أورده الطبري وغيره يرد أيضًا على الرأي الذي اختاره الطبري رَحِمَهُ اللهُ.

فإذا كان المراد ذلك في الدنيا، فقد أخبر الله عزَّ وجلَّ بالمآل الحسن لرسوله ﷺ ولأهل الإيمان في الدنيا إذ قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

خامسًا: أن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ ورد عنه القولان، وإن كان في الأسانيد إليهما مقال. والله أعلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

التحقيق إن شاء الله، أن معنى الآية الكريمة، ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا، فما أدري أأخرج من مسقط رأسي أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء.

وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور في تحمل أعباء الرسالة.

وما أدري ما يفعل بكم أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من السماء، ونحو ذلك.

وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.

وهذا المعنى في هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] الآية. قوله تعالى آمراً له ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] الآية.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - إن علم الغيب لا يعلمه إلا الله، وأما أنا فلا أتبع إلا الذي أوحاه الله إليَّ، وما لي من شيءٍ في هذا الصدد إلا الإنذار الواضح المظهر أنني قد أنذرتكم وحذرتكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ يقول تعالى ذكره: قل لهم ما أتبع فيما آمركم به، وفيما أفعله من فعل إلا وحي الله الذي يوحيه إليّ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ يقول: وما أنا لكم إلا نذير، أنذركم عقاب الله على كفركم به ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: قد أبان لكم إنذاره، وأظهر لكم دعاءه إلى ما فيه نصيحتكم، يقول: فكذلك أنا.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بقول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نعمت البدعة هذه» لما جمع الناس على أُبي في صلاة التراويح، وكيف يصدر ذلك من عمر والنبي ﷺ يقول: «كل محدثة بدعة»؟

ج: أما عن معنى البدعة فالشيء المحدث على غير مثالٍ سابق أو الشيء الذي يفعل لأول مرة.

ونعم قد قال الرسول ﷺ: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»، ولكن توجيه قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نعمت البدعة هذه» أن هذا الشيء الذي أُحدث لأول مرة في زماني لِنعمَ الشيء وليس المراد الذي أُحدث لأول مرةٍ على الإطلاق فقد كان هذا الشيء

في زمن رسول الله ﷺ ولذلك شواهد في التنزيل كقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٣]، أي: وأنا أولهم في زماني، وإن كان يحتمل قولًا آخر وأنا أول المطيعين المستسلمين لأمر الله المنقادين له وذلك على سبيل بيان الإذعان والخضوع والامتثال، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما المعني بقوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؟

ج: المراد - والله أعلم - إن كان هذا القرآن من عند الله.

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ...﴾ سبب نزول؟

ج: لم أقف له على سبب نزول صحيح.

❁ ❁ ❁

س: أين جواب الشرط لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ....﴾؟

ج: قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾.

جواب الشرط فى هذه الآية محذوف.

وأظهر الأقوال فى تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به، وجحدتموه فأنتم ضلال ظالمون. وكون جزاء الشرط في هذه الآية كونهم ضالين ظالمين يبينه قوله تعالى فى آخر فصلت: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ٥٢﴾[فصلت ٥٢]، وقوله في آية الأحقاف هذه: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٠﴾.

وقال أبو حيان في البحر: مفعولا أرأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما.

❁ ❁ ❁

شهادة الشاهد الإسرائيلي للنبي محمد ﷺ

س: من الذي عناه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي كان يهوديًا فأسلم.

وقد وردت بذلك آثارٌ كثيرةٌ جدًّا، أورد الطبري رحمه الله جملةً كبيرةً من الآثار بذلك.

بينما ذهب بعض العلماء، وقد صح هذا عن مسروق بن الأجدع رحمه الله أن هذاالشاهد الذي هو من بني إسرائيل هو موسى عليه السلام، والمراد بقوله: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على التوراة التي هي مثل القرآن، واستظهر لقوله بأن السورة مكية ولم يكن عبد الله بن سلام أسلم يومئذ.

وأورد الطبري[1] بسندٍ صحيح عن مسروق قال: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، ما نزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد ﷺ بها قومه، قال: فنزلت ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ قال: فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد ﷺ، فآمنوا بالتوراة وبرسولهم، وكفرتم.

وفي رواية أخرى[2] عن مسروق عند الطبري أيضًا أنه قال: أناس يزعمون أن شاهدًا من بني إسرائيل على مثله عبد الله بن سلام، وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة؛ وقد أخبرني مسروق أن آل حم، إنما نزلت بمكة، وإنما كانت محاجة رسول الله ﷺ قومه، فقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ﴾ موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام على الفرقان.

* إلا أن الآثار بأنه ابن سلام كثيرةٌ جدًّا، وسبب النزول يشهد لذلك.

---

(١) الطبري (٣١٢٤٥).

(٢) (٣١٢٤٦).

مناقب الصحابي الجليل عبد الله بن سلام

س: اذكر بعض مناقب الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم[(١)] من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الآية. قال: لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث»[(٢)].

وعند أحمد أيضًا من طريق مصعب بن سعد عن أبيه أن النبي ﷺ أتي بقصعة فأكل منها ففضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «يجيء رجلٌ من هذا الفجّ من أهل الجنة يأكل هذه الفضلة» قال سعد: وكنت تركت أخي عميرًا يتوضأ قال: فقلت: هو عمير. قال: فجاء عبد الله بن سلام فأكلها[(٣)].

وأخرج ابن حبان في موارد الظمآن بسندٍ حسن من طريق يزيد بن عميرة أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قالوا: يا أبا عبد الرحمن أوصنا، قال: «أجلسوني» ثم قال: «إن العلم والإيمان مظانهما، من التمسهما وجدهما - أو العلم والإيمان مكانها من التمسهما وجدهما - فالتمسوا العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهوديًّا فأسلم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه عاشر عشرة في الجنة»»[(٤)].

وأخرج البخاري ومسلم[(٥)] من طريق قيس بن عباد قال: كنت جالسًا في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع، فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة،

---

(١) البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (٢٤٨٣).

(٢) قال الحافظ: قوله: «لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث» أي: لا أدري هل قال مالك إن نزول هذه الآية في هذه القصة من قبل نفسه أو بهذا الإسناد.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٦٩)، وعبد بن حميد (١٥٢)، وغيرهما بسندٍ حسن.

(٤) ابن حبان في موارد الظمآن (٢٢٥٢).

(٥) البخاري (٣٨١٣)، ومسلم (٢٤٨٤).

فصلى ركعتين تجوز فيهما، ثم خرج وتبعته فقلت: إنك حين دخلت المسجد قالوا: هذا رجل من أهل الجنة قال: والله لا ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لمَ ذاك. رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، ورأيت كأني في روضة - ذكر من سعتها وخضرتها - وسطها عمود من جريد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة فقيل لي: ارقه. قلت: لا أستطيع. فأتاني منصف فرفع ثيابي من خلفي، فرقيت حتى كنت في أعلاها، فأخذت في العروة فقيل لي: استمسك، فاستيقظت وإنها لفي يدي. فقصصتها على النبي ﷺ فقال: «**تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة عروة الوثقى فأنت على الإسلام حتى تموت**». وذلك الرجل عبد الله بن سلام.

وأخرج مسلم[1] من طريق خرشة بن الحر قال: كنت جالسًا في حلقة في مسجد المدينة قال: وفيها شيخ حسن الهيئة، وهو عبد الله بن سلام قال: فجعل يحدثهم حديثًا حسنًا. قال: فلما قام قال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. قال فقلت: والله لأتبعنه فلأعلمن مكان بيته. قال: فتبعته، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله قال: فاستأذنت عليه فأذن لي فقال: ما حاجتك يا ابن أخي؟ قال فقلت له: سمعت القوم يقولون لك: لما قمت من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. فأعجبني أن أكون معك. قال: الله أعلم بأهل الجنة. وسأحدثك مِمَّ قالوا ذاك. إني بينما أنا نائم إذ أتاني رجل فقال لي قم. فأخذ بيدي فانطلقت معه، فإذا أنا بجواد عن شمالي، قال: فأخذت لآخذ فيها، فقال لي: لا تأخذ فيها فإنها طرق أصحاب الشمال، قال: فإذا جواد منهج على يميني فقال لي: خذ ههنا، فأتى بي جبلًا فقال لي: اصعد قال: فجعلت إذا أردت أن أصعد خررت على استي قال: حتى فعلت ذلك مرارًا قال: ثم انطلق بي حتى أتى بي عمودًا رأسه في السماء وأسفله في الأرض، في أعلاه حلقة فقال لي: اصعد فوق هذا. قال قلت: كيف أصعد هذا؟ ورأسه في السماء. قال: فأخذ بيدي فزجل بي قال: فإذا أنا

(١) مسلم (ص ١٩٣١).

متعلق بالحلقة. قال: ثم ضرب العمود فخرَّ قال: وبقيت متعلقًا بالحلقة حتى أصبحت. قال: فأتيت النبي ﷺ فقصصتها عليه فقال: «**أما الطرق التي رأيت عن يسارك فهي طرق أصحاب الشمال**» قال: «**وأما الطرق التي رأيت عن يمينك فهي طرق أصحاب اليمين، وأما الجبل فهو منزل الشهداء ولن تناله، وأما العمود فهو عمود الإسلام، وأما العروة فهي عروة الإسلام، ولن تزال متمسكًا بها حتى تموت**».

وأخرج البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم فقال: يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا فالتفت نبي الله ﷺ فقال: «**اللهم اصرعه**»، فصرعه الفرس ثم قامت تحمحم فقال: يا نبي الله مرني بما شئت قال: «**فقف مكانك لا تتركن أحدًا يلحق بنا**» قال: فكان أول النهار جاهدًا على نبي الله ﷺ، وكان آخر النهار مَسْلحة له. فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مطاعين فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر، وحفوا دونهما بالسلاح فقيل في المدينة جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم فعجل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من نبي الله ﷺ ثم رجع إلى أهله، فقال نبي الله ﷺ: «**أي بيوت أهلنا أقرب؟**» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري وهذا بابي. قال: «**فانطلق فهيئ لنا مقيلًا**». قال: قوما على بركة الله فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ، فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**يا معشر اليهود: ويلكم اتقوا**

الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًّا وأني جئتكم بحق فأسلموا»، قالوا: ما نعلمه قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار. قال: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله ما كان ليُسلم قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم. قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم. قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

س: كيف قيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ وقد هدى الله أقوامًا كافرين فأسلموا بعد كفرهم، وآمنوا بعد شركهم؟

ج: لأهل العلم وجهان في الجواب على مثل هذا السؤال:

أحدهما: أن المراد بالظالمين هنا، الذين سبق في علم الله أنهم سيموتون على الكفر، وهم الذين كتبت عليهم الشقاوة، فهؤلاء لا يوفقهم الله لإصابة الحق.

الثاني: أن المراد بالآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ ما داموا قائمين على ظلمهم مستمرين عليه متمادين في الكفر، والعياذ بالله.

❁ ❁ ❁

س: كيف قيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾؟

ج: معلوم أن الهداية هدايتان، هداية دلالة وإيضاح وبيان، وهداية توفيق وسداد، فالهداية المنفية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ هي هداية التوفيق والسداد، أي: أن الله عزَّ وجلَّ لن يوفق القوم الظالمين للإيمان ولن يسددهم، والهداية المثبتة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ هداية الدلالة والبيان، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضــح معنــى قولــه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن أهل الكفر لما استنكفوا عن الإيمان وكفروا بالقرآن، وكذَّبوا الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا لأهـل الإيمـان: لـو كـان هـذا القرآن خيرًا ما سبقتمونا إلى الإيمان به ولا إلى التصديق بالرسول الذي جاء به لأننا أفهم منكم وأعرف بحقائق الأمور منكم، وعقولنا أرجح من عقولكم، ونحـن أعـزُّ منكم فلو كان هذا القرآن من عند الله لعرفنا ذلك ولبادرنا بالإيمـان بـه والتـصديق، ويشهد لهذا المعنى قولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾.

أورد الطبري بإسنادٍ حسن[1] عن قتادة قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ قال: قد قال ذلك قائلون من الناس كانوا أعزّ منهم في الجاهليـة، قالوا: لو كان هذا خيرًا ما سبقنا إليه بنو فلان، يختص الله برحمته مـن يـشاء، ويكـرم الله برحمته من يشاء تبارك وتعالى.

هذا، وهناك وجه آخر من وجـوه التأويـل حاصـله أن قولـه تعـالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ المعني به الذين كفروا من بنـي اسـرائيل قالوا للذي آمن منهم وهو عبد الله بن سلام: لو كان القرآن خيرًا، وحقًّا من عنـد الله ما سبقتنا إليه يا ابن سلام.

والتفسير الأول أظهر والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعـالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: قـالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون بلالًا وعمـارًا وصُهَيبًا وخبابًا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإمـاء، ومـا ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهـم عنايـة. وقـد غلطـوا في ذلك غلطًا فاحشًا، وأخطؤوا خطـأ بينـا، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون: كيـف اهتـدى

(١) الطبري (٣١٢٦١)، وقوله: «يختص...» قول قتادة.

هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وإذا لم يوفق الكفار للإيمان ويهتدوا بهذا القرآن ويسترشدوا به فيتهمونه ويطعنون فيه ويصفونه بالكذب قائلين: هذا إفك قديم أي: هذا كذب أُثر عن الأولين.

كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذ لم يبصروا بمحمد وبما جاء به من عند الله من الهدى، فيرشدوا به الطريق المستقيم ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ يقول: فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أكاذيب من أخبار الأوّلين قديمة، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عنهم، ﴿وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق، وغَمْط الناس».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ومن قبل هذا القرآن أنزلنا كتابًا على موسى عليه

السلام وهو التوراة إمامًا يأتم به بنو إسرائيل فيهتدون بما فيه ويمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه، فيرحمهم الله بذلك وهذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا رسول الله كتابٌ موافق ما فيه لما في التوراة فهو مصدق لها بموافقته لما فيها وكذا مصدق لها فقد أخبرت بمجيئه ونزوله فكونه قد جاء ونزل فنزوله تصديقٌ لها.

وقد نزل بلسانٍ عربي مبين لينذر أهل الشرك الذين ظلموا أنفسهم وبخسوها حقها بكفرهم بالله وشركهم به فنزل القرآن بتحذيرهم مما هم فيه ولإنذارهم عاقبة ما هم عليه مقبلون من النار التي أعدت للكافرين.

وكذا فهذا القرآن مبشرٌ لأهل الإيمان وأهل الإحسان بفسيح الجنان، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٣-٢٠]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿جَزَآءً - كُرْهًا - فِصَٰلُهُۥ - أَوْزِعْنِىٓ - نَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ - أُفٍّ لَّكُمَآ - أَتَعِدَانِنِىٓ - أُخْرَجَ - خَلَتِ - يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ - ءَامِنْ - أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ - حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ - عَذَابَ ٱلْهُونِ - تَفْسُقُونَ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿جَزَآءً﴾	ثوابًا - مجازاةً
﴿كُرْهًا﴾	مشقةً - تعبًا
﴿فِصَٰلُهُۥ﴾	فطامه
﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾	ردني إلى الحق كي أشكر نعمك - ألهمنيْ - أعني
﴿نَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾	لا نؤاخذهم بمساوئ أعمالهم
﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾	قذرًا لكما - نتنًا لكما
﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾	أتخبرانني وتحذرانني
﴿أُخْرَجَ﴾	أُبعث
﴿خَلَتِ﴾	مضت
﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ﴾	يطلبان من الله أن يُغيثهما ويسلم ولدهما
﴿ءَامِنْ﴾	صدق بوعد الله - أقرّ بالبعث بعد الموت
﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾	ما سطره الأولون وكتبوه من الأباطيل والأسمار - حكايات الأولين
﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾	وجب عليهم العذاب
﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾	العذاب المذل المُخزي المُهين
﴿تَفْسُقُونَ﴾	تخرجون من الطاعة إلى المعصية - ترتكبون المعاصي والكبائر والكفر

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- إن الذين وحدوا ربهم ولم يشركوا به شيئًا وأعلنوا ذلك وتلفظوا به وأيقنت به قلوبهم فقالوا ربنا الله وحده لا شريك له ثم ثبتوا على ذلك حتى ماتوا وكذا ثم استقاموا على شرع الله الذي شرعه لهم فلا خوف عليهم مما هو آتٍ من أهوال القيامة وعذابها، وكذا فلا خوف عليهم في قبورهم، ولا عند بعثهم ولا عند احتضارهم وكذا فلا خوفٌ عليهم عمومًا ولا هم يحزنون على شيء قد فاتهم ولا على ما خلَّفوه وراءهم، وأولئك أصحاب الجنة يدخلونها ولا يخرجون منها يمكثون فيها أبدًا ثوابًا ومجازاة من الله لهم بما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الذي لا إله غيره ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين قالوا هذا القول، واستقاموا أهل الجنة وسكانها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها أبدا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يقول: ثوابا منا لهم آتيناهم ذلك على أعمالهم الصالحة التي كانوا في الدنيا يعملونها.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

ج: معنى ذلك -والله تعالى أعلم- وأمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه وبرهما ورحمتهما والعطف عليهما، ثم خُصَّت الأم بالذكر لمزيد فضلها فقال تعالى مبينًا ما

لاقته من تعب وما نالها من مشقة فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي: مشقة وهو في بطنها كان أمره شاقًّا عليها، وكذا عندما وضعته لاقت مشقةً وعناءً.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يقول تعالى ذكره: ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا برًّا بهما، لما كان منهما إليه حملا ووليدا وناشئا، ثم وصف جلّ ثناؤه ما لديه من نعمة أمه، وما لاقت منه في حال حمله ووضعه، ونبهه على الواجب لها عليه من البرّ، واستحقاقها عليه من الكرامة وجميل الصحبة، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ يعني في بطنها كرها، يعني مشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يقول: وولدته كرها يعني مشقة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبا، من وِحَام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أن زمن حمله ورضاعه حتى يُفطم وينفصل عن ثدي أمه ثلاثون شهرًا ومنه استنبط بعض العلماء أن أقل مدةٍ للحمل ستة أشهر لأن الله قال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: أربع وعشرون شهرًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يقول تعالى ذكره: وحمل أمه إياه جنينًا في بطنها، وفصالها إياه من الرضاع، وفطمها إياه شرب اللبن ثلاثون شهرًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد استدل علي، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط، عن بَعْجَةَ بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط، فيقضي الله في ما شاء. فلما أتي بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، علي بالمرأة فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني إني والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات.

❁ ❁ ❁

المراد ببلوغ الأشد

س: ما المراد ببلوغ الأشد في قوله تعالى: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد ببلوغ الأشد بلوغ الحُلم.

الثاني: أن المراد ببلوغ الأشد بلوغ ثلاثٍ وثلاثين من العمر، وهذا الأخير مرويٌّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد أخرج الطبري[1] بإسناد حسن عنه قال: أشده ثلاث وثلاثون سنة، واستواؤه أربعون سنة والعذر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد بيّنا فيما مضى أن الأشدّ جمع شدّ، وأنه تناهي قوّته واستوائه. وإذا كان ذلك كذلك، كان الثلاث والثلاثون به أشبه من الحلم، لأن المرء لا يبلغ في حال حُلمه

(١) الطبري (٣١٢٦٥).

كمال قواه، ونهاية شدّته، فإن العرب إذا ذكرت مثل هذا من الكلام، فعطفت ببعض على بعض جعلت كلا الوقتين قريبا أحدهما من صاحبه، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، ولا تكاد تقول أنا أعلم أنك تقوم قريبا من ساعة من الليل وكله، ولا أخذت قليلا من مال أو كله، ولكن تقول: أخذت عامة مالي أو كله، فكذلك ذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ لا شك أن نسق الأربعين على الثلاث والثلاثين أحسن وأشبه، إذ كان يراد بذلك تقريب أحدهما من الآخر من النسق على الخمس عشرة أو الثمان عشرة.

❀ ❀ ❀

س: ما وجه قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ذلك حين تكاملت حجة الله عليه وسير عنه جهالة شبابه وعرف الواجب لله من الحق في بر والديه.

وأورد عن قتادة بإسناد صحيح قال: وقد مضى من سيئ عمله ما مضى.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- حتى إذا بلغ ابن آدم أشده، وهو بلوغه الحلم أو بلوغه ثلاثًا وثلاثين ثم اكتمل عقله وتمت إقامة الحجة عليه ببلوغه الأربعين رجع إلى الله بعد أن كان بعيدًا، (وفهم هذا الرجوع من قوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾) وسأل ربه أن يعينه على شكر نعمه عليه تلك المتمثلة في كونه جعله مسلمًا موحدًا، وكذا جعل والديه من قبله من أهل الإسلام والتوحيد وكذا سأل ربه عزَّ وجلَّ أن يعينه على صالح الأعمال التي ترضي الله عزَّ وجلَّ وأصلح لي ذريتي واجعلهم من أهل توحيدك وعبادتك وشكرك، إني رجعت إليك وإني من المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة، وكذا إني من المستسلمين لأمرك.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ يقول تعالى ذكره: قال هذا الإنسان الذي هداه الله لرشده، وعرف حقّ الله عليه فيما ألزمه من برّ والديه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ يقول: أغرني بشكر نعمتك التي أنعمت عليّ في تعريفك إياي توحيدك وهدايتك لي للإقرار بذلك، والعمل بطاعتك ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ من قبلي، وغير ذلك من نعمك علينا، وألهمني ذلك. وأصله من وزعت الرجل على كذا: إذا دفعته عليه.

ثم قال:

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ يقول تعالى ذكره: أوزعني أن أعمل صالحا من الأعمال التي ترضاها، وذلك العمل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ يقول: وأصلح لي أموري في ذرّيتي الذين وهبتهم، بأن تجعلهم هداة للإيمان بك، واتباع مرضاتك، والعمل بطاعتك، فوصفه جل ثناؤه بالبرّ بالآباء والأمهات والبنين والبنات.

ثم قال:

وقوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هذا الإنسان. ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يقول: تبت من ذنوبي التي سلفت مني في سالف أيامي إليك ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ يقول: وإني من الخاضعين لك بالطاعة، المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أولئك الذين سبقت صفتهم وبيّنت أعمالهم، وهم الذين بلغوا أشدهم وبلغوا أربعين سنة، واستدركوا ما فات من عمرهم وسألوا الله أن يعينهم على صالح الأعمال التي يرضاها الله عزَّ وجلَّ ويرضى بها عنهم، وأن يصلح لهم ذرياتهم، وكذا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، هؤلاء

المذكورة صفتهم هم الذين يتقبل الله عنهم صالح أعمالهم ويغفر لهم سيئاتهم ويتجاوز لهم عنها، ويدخلهم مع أصحاب الجنة وفي عدادهم، تحقيقًا للوعد الصادق الذي وعدهم به فوعد الله لا يتخلف.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، هم الذين يُتقبل عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال، فيجازيهم به، ويثيبهم عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يقول: ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يقول: نفعل ذلك بهم فعلنا مثل ذلك في أصحاب الجنة وأهلها الذين هم أهلها.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ يقول: وعدهم الله هذا الوعد، وعد الحقّ لا شك فيه أنه موفّ لهم به، الذي كانوا إياه في الدنيا يعدهم الله تعالى، ونصب قوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ لأنه مصدر خارج من قوله: «يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ»، وإنما أخرج من هذا الكلام مصدر وعد وعدًا؛ لأن قوله: «يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ - وَيَتَجاوَزُ» وعد من الله لهم، فقال: وعد الصدق، على ذلك المعنى.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وذكِّر بالذي هذا صفته، ذلكم الذي ذُكر بالبعث والحساب والثواب والعقاب، ذكَّره واللداه المؤمنان، وحذّراه من كفره الذي هو عليه قائم، ولكنه تمادى في العناد والتأفف واستقذار ما قالاه وتكذيبه فقال لهما: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ قذرًا لما قلتماه ونتنًا ما قلتماه ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أتجدانني أنني سأبعث وأحاسب وتتواعدانني على إنكار ذلك، وها هي الأمم والقرون قد ماتوا وذهبوا من قبلي فلم يبعث منهم أحدًا ولم يرجع منهم أحدٌ بعد موته حيًّا، وهما

يستغيثان بالله عزَّ وجلَّ ويستصرخان، قائلين ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ الويل لك من كلامك هذا، أقلع عن هذا، و﴿ءَامِنْ﴾ صدق بالبعث ووحد الله، هكذا يقول الأبوان فيا لها من حالٍ قد وصل إليها الأبوان حنانًا وشفقةً على ولدهما العاق المكذب بالبعث!!

إنهما يعرفان المصير الذي ولدهما عليه مقبلٌ إن هو مات على ذلك إنها الجحيم والعياذ بالله، إنها نارٌ تلظى إنها لظى نزاعة للشوى.

فلذلك فإنهما يستغيثان بالله ويستصرخان ويحذران الولد العاق، ويلك آمن ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إن البعث آت لا ريب فيه ولا شك، فيتمادى هذا الغويُّ في طغيانه قائلًا مكذبًا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾، ما هذا إلا ما سطره الأولون وكتبه الأولون كذبًا وزورًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا نعت من الله تعالى ذكره نعت ضالّ به كافر، وبوالديه عاقّ، وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى الله، فلا تزيده دعاؤهما إياه إلى الحقّ، ونصيحتهما له إلا عتوًّا وتمرّدًا على الله، وتماديًا في جهله، يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ أن دعواه إلى الإيمان بالله، والإقرار ببعث الله خلقه من قبورهم، ومجازاته إياهم بأعمالهم ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ يقول: قذرًا لكما ونتنًا ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ يقول: أتعدانني أن أخرج من قبري من بعد فنائي وبلائي فيه حيًّا.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ يقول: أتعدانني أن أبعث، وقد مضت قرون من الأمم قبلي، فهلكوا، فلم يبعث منهم أحدًا، ولو كنت مبعوثًا بعد وفاتي كما تقولان، لكان قد بعث من هلك قبلي من القرون ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقول تعالى ذكره ووالداه يستصرخان الله عليه، ويستغيثانه عليه أن يؤمن بالله، ويقرّ بالبعث ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾، أي صدّق بوعد الله، وأقر أنك مبعوث من بعد وفاتك، إن وعد الله الذي وعد خلقه أنه باعثهم من قبورهم، ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم بأعمالهم حقّ لا شكَّ فيه، فيقول عدوّ الله مجيبًا لوالديه، وردًّا عليهما نصيحتهما، وتكذيبًا بوعد الله: ما هذا الذي تقولان لي وتدعواني إليه من

التصديق بأني مبعوث من بعد وفاتي من قبري، إلا ما سطره الأوّلون من الناس من الأباطيل، فكتبوه، فأصبتماه أنتما فصدّقتما.

قال القاسمي في «محاسن التأويل»:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ أي: حين دَعَوَاه إلى الإيمان والاستقامة ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ أي: من هذه الدعوة ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي: أبعث من قبري بعد فنائي ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِى﴾ أي: هلكت ولم يرجع أحد منهم ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يطلبان الغياث بالله منه. والمراد إنكار قوله، واستعظامه، كأنهما لجأا إلى الله في دفعه، كما يقال (العياذ بالله)! أو المعنى: يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق، حتى يرجع عما هو عليه ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ أي: صدّق بوعد الله، وأقر أنك مبعوث بعد موتك. و﴿وَيۡلَكَ﴾ في الأصل معناه الدعاء بالهلاك، فأقيم مقام الحث على فعل أو ترك، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك، فإذا سمع ذلك ترك ما هو فيه، وأخذ ما ينجعه ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن وعده تعالى لخلقه، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب، لمجازاتهم بأعمالهم، حق لا شك فيه ﴿فَيَقُولُ﴾ أي: مجيبًا لوالديه، ورادًّا عليهما نصيحتهما، وتكذيبًا بوعد الله ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾ أي: أباطيلهم التي كتبوها.

❁ ❁ ❁

س: هل هذا شخصٌ معين، ذلك الذي قال الله فيه: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ...﴾؟

ج: ذكر البعض أنه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ولكن ذلك لم يصح له سند، ثم إن عبد الرحمن بن أبي بكر قد أسلم، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ...﴾ يفيد أن قائل ذلك سيموت على الكفر، وقد مات عبد الرحمن مسلمًا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ

لَّكُمَآ﴾ - وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - أولئك الذين ذُكرت صفاتهم وأعمالهم، أهل العناد والكفر والتكذيب بالبعث، أولئك هم الذين سبقت لهم الشقاوة، وكتب عليهم في اللوح المحفوظ أنهم سيموتون عليها ويدخلون النار مع من مضى من القرون الكافرة التي مضت قبلهم إنهم كانوا من المغبونين، فقد باعوا الهدى واعتاضوا عنه بالضلال، وباعوا الإيمان واعتاضوا عنه بالكفر والعياذ بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، الذين وجب عليهم عذاب الله، وحلَّت بهم عقوبته وسخطه، فيمن حلّ به عذاب الله على مثل الذي حلّ بهؤلاء من الأمم الذين مضوا قبلهم من الجنّ والإنس، الذين كذّبوا رسل الله، وعتوا عن أمر ربهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ يقول تعالى ذكره: إنهم كانوا المغبونين ببيعهم الهدى بالضلال والنعيم بالعقاب.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ولكل عاملٍ من مؤمن أو كافرٍ درجته ومنزلته يوم القيامة إما درجات في الجنان أو دركات في النيران، وليجازي ربنا كل عاملٍ بعمله ولن يبخس أحدٌ شيئًا مما عمل فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعملَ مثقال ذرة شرًّا يره.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ يقول تعالى ذكره: ولكلّ هؤلاء الفريقين: فريق الإيمان بالله واليوم الآخر، والبرّ بالوالدين، وفريق الكفر بالله واليوم الآخر، وعقوق الوالدين اللذين وصف صفتهم ربنا عزَّ وجلَّ في هذه الآيات منازل ومراتب عند الله يوم القيامة مما عملوا، يعني من عملهم الذي عملوه في الدنيا من صالح وحسن وسيئ يجازيهم الله به.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - واذكر يوم القيامة وذكِّر به، يوم يعرض الذين كفروا على النار فيرونها، بل ويدخلونها ويُقال لهم آنذاك أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، ولم تتركوا شيئًا لأخراكم، ولم تعملوا لأخراكم بل أمضيتم ما تريدونه من الشهوات، وتلذذتم بالمحرمات ولم تعملوا للآخرة، بل كل ما تريدونه في دنياكم واستطعتم فعله فعلتموه دون نظرٍ للآخرة، ودون اعتداد بها ودون اكتراثٍ لها، هذا مع كفركم وعظيم تكذيبكم فاليوم يوم القيامة تعاقبون بالعذاب المُذل المهين المُخزي بسبب استكبارهم عن الإيمان واستنكافهم عنه، وكذلك بسبب فسقكم وخروجكم على طاعة ربكم وعدم امتثالكم أمره، وعدم بعدكم عن مناهيه ومساخطه.

هذا، وقد أورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن قتادة قال:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ قرأ يزيد حتى بلغ ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ تعلمون والله أن أقوامًا يشترطون حسناتهم استبقى رجل طيباته إن استطاع، ولا قوة إلا بالله. ذُكر[1] أن عمر بن الخطاب كان يقول: لو شئت كنت أطيبكم طعامًا، وألينكم لباسًا، ولكني أستبقي طيباتي. ذُكر لنا أنه لما قدم الشأم، صنع له طعام لم ير قبله مثله، قال: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد بن الوليد: لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر، وقال: لئن كان حظنا في الحطام، وذهبوا- قال أبو جعفر فيما أرى أنا- بالجنة، لقد باينونا بونًا بعيدًا.

وذُكر[2] لنا «أن نبيّ الله ﷺ دخل على أهل الصفة مكانًا يجتمع فيه فقراء المسلمين، وهم يرقِّعون ثيابهم بالأدَم، ما يجدون لها رقاعًا، قال: أنتم اليوم خير، أو يوم يغدو أحدكم في حلة، ويروح في أُخرى، ويغدى عليه بجفنة، ويُراح عليه بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة. قالوا: نحن يومئذ خير، قال: «بل أنتم اليوم خير».

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾.

فقوله يعرضون على النار: قال بعض العلماء: معناه يباشرون حرها كقول العرب: عرضهم على السيف إذا قتلهم به، وهو معنى معروف في كلام العرب.

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤] وهذا يدل على أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأحقاف: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥ - ٤٦] لأنه عرض عذاب.

وقال بعض العلماء: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها، والكشف لهم عنها، حتى يروها كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣] الآية. وقال

---

(١) قتادة لم يسمع عمر فهذا القدر الذي سيرد ضعيف الإسناد.

(٢) هذا مرسل فقتادة لم يدرك رسول الله ﷺ.

تعالى: ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ قرأه ابن كثير وابن عامر: (أأذهبتم) بهمزتين وهما على أصولهما في ذلك.

فابن كثير يسهل الثانية بدون ألف إدخال بين الهمزتين.

وهشام يحققها ويسهلها مع ألف الإدخال، وابن ذكوان يحققها من غير إدخال.

وقرأه نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام.

واعلم أن للعلماء كلاماً كثيرًا في هذه الآية قائلين إنها تدل على أنه ينبغي التقشف والإقلال من التمتع بالمآكل والمشارب والملابس ونحو ذلك.

وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفاً منه أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية. والمفسرون يذكرون هنا آثارًا كثيرة في ذلك، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:

التحقيق: إن شاء الله في معنى هذه الآية هو أنها في الكفار وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم، لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وأنها قلنا: إن هذا هو التحقيق، لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه والله تعالى يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] الآية.

أما كون الآية في الكفار فقد صرح الله تعالى به في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الآية.

والقرآن والسنة الصحيحة، قد دلا على أن الكافر إن عمل عملاً صالحاً مطابقاً للشرع، مخلصاً فيه لله، كالكافر الذي يبر والديه، ويصل الرحم ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم يبتغي بذلك وجه الله يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية، ونحو ذلك ولا نصيب له في الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ - ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها» هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفي لفظٍ له عن رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته».

فهذا الحديث الثابت عن النبي ﷺ فيه التصريح، بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، وبمقتضى ذلك. يتعين تعييناً لا محيص عنه، أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها فهو الكافر، لأنه لا يجزى بحسناته إلا في الدنيا خاصة.

وأما المؤمن الذي يجزى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، فلم يذهب طيباته في الدنيا، لأن حسناته مدخرة له في الآخرة، مع أن الله تعالى يثيبه بها في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثواباً في الدنيا وليس ينقص أجر تقواه في الآخرة.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وعلى كل حال فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه ﷺ الطيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها

خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أنهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة، يكون لهم أجر زائد على ذلك، لأن المؤمنين يؤجرون، بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم.

والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذي يذهب طيباته في الحياة الدنيا، لأنه يجزى في الدنيا فقط كالآيات المذكورة، وحديث أنس المذكور عند مسلم، قد قدمناها موضحة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

❀ ❀ ❀

س: معلوم أن الاستكبار يكون بغير الحق، فلماذا أتبع قوله: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك للتأكيد على كبرهم وتعاليهم بغير الحق، فقد يستكبر شخصٌ على شخصٍ كافر مثلًا، وقد تكون له آنذاك وجهة، فلدفع هذا قيل: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، والله أعلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مع أنه من المعلوم أنهم لا يستكبرون في الأرض إلا استكبارًا متلبساً بغير الحق كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم، ونحو ذلك من الآيات، وهو أسلوب عربي نزل به القرآن.

ذكر نبي الله هود عليه السلام مع قومه

قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

[الأحقاف: ٢١-٢٨]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَخَا عَادٍ - بِٱلْأَحْقَافِ - خَلَتِ - ٱلنُّذُرُ - مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ - وَمِنْ خَلْفِهِۦ - لِتَأْفِكَنَا - عَارِضًا - مُّمْطِرُنَا - مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ - تُدَمِّرُ - مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ - وَحَاقَ بِهِم - يَسْتَهْزِءُونَ - وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ - قُرْبَانًا - ضَلُّواْ عَنْهُمْ - إِفْكُهُمْ - يَفْتَرُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَخَا عَادٍ﴾	هو نبي الله هودٌ عليه السلام
﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾	جبال الرمل الصغيرة، (وقيل: إنه جبل من رملٍ بالشام، وقيل: بين عُمان وحضرموت)[1]، والله أعلم. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال: الأحقاف: الرمل الذي يكون كهيئة الجبل تدعوه العرب الحقف، ولا يكون أحقافًا إلا من الرمل، قال: وأخو عاد هود، وجائز أن يكون ذلك جبلًا بالشأم، وجائز أن يكون واديًا بين عمان وحضرموت، وجائز أن يكون الشحر وليس في العلم به أداء فرض، ولا في الجهل به تضييع واجب، وأين كان فصفته ما وصفنا من أنهم كانوا قومًا منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة.
﴿خَلَتِ﴾	مضت
﴿ٱلنُّذُرُ﴾	جمع نذير، والمراد: الرسل الذين أُرسِلوا لإنقاذ أممهم
﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾	ممن الذين سبقوه
﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾	من الذي جاء من بعده، وقيل: من حوله
﴿لِتَأْفِكَنَا﴾	لتصرفنا (الكفر إلى الإيمان)
﴿عَارِضًا﴾	سحابٌ تعرض لهم، وقد كان متفرقًا في أنحاء السماء فاجتمع وانضم بعضه إلىٰ بعض

(١) وقال مجاهد: الأحقاف: الأرض.

﴿مُّمۡطِرُنَاۚ﴾	نازلٌ علينا
﴿مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾	ما طلبتم وقوعه عاجلًا
﴿تُدَمِّرُ﴾	تخرب - تهلك
﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾	أعطيناهم ما لم نعطكم - فيما لم نمكنكم فيه
﴿وَحَاقَ بِهِم﴾	حلَّ بهم
﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾	يكذِّبون - يسخرون
﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾	نوعنا الآيات - بيناها - وضحناها
﴿قُرۡبَانًا﴾	قربةً يتقربون بها إلى الله
﴿ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ﴾	غابوا عنهم وهم في أشد الاحتياج
﴿إِفۡكُهُمۡ﴾	كذبهم
﴿يَفۡتَرُونَ﴾	ينسبون إلى الله ما لم يقله

❀ ❀ ❀

س: من المراد بـ ﴿أَخَا عَادٍ﴾؟

ج: هو نبي الله هود عليه السلام.

❀ ❀ ❀

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - واذكر يا رسول الله لمن أرسلت إليهم من أهل مكة واذكر كذلك لعموم من بعثت إليهم نبي الله هودًا عليه السلام الذي أرسله الله عزَّ وجلَّ إلى قبيلة عادٍ الذين كانوا يسكنون الأحقاف ولكن قد أتاهم الله قوة عظيمة في الأبدان فقهروا أهل الأرض، وأشركوا بالله عزَّ وجلَّ ما لم ينزل به سلطانًا فأرسل

إليهم نبي الله هودًا عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد ويأمرهم بعبادة الله عزَّ وجلَّ وينهاهم عن الشرك، كما قد أرسل الله عزَّ وجلَّ على القرون والأمم التي تقدمته والتي جاءت من بعده، وكما أرسل الله كذلك إلى الأمم من حوله، كلهم أُرسلوا لأقوامهم لدعوتهم إلى التوحيد قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن أنتم أصررتم على الشرك ومُتم عليه ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وهو عذاب النار يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

ج: المعنى، والله اعلم، أن قوم عاد لما ذكرهم نبيهم هودٌ عليه السلام بعبادة الله وحده لا شريك له وأمرهم بذلك قالوا له: أجئتنا لتصرفنا عن الآلهة التي نعبدها من أصنام وأوثان.

ثم استعجلوا العذاب الذي حذرهم منه نبيهم هودٌ عليه السلام فقالوا: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فائتنا بما تعدنا من صور العذاب إن كنت من الصادقين في قولك أننا سنعذب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت عاد لهود، إذ قال لهم: لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، وإلى اتباعك على قولك.

وأورد أثرًا عن ابن زيد فيه قال: في قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ قال: لتزيلنا، وقرأ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ [الفرقان: ٤٢] قال: تضلنا وتزيلنا وتأفكنا ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على عبادتنا ما نعبد من الآلهة ﴿إِن كُنتَ﴾ من أهل الصدق في قوله وعداته.

قال الرازي في «التفسير الكبير»:

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم قالوا ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ الإفك الصرف، يقال أفكه عن رأيه أي صرفه، وقيل بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ وعن

عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ معاجلة العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ في وعدك.

❁ ❁ ❁

س: كثيرًا ما يرد عن أهل الكفر استنكارهم لوقوع العذاب واستعجالهم له على سبيل التكذيب والتحدي، اذكر بعض الأدلة على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سبأ: ٢٩].

وكذا قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [السجدة: ٢٨].

وقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

❁ ❁ ❁

س: قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ العلم بماذا؟

ج: العلم بوقت نزول العذاب.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - قل يا رسول الله لهؤلاء المستعجلين بالعذاب إنما العالم بوقت وقوعه وحلوله ونزوله هو الله، وما أنا إلا رسولٌ أبلغكم ما أمرني الله بتبليغكم إياه، ولكني أراكم قومًا لا تعرفون ما يضركم وما ينفعكم فمن ثم أشركتم بالله ومن ثمَّ استعجلتم نزول العذاب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال هود لقومه عاد: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء ما أعدكم به من عذاب الله على كفركم به عند الله، لا أعلم من ذلك إلا ما علمني ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ يقول: وإنما أنا رسول إليكم من الله، مبلغ أبلغكم عنه ما أرسلني به من الرسالة ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله، وفي استعجال عذابه.

قال الرازي في «التفسير الكبير»:

فعند هذا قال هود: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وإنما صلح هذا الكلام جواباً لقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ لأن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ استعجال منهم لذلك العذاب فقال لهم هود لا علم عندي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب، إنما علم ذلك عند الله تعالى ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ وهو التحذير عن العذاب، وأما العلم بوقته فما أوحاه الله إليّ ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا يحتمل وجوهاً الأول: المراد أنكم لا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا سائلين عن غير ما أذن لهم فيه وإنما بعثوا مبلغين. الثاني: أراكم قوماً تجهلون من حيث إنكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم فيغلب على ظني أنه قرب الوقت الذي ينزل عليكم العذاب بسبب هذ الجهل المفرط والوقاحة التامة. الثالث: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ حيث تصرون على طلب العذاب وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقاً، ولكن لم يظهر أيضاً لكم كوني كاذباً فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد لقومك الرّادّين عليك ما جئتهم به من الحقّ هودًا أخا عاد، فإن الله بعثك إليهم كالذي بعثه إلى عاد، فخوّفهم أن يحلّ بهم من نقمة الله على كفرهم ما حلّ بهم إذ كذّبوا رسولنا هودًا إليهم، إذ أنذر قومه عادًا بالأحقاف. والأحقاف: جمع حقف وهو من الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلًا.

ثم قال أيضًا:

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول تعالى ذكره: وقد مضت الرسل بإنذار أممها ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يعني: من قبل هود ومن خلفه، يعني: ومن بعد هود. وقد ذُكر أن ذلك في قراءة عبد الله ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ﴾، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول: لا تشركوا مع الله شيئا في عبادتكم إياه، ولكن أخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهة، إنه لا إله غيره، وكانوا فيما ذُكر أهل أوثان يعبدونها من دون الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ يعني: وقد أرسل الله إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي: لتصدنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾. استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعادًا منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

❁ ❁ ❁

المشروع عند هبوب الرياح ورؤية الحب

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فلما رأى قوم عاد الذين أرسل إليهم نبي الله هود

عليه السلام، لما رأوا سُحبًا مُتفرقة في السماء قد اجتمعت وأقبلت على بلادهم ووديانهم وأقبلت هذه السحابة العظيمة السوداء وأظلت وديانهم قالوا فرحين مستبشرين: هذا عارضٌ مُمطرنا، هذه السحابة ستمطر ماءها على بلادنا، فقيل لهم، إنها ليست بسحابة ممطرة نافعة بل هي العذاب الذي استعجلتم وقوعه واستبعدتم حلوله ها هو قد جاءكم في هذه الريح التي فيها عذاب أليم.

وهذه بعض الآثار الواردة والأقوال في تفسير هذه الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما جاءهم عذاب الله الذي استعجلوه، فرأوه سحابا عارضا في ناحية من نواحي السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ والعرب تسمي السحاب الذي يُرَى في بعض أقطار السماء عشيا، ثم يصبح من الغد قد استوى، وحبا بعضه إلى بعض عارضا، وذلك لعرضه في بعض أرجاء السماء حين نشأ، كما قال الأعشى:

يا مَن يَرَى عارضا قَدْ بِتُّ أرْمُقُهُ كأنَّمَا البَرْقُ في حافاتِهِ الشُّعَلُ

﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ ظنا منهم برؤيتهم إياه أن غيثا قد أتاهم يَحيون به، فقالوا: هذا الذي كان هودٌ يعدنا، وهو الغيث.

وأورد عن قتادة[1] بإسنادٍ حسنٍ قال:

﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ...﴾ الآية. وذُكر لنا أنهم حبس عنهم المطر زمانا، فلما رأوا العذاب مقبلًا ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾. وذُكر لنا أنهم قالوا: كذب هود كذب هود؛ فلما خرج نبيّ الله ﷺ فشامه، قال: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤﴾[2].

ثم قال الطبري:

وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نبيه ﷺ هود لقومه لما قالوا له عند رؤيتهم عارض العذاب، قد عرض لهم في السماء هذا عارض ممطرنا نحيا به، ما هو بعارض غيث، ولكنه عارض عذاب لكم، بل هو ما استعجلتم به: أي هو العذاب الذي استعجلتم به، فقلتم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

(١) الطبري (٣١٢٩٨).

(٢) ومعلوم أن مثل هذا الخبر متلقى من الإسرائيليات في غالب الأحوال.

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ [الأحقاف: ٢٢] ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ والريح مكررة على ما في قوله: ﴿هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ كأنه قيل: بل هو ريح فيها عذاب أليم.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن عمرو بن ميمون قال: كان هود جلدًا في قومه، وإنه كان قاعدًا في قومه، فجاء سحاب مكفهرّ، فـ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ قال: فجاءت ريح فجعلت تلقي الفسطاط، وتجيء بالرجل الغائب فتلقيه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: هو العذاب الذي قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢].

❁ ❁ ❁

س: ما المشروع فعله عند هبوب الريح، وعند رؤية السحب؟

ج: أخرج مسلم[1] في صحيحه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: **«اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»** قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: **«لعله ياعائشة كما قال قوم عاد:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وفي رواية لمسلم[2] من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أيضًا قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم، عرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سر به، وذهب عنه ذلك، قالت عائشة: فسألته، فقال: **«إني خشيت أن يكون عذابًا سُلِّط على أمتي»**، ويقول إذا رأى المطر: **«رحمة»**.

---

(١) مسلم في طرق حديث (٨٩٩).

(٢) مسلم (٨٩٩).

س: قد ذكر رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة في موطن من المواطن، اذكر هذا الموطن.

ج: هذا ورد فيما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يَتبسَّم».

قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناسَ إذا رأوا الغيمَ فرِحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة ما يُؤْمنِّي أن يكون فيه عذاب؟ عُذِّب قومٌ بالرِّيح، وقد رأى قومٌ العذابَ، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[1].

❁ ❁ ❁

س: كيف قيل: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وبيوت نبي الله هود عليه السلام ومن آمن معه لم تُدمر؟

ج: الظاهر، والله أعلم، أن الأمر كما ذكر عددٌ من أهل العلم أنها تدمر كل شيء أُمرت بتدميره، وكل شيء أتت عليه، وإلا فقد صرفها الله عن أشياء وأقوام هذا وقد قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ أي: كالشيء البالي التالف المتحطم الذي أصبح ترابًا أو كاد أن يصبح ترابًا، هذا وقد قال الطبري رحمه الله:

وإنما عنى بقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ مما أُرسلت بهلاكه لأنها لم تُدمر هودًا ومن كان آمن به.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات: ٤٢] أي: كالشيء البالي. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

---

(١) البخاري (٤٨٢٨، ٤٨٢٩).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾.

ج: المعنى، والله تبارك وتعالى أعلم، فأصبح قوم عاد وبعد أن أفناهم الله عزَّ وجلَّ رمادًا وترابًا لا يُرى منهم أحدٌ، وفقط التى تُرى هي المساكن والبيوت.

❁ ❁ ❁

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾؟

ج: الجمع، والله أعلم، بأن يُقال إنهم، وبعد أن أصبحوا وكأنهم أعجازُ نخلٍ منقعر استمرت بهم الريح إلى أن جعلتهم ترابًا.

❁ ❁ ❁

س: وضح المستفاد من التذكير بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾.

ج: معنى الآية الكريمة، والله أعلم، وكما جازينا قوم عادٍ بإبادتهم وأرسلنا الريح عليهم فأهلكناهم، فهكذا نجازي كل مجرم مستكبر على الله مشركٍ به متكبر على خلقه باغ عليهم.

والمستفاد من هذا التذكير الخروج من خصوص القصة وما حلَّ بالقوم إلى العموم، فليحذر كل مجرم وليحذر كل مستكبر فسيحل به نحو ما أحلَّه الله عزَّ وجلَّ بالأمم المتقدمة، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ يقول تعالى ذكره: كما جزينا عادًا بكفرهم بالله من العقاب في عاجل الدنيا، فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي القوم الكافرين بالله من خلقنا، إذ تمادوا في غيهم وطَغَوا على ربهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ولقد أعطينا قبيلة عاد التي أهلكناها ودمرناها، أعطيناها في الدنيا قبل إهلاكها ما لم نعطكم من متاع الحياة الدنيا وزخرفها، لقد

أتيناهم أموالا كثيرة ووسعنا عليهم توسعة عظيمة، وكذا أنعمنا عليهم بقوةٍ في أبدانهم وبسطة في أجسامهم، وجعلنا لهم تمكينًا في دنياهم يفعلون فيها ما يشاءون، ولم نعطكم في دنياكم مثل ما أعطيناهم فقد كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا وأقوى أبدانا وأعظم جسمانًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لكفار قريش: ولقد مكنَّا أيها القوم عادا الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا، وأعطيناهم منها الذي لم نعطكم منهم من كثرة الأموال، وبسطة الأجسام، وشدّة الأبدان.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ...﴾ الآية.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أننا لم نجعلهم في دنياهم صُمًّا وبكمًا وعُميًا عن أمور الدنيا فقد كانوا يسمعون ويبصرون ويفهمون، لكن ما استعملوا سمعهم في طاعة الله ولا استمعوا إلى ما ينفعهم مما جاءهم به نبيهم عليه السلام ولم يستدلوا بأبصارهم على وحدانية الله، ولم يفكروا بقلوبهم في قدرة الله وتوحيده، بل عدلوا عما ينفعهم وتوغلوا وأوغلوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم فيما يصرفهم عن طاعة الله عزَّ وجلَّ وعن مرضاته، فلم تنفعهم أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بشيء فقد كانوا مكذبين برسل الله جاحدين لآيات الله منكرين بها، فلذا حلَّ بهم عقاب الله الذي كانوا يستهزئون بنبيهم لما خوفهم منه، وكانوا يكذبون به لما أخبرهم نبيهم بوقوعه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ يسمعون به مواعظ ربهم، وأبصارا يبصرون بها حجج الله، وأفئدة يعقلون بها ما يسرّهم وينفعهم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ يقول: فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد إذ لم يستعملوها فيما أعطوها له، ولم يعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله، ولكنهم استعملوها فيما يقرّبهم من سخطه ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يقول: إذ كانوا يكذّبون بحجج الله وهم رُسله وينكرون نبوّتهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول: وعاد عليهم ما استهزءوا به، ونزل بهم ما سخروا به، فاستعجلوا به من العذاب، وهذا وعيد من الله جلّ ثناؤه لقريش، يقول لهم: فاحذروا أن يحلّ بكم من العذاب على كفركم بالله وتكذيبكم رسله، ما حلّ بعاد، وبادروا بالتوبة قبل النقمة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ج: هذا، والله تعالى أعلم، خطاب لأهل مكة، للذين أشركوا منهم، وحاصل معناه يا أهل مكة يا أهل الشرك لقد أهلكنا أهل الكفر في القرى والبلاد المجاورة لكم، وقبل إهلاكهم ذكرناهم ووعظناهم وحذرناهم ونوعنا الآيات لعلهم يرجعون عن كفرهم وشركهم.

أما القرى والبلاد التي حول مكة، وذكر الله عزَّ وجلَّ أنه أهلكها، فمنها ديار ثمود، وقوم لوط التي هي سدوم وبلاد سبأ بمأرب وغيرها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لكفار قريش محذّرهم بأسه وسطوته، أن يحلّ بهم على كفرهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ أيها القوم من القُرَى ما حول قريتكم، كحجر ثمود وأرض سدوم ومأرب ونحوها، فأنذرنا أهلها بالمَثُلات، وخرّبنا ديارها، فجعلناها خاوية على عروشها.

وقوله: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يقول: ووعظناهم بأنواع العظات، وذكرناهم بضروب من الذِّكْر والحجج، وبيَّنا لهم ذلك.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾ يقول ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر بالله وآياته. وفي الكلام متروك ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: فأبوا إلا الإقامة على كفرهم، والتمادي في غيهم، فأهلكناهم، فلن ينصرهم منا ناصر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ يريد حجر ثمود وقرى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يعني الحجج والدلالات وأنواع البينات والعظات أي بيناها لأهل تلك القرى ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾ فلم يرجعوا وقيل: أي صرفنا آيات القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٨﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فهلا نصرت هذه الآلهة التي عبدها الأقوام من دون الله وزعموا أن عبادتها تقربهم إلى الله عزَّ وجلَّ، هلا نصرتهم عند حلول العذاب ونزول النقم؟ وهل أغنت عنهم من الله من شيء؟ كلا بل تخلَّت عنهم وسلكت طريقًا غير طريقهم متبرئةً منهم وغابت عنهم فهذا كذبهم إذ كذبوا فقالوا: إن عبادتها تقربنا إلى الله!! ذلك كذبهم إذ قالوا: إنها تغني عنهم من الله شيئًا وتنفعهم وتضرهم!!

وهذا افتراؤهم على الله عزَّ وجلَّ إذ جعلوا له شريكًا ودعوا معه إلهًا آخر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جلّ ثناؤه: فلولا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم أوثانهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قربانا يتقرّبون بها فيما زعموا إلى ربهم منا إذ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إن كانت تشفع لهم عند ربهم كما يزعمون.

وهذا احتجاج من الله لنبيه محمد ﷺ على مُشركي قومه، يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئا، أو تنفعكم عند الله كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها، لتقرّبكم إلى الله زلفى، لأغنت عمن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعت عنها العذاب إذا نزل، أو لشفعت لهم عند ربهم، فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي عليه أنتم، ولكنها ضرتهم ولم تنفعهم.

يقول تعالى ذكره: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ يقول: بل تركتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، فأخذت غير طريقهم، لأن عبدتها هلكت، وكانت هي حجارة أو نحاسا، فلم يصبها ما أصابهم ودعوها، فلم تجبهم، ولم تغثهم، وذلك ضلالها عنهم، وذلك إفكهم، يقول عزّ وجلّ هذه الآلهة التي ضلّت عن هؤلاء الذين كانوا يعبدونها من دون الله عند نزول بأس الله بهم، وفي حال طمعهم فيها أن تغيثهم، فخذلتهم، هو إفكهم: يقول: هو كذبهم الذي كانوا يكذّبون، ويقولون هؤلاء آلهتنا وما كانوا يفترون، يقول: وهو الذي كانوا يفترون، فيقولون: هي تقرّبنا إلى الله زُلفى، هي شفعاؤنا عند الله. وأخرج الكلام مخرج الفعل، والمعنى المفعول به، فقيل: وذلك إفكهم، والمعنى فيه: المأفوك به لأن الإفك إنما هو فعل الآفك، والآلهة مأفوك بها. وقد مضى البيان عن نظائر ذلك قبل، قال: وكذلك قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

استماع الجن للقرآن

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[الأحقاف: ٢٩-٣٥]

س: - اذكر معنى ما يلي:

﴿صَرَفْنَآ - قُضِىَ - وَلَّوْا - مُّنذِرِينَ - مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - يَهْدِىٓ - طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ - دَاعِىَ ٱللَّهِ - يُجِرْكُم - بِمُعْجِزٍ - يَعْىَ - أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ - وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿صَرَفْنَآ﴾	وجهنا
﴿قُضِىَ﴾	انتهت قراءته - انتهيت من قراءته يا رسول الله - فرغ رسول الله من قراءته
﴿وَلَّوْا﴾	انصرفوا
﴿مُّنذِرِينَ﴾	مخوِّفين قومهم من العذاب
﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾	يصدق الكتب التي أخبرت به ومنها التوراة والإنجيل؛ وذلك لأنها أخبرت بزواله فإذا لم ينزل لصارت مُكذبة وأيضًا ما فيه من الأخبار والتوحيد يوافق ما فيها
﴿يَهْدِىٓ﴾	يرشد
﴿طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	طريق لا اعوجاج فيه
﴿دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾	الذي يدعو إلى الله، وهو هنا رسول الله ﷺ
﴿يُجِرْكُم﴾	ينقذكم
﴿بِمُعْجِزٍ﴾	بهارب - بغائب - لن يسبب لله العجز عن عدم إدراكه
﴿يَعْىَ﴾	يتعب
﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾	أصحاب العزائم القوية الذين صبروا على المصائب والشدائد والتكاليف
﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾	لا تطلب العذاب العاجل لهم - لا تستعجل نزول العذاب عليهم

❁ ❁ ❁

س: ما فائدة التذكير باستماع الجن للقرآن؟

ج: هذا توبيخٌ للقرشيين الذين كذبوا رسول الله ﷺ وكفروا بالقرآن، فقيل لهم

هؤلاء النفر من الجن آمنوا وصدقوا وأيقنوا بمجرد استماعهم للقرآن، وكذا بادروا بالتوبة، وبادروا بدعوة إخوانهم إلى هذا القرآن وأصبحوا رسلًا إلى أقوامهم يبلغونهم ما جاء به الرسول الكريم محمد ﷺ، فما بالكم يا أهل الكفر معرضين عن هذا الكتاب العزيز؟؟!!

❁ ❁ ❁

س: وضح سبب استماع الجن للقرآن من رسول الله ﷺ.

ج: سبب ذلك فيما ورد في مجموعة كبيرة من الأحاديث والآثار أن النبي ﷺ لما بعث شددت الحراسة على السماء، وقد كانت الجن قبل مبعث رسول الله ﷺ يتنصتون للملائكة في السماء الدنيا ويستمعون إلى ما يقولون فلما بعث النبي ﷺ أرسلت عليهم الشهب فاحترقوا، فقال بعضهم لبعض، وقال لهم كبيرهم إبليس اضربوا مشارق الأرض ومغاربها للبحث عن سبب إرسال الشهب علينا، فضربت الجن مشارق الأرض ومغاربها فوجهت طائفة منهم نحو تهامة ورسول الله ﷺ بنخلةٍ عامدًا إلى سوق عكاظ فوافقوا النبي ﷺ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن قال بعضهم لبعض أنصتوا فلما انتهت قراءة النبي ﷺ رجعوا إلى قومهم فأخبروهم وقد تقدم هذا بشيء من التوسع في سورة الجن فارجع إليها إن شئت من تفسيري التسهيل لتأويل التنزيل جزء تبارك.

❁ ❁ ❁

س: هل كان رسول الله ﷺ مرسلًا إلى الجن كذلك؟

ج: نعم قد كان كذلك صلوات الله وسلامه عليه.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

وقال الجن لما استمعوا القرآن: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وقبلها قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الأخبار الثابتة الموضحة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ...﴾.

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: «**يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا**». فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وإنما أُوحي إليه قول الجن»[١].

* وما رواه مسلم في صحيحه من طريق عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية، فقلنا استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم تجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم....الحديث[٢].

* وما رواه البخاري من حديث أبي هريرة[٣] رضي الله عنه أنه كان يحمل مع النبي ﷺ إداوة لوضوئه وحاجته. فبينما هو يتبعه بها فقال: «من هذا؟» فقال: أنا أبو هريرة. فقال:

(١) البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩).

(٢) مسلم حديث (٤٥٠).

(٣) البخاري (٣٨٦٠).

«ابغني أحجارًا أستنفض بها، ولا تأتني بعظم ولا بروثة». فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي حتى وضعته إلى جنبه، ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت معه فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: «هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعمًا».

* وما أخرجه البخاري[1] من طريق معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقًا من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني عبد الله - أنه آذنت بهم شجرة[2].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد إيراده هذا الخبر: «فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتًا مقدَّمًا على نفي ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أي: أعلمته باستماعهم، والله أعلم».

❀ ❀ ❀

س: هل كان من الجن رسلٌ؟

ج: الذي أستحضره في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذه محتملة.

ولكن قد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾.

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذر، وليس فيهم رسل ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولًا؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

---

(١) البخاري (٣٨٥٩).

(٢) ولمزيد راجع تفسيري التسهيل (جزء تبارك سورة الجن).

فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرًا عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى - عليه السلام - أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه أول مرة، فقال: بَخٍ بَخٍ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جَذَعًا.

❀ ❀ ❀

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن الجن الذين استمعوا لقراءة رسول الله ﷺ قالوا لإخوانهم الذين لم يحضروا القرآن ولم يستمعوا إليه، يا قومنا إنا سمعنا كتابًا يُتلى من بعد ذلك الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام يوافق التوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ ويرشد إلى الصواب ويدل على الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة بلا اعوجاج.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء الذين صُرفوا إلى رسول الله ﷺ من الجن لقومهم لما انصرفوا إليهم من عند رسول الله ﷺ: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ مِنَ الْجِنِّ ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ﴾ كِتَابُ ﴿مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ يقول: يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رُسله.

وقوله: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ يقول: يرشد إلى الصواب، ويدلّ على ما فيه لله رضا ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾﴾ يقول: وإلى طريق لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين: خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: في العمليات.

❀ ❀ ❀

س: وضح المعنى الإجمالي لقول الجن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أن الجن الذين استمعوا لقراءة رسول الله ﷺ رجعوا إلى قومهم منذرين مُحذرين قائلين لهم يا قومنا أجيبوا رسول الله الذي يتلو هذا القرآن وصدقوا به، حتى يغفر الله لكم ذنوبكم وينقذكم من عذاب أليم مؤلم موجع.

قال الطبري - رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر من الجنّ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ من الجن ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ قالوا: أجيبوا رسول الله ﷺ إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ يقول: وصدّقوه فيما جاءكم به وقومه من أمر الله ونهيه، وغير ذلك مما دعاكم إلى التصديق به ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ يقول: يتغمد لكم ربكم من ذنوبكم فيسترها لكم ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ يقول: وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم، وأنبتم من كفركم إلى الإيمان بالله وبداعيه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا صلوات الله وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة

التي فيها خطاب القومين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل: إن ﴿مِّن﴾ هاهنا زائدة وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: ويقيكم من عذابه الأليم.

❀ ❀ ❀

س: هل يدخل مؤمنو الجن الجنَّة؟

ج: نعم يدخل أهل الإيمان من الجن الجنة، وذلك للعمومات الواردة في أن أهل الإيمان والعمل الصالح يدخلون الجنة، وكذا أهل التقوى، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

أما: استدلال من استدل بقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ على أن غاية ما يحصل عليه مؤمنو الجن أن ذنوبهم تُغفر ويُجاروا من عذاب أليم، فاستدلال بعيد وليس فيه ما يشهد لقائله، فلا مانع أن يُجار الشخص من عذاب أليم وتغفر له ذنوبه ومع ذلك يدخل فسيح الجنات، وقد قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

وليس معنى ذلك أنهم لا يدخلون الجنة.

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

وقال ابن أبي حاتم[1]: حدثنا أبي قال: حدثت عن جرير، عن ليث، عن

(١) إسناده ضعيف إلىٰ مجاهد لضعف ليث بن أبي سليم واختلاطه.

مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مُؤمِنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجِنّ هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بِشَيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار -وهو مقام عدل- فَلأنْ يجازي مؤمنهم بالجنة -وهو مقام فَضْل- بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكي فيهم أقوال غريبة فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون في رَبَضها وحولها وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرونهم بني آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عِوَضا عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقول الجن: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ومن لم يسلم، ومن لم يطع هذا الرسول ﷺ ويصدق بالقرآن فليس بهاربٍ من عذاب الله، وليس بفائت، ولن يعجز ربه عن إدراكه ولن يُعجز ربه بهروبه فإلى أين يهرب والأرض أرض الله وملكه والسماوات سماواته فهؤلاء الذين كذبوا القرآن وأعرضوا عن الإيمان، بضلالهم وتكذيبهم قد ابتعدوا عن الحق ابتعادًا كبيرًا دالًّا عن انصرافهم الواضح عن الحق والصواب إلى الباطل والضلال.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر لقومهم: ومن لا يجب أيُّها القوم رسول الله ﷺ محمدا، وداعيه إلى ما بعثه بالدعاء إليه من توحيده، والعمل بطاعته ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: فليس بمعجز ربه بهربه، إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وتركه تصديقه وإن ذهب في الأرض هاربا، لأنه حيث كان فهو في سلطانه وقبضته ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يقول: وليس لمن لم يجب داعي الله من دون ربه نُصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه ربه على كفره به وتكذيبه داعيه.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ يقول: هؤلاء الذين لم يجيبوا داعي الله فيصدّقوا به، وبما دعاهم إليه من توحيد الله، والعمل بطاعته في جور عن قصد السبيل، وأخذ على غير استقامة،﴿مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾: يقول: يبين لمن تأمله أنه ضلال، وأخذ على غير قصد.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال مخبرًا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه [ولله الحمد والمنة].

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أو لم ير هؤلاء المكذبون بالبعثِ المنكرون للثواب والعقاب يوم القيامة، أو لم ير هؤلاء أن الله عزَّ وجلَّ قد خلق السموات والأرض ولم يتعب إذ خلقها سبحانه وتعالى، أفيعجز - سبحانه - عن إحياء الموتى، فمعلوم أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [غافر: ٥٧]، فبلا شك وبلا ريب فرب العزة الذي لم يتعب إذ خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الله خلقه من بعد وفاتهم، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلائهم، القائلون لآبائهم وأمهاتهم ﴿أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ [الأحقاف: ١٧]، فلم يبعثوا بأبصار قلوبهم، فيروا ويعلموا أن الله الذي خلق السموات السبع والأرض، فابتدعهنّ من غير شيء، ولم يعي بإنشائهنّ، فيعجز عن اختراعهنّ وإحداثهنّ ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ فيخرجهم من بعد بلائهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم.

ثم قال:

وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ يقول تعالى ذكره: بلى، يقدر الذي خلق السموات والأرض على إحياء الموتى: أي الذي خلق ذلك على كلّ شيء شاء خلقه، وأراد فعله، ذو قدرة لا يعجزه شيء أراده، ولا يُعييه شيء أراد فعله، فيعييه إنشاء الخلق بعد الفناء، لأن من عجز عن ذلك فضعيف، فلا ينبغي أن يكون إلها من كان عما أراد ضعيفًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: ولم

يَكْرِثهُ خلْقهن، بل قال لها: «كوني» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾. ثم قال متهددا ومتوعدا لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه دخول الباء في قوله ﴿بِقَٰدِرٍ﴾.

ج: الظاهر، والله أعلم، أنها كالباء في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩]، وفي قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

أي: أنها زائدة للتوكيد، نقله القرطبي عن أبي عبيدة والأخفش.

ثم قال:

وقال الكسائي والفراء والزجاج: الباء فيه خلف الاستفهام والجحد في أول الكلام. قال الزجاج: والعرب تدخلها مع الجحد تقول: ما ظننت أن زيدًا بقائم. ولا تقول: ظننت أن زيدًا بقائم. وهو لدخول «ما» ودخول «أنّ» للتوكيد. والتقدير: أليس الله بقادر، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ﴾ [يس: ٨١].

❁ ❁ ❁

بعض استدلالات على البعث

س: كثيرًا ما يستدل بخلق السموات والأرض على البعث. اذكر شيئًا من الأدلة على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فهذا مفهومه دال على البعث.

قولـه تعـالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ويوم يُوقف أهل الكفر على النار فيرونها بأعينهم ويُقال لهم: أليس هذا العذاب حقًّا كما وعدناكم فيقولون: بلى، إنه لحق فيقال لهم فذوقوا العذاب بسبب كفركم الذي كفرتم في دنياكم وتكذيبكم بالبعث الذي صدر منكم في دنياكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويوم يعرض هؤلاء المكذّبون بالبعث، وثواب الله عباده على أعمالهم الصالحة، وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة، على النار، نار جهنم، يقال لهم حينئذ: أليس هذا العذاب الذي تعذّبونه اليوم، وقد كنتم تكذّبون به في الدنيا بالحقّ، توبيخا من الله لهم على تكذيبهم به، كان في الدنيا ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ يقول: فيجيب هؤلاء الكفرة من فورهم بذلك، بأن يقولوا: بلى هو الحق والله قال: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: فقال لهم المقرّر بذلك: فذوقوا عذاب النار الآن بما كنتم تجحدونه في الدنيا، وتنكرونه، وتأبون الإقرار إذا دُعيتم إلى التصديق به.

❁ ❁ ❁

أولو العزم من الرسل

س: من هم أولو العزم من الرسل؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أن أولي العزم من الرسل هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه، وهم المذكورون المنصوص على أسمائهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

ومن العلماء من قال: إن الرسل كلهم أولو عزم.

ولكن القول الأول أظهر -والله أعلم.

فلقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، وقد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سُورَتَي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس- والله أعلم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافاً كثيرًا.

وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام.

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله ﷺ أن يصبر كما صبروا أربعة فصار هو ﷺ خامسهم.

واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن لفظة (من)، في قوله: من الرسل بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] الآية، فأمر الله جل وعلا نبيه في آية القلم هذه بالصبر، ونهاه عن أن يكون مثل يونس؛ لأنه هو صاحب الحوت وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥] فآية القلم، وآية طه المذكورتان كلتاهما تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي ﷺ بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل والعلم عند الله تعالى.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

ج: المعنى: فاصبر يا رسول الله كما صبر فضلاء الأنبياء الذين صبروا على الشدائد والمحن وامتثلوا التكاليف خير امتثال واجتنبوا النواهي خير اجتناب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مثبته على المضيّ لما قلَّده من عبْء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة ﷺ، وآمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة. وقيل: إن أولي العزم منهم، كانوا الذين امتُحِنوا في ذات الله في الدنيا بِالمحَن، فلم تزدهم المحن إلا جدًّا في أمر الله، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ولا تطلب عذاب هؤلاء عاجلًا فإن لهم موعدًا لن يخلفوه وأجلًا لن يتجاوزوه ولا محالة أنه واقعٌ بهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾ [الطارق: ١٧].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمراد بالآيات، نهيه ﷺ عن طلب تعجيل العذاب لهم، لأنهم معذبون، لا محالة عند انتهاء المدة المحددة للإمهال، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ۝٨٤﴾ [مريم: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٢٤﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ

عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٢٦] الآية. وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩ - ٧٠] إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أن هؤلاء المكذبين إذا جاءهم العذاب وعاينوه وطلعت عليهم بوادره نسوا كل ما حدث لهم في الدنيا، وكأنهم لم يلبثوا فيها إلا ساعة من النهار.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٥].

وكما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ يقول: ولا تستعجل عليهم بالعذاب، يقول: لا تعجل بمسألتك ربك ذلك لهم فإن ذلك نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾ يقول: كأنهم يوم يرون عذاب الله الذي يعدهم أنه منزله بهم، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، لأنه ينسيهم شدّة ما ينزل بهم من عذابه، قدر ما كانوا في الدنيا لبثوا، ومبلغ ما فيها مكثوا من السنين والشهور، كما قال جل ثناؤه: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، كقوله:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.
[يونس: ٤٥]

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾.

ج: لأهل العلم وجهان في ذلك:

أحدهما: أن قوله ﴿بَلَٰغٌ﴾ قبله مقدرٌ محذوف والمعنى هذا القرآن بلاغ وإنذارٌ وتذكيرٌ.

الثاني: أن المعنى: مكثهم في الدنيا بلاغ إلى آجالهم التي كتبها الله لهم، فإذا وافوا الآجال حلَّ بهم العقاب.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿بَلَٰغٌ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون معناه: لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ذلك لبث بلاغ، بمعنى: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم، ثم حذفت ذلك لبث، وهي مرادة في الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها. والآخر: أن يكون معناه: هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية، إن فكَّروا واعتبروا فتذكروا.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾.

التحقيق -إن شاء الله- أن أصوب القولين في قوله: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره، هذا بلاغ، أي هذا القرآن بلاغ من الله إلى خلقه.

ويدل لهذا قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله في الأنبياء: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والبلاغ اسم مصدر بمعنى التبليغ، وقد علم باستقراء اللغة العربية أن الفعال يأتي كثيرًا بمعنى التفعيل، كبلغه بلاغاً: أي تبليغاً، وكلمه كلاماً، أي تكليماً، وطلقها طلاقاً، وسرحها سراحاً، وبينه بياناً.

كل ذلك بمعنى التفعيل؛ لأن فعل مضعفة العين، غير معتلة اللام ولا مهموزته قياس مصدرها التفعيل.

وما جاء منه على خلاف ذلك، يحفظ ولا يقاس عليه، كما هو معلوم في محله.

أما القول بأن المعنى وذلك اللبث بلاغ، فهو خلاف الظاهر كما ترى -والعلم عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- فهل يهلك بعذاب الله الذي أعده للعصاة من الطغاة إلا الخارجون عن طاعة الله المتمردون على أمره، وقيل: المعنى وما يهلك إلا القوم الفاسقون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فهل يهلك الله بعذابه إذا أنزله إلا القوم الذين خالفوا أمره، وخرجوا عن طاعته وكفروا به. ومعنى الكلام: وما يهلك الله إلا القوم الفاسقين.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة قال:

في قوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ تعلموا ما يهلك على الله إلا هالك ولى الإسلام ظهرَه أو منافق صدّق بلسانه وخالف بعمله. ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: «أيما عبد من أمتي هم بحسنة كتبت له واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها. وأيما عبد هم بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، ثم كان يتبعها، ويمحوها الله ولا يهلك إلا هالك».

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.



سورة محمد

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾

[محمد: ١-٣]

س: وضح معنى ما يلي: ﴿كَفَرُوا - أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ - كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ - بَالَهُمْ - الْبَاطِلَ - الْحَقَّ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿كَفَرُوا﴾	جحدوا وحدانية الله، أشركوا بالله وعبدوا معه غيره
﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾	أبطل ثواب أعمالهم - ضيَّع ثواب أعمالهم جعل أعمالهم في ضلالٍ وبُعد عن الحق الصواب
﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾	محا عنهم أعمالهم السيئة فلم يؤاخذ بها
﴿بَالَهُمْ﴾	شأنهم - حالهم
﴿الْبَاطِلَ﴾	الشيطان - الشرك وسبُلُهُ
﴿الْحَقَّ﴾	القرآن - محمد ﷺ

❁ ❁ ❁

تفاوت الكفار في العذاب

س: هل الكافر الذي يصُّد عن سبيل الله عذابه أشد من الكافر الذي ليس كذلك أم أنهما في العذاب سواء ماداما كافرين؟

ج: بلا شك فعذاب الكافر الذي يصد عن سبيل الله أشد من الكافر الذي لا يصد عن سبيل الله، فالنار - أعاذنا الله منها - دركات، من الدليل على ما ذُكر: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

[العنكبوت: ١٢-١٣]

* وقال النبي ﷺ: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه من غير أن ينقص ذلك من آثامهم شيئًا».

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- الذين جحدوا وحدانية الله عزَّ وجلَّ، وعبدوا معه غيره، وبالغوا في الكفر وازدادوا ضلالًا وجندوا أنفسهم للصد عن سبيل الله ومنع الناس من دخول الدين وصرف الناس عن الحق، هؤلاء أبطل الله عز وجل ثواب أعمالهم الصالحة التي عملوها كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، وكما قال: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وكذا فقد جعل سائر أعمالهم في ضلال ولم يرشدهم ولم يوفقهم إلى صالح الأعمال.

قال الطبري رحمه الله تعالى:

يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا غيره وصدوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه محمد ﷺ عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾ يقول: جعل الله أعمالهم ضلالًا على غير هدى وغير رشاد؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان وهي على غير استقامة.

❁ ❁ ❁

س: هل كان الكفار يعملون أعمالًا صالحة مع شركهم؟

ج: نعم منهم من كان يصل الرحم، ويُحسن الجوار، ويعطف ويحنو على الفقراء والمساكين والأيتام، ومنهم من كان يحج ويعتمر (بطريقته الخاطئة) إلى غير ذلك من الأعمال.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- وكما بينا حال الكافرين ومآلهم فهذا مآل أهل الإيمان والعمل الصالح والاتباع لرسول الله ﷺ والقرآن.

فالذين صدقوا بالله عزَّ وجلَّ وبما أخبر به وبما أمر به وأتبعوا التصديق بعمل الجوارح، فعملوا الأعمال الصالحة ممتثلين أمر الله عزَّ وجلَّ، وكذا صدقوا بما نزل على رسول الله ﷺ وصدقوا بأن القرآن حق، وأنه من عند الله، هؤلاء محا الله عنهم سيئاتهم التي عملوها وأصلح لهم شأنهم وأصلح أحوالهم ووفقهم لفعل الخيرات.

* قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول تعالى ذكره: والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ يقول: وصدقوا بالكتاب الذي أنزل الله على محمد ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يقول: محا الله عنهم بفعلهم ذلك سيئ ما عملوا من الأعمال، فلم يؤاخذهم به، ولم يعاقبهم عليه ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ يقول: وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جنانه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ قال ابن عباس: أي أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء في حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله ويصلح بالكم»[1].

❀ ❀ ❀

س: شهد الله عزَّ وجلَّ للقرآن بأنه الحق في عدة آيات من كتابه العزيز، اذكر بعضها.

ج: من هذه الآيات ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

---

(١) البخاري (٦٢٢٤).

* وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾[الأنعام: ٦٦].

* وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[النساء: ١٧٠].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١﴾[الحاقة: ٥١].

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ذلك الذي ذكرناه من عقوبة أهل الكفر من إبطال ثواب أعمالهم، وكذا الذي ذكرناه عن أهل الإيمان من محو سيئاتهم وإصلاح بالهم سببه أن الكفار اتبعوا الشيطان، وأن أهل الإيمان اتبعوا القرآن المنزل من الله عزَّ وجلَّ، واتبعوا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلنا بهذين الفريقين من إضلالنا أعمال الكافرين، وتكفيرنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جزاء منا لكل فريق منهم على فعله. أما الكافرون فأضللنا أعمالهم، وجعلناها على غير استقامة وهدى، بأنهم اتبعوا الشيطان فأطاعوه، وهو الباطل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، أي الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا.

فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق. والباطل: الشرك. والحق: التوحيد والإيمان.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»:

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أي إبطالها واضمحلالها، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم، كله واقع بسبب أن الكفار اتبعوا الباطل، ومن اتبع الباطل فعمله باطل.

والزائل المضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق.

وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق، ومتبع الحق أعماله حق، فهي ثابتة باقية، لا زائلة مضمحلة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- وكما بينا لكم أيها الناس جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين فهكذا دائمًا نبين للناس مصائر أعمالهم، إن عملوا خيرًا بيَّنا لهم جزاءهم وإن عملوا شرًّا بيَّنا لهم جزاءهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾ يقول عزَّ وجلَّ: كما بينت لكم أيها الناس فعلي بفريق الكفر والإيمان، كذلك نمثل للناس الأمثال، ونشبه لهم الأشباه، فنلحق بكل قوم من الأمثال أشكالًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾ أي كهذا البيان الذي بين يبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات.

والضمير في: ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾.

قال فيه الزمخشري: فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟

قلت: في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار.

واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين.

أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين اهـ. منه.



قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

[محمد: ٤-٩]

س: وضح معنى ما يلي:
﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ - أَثْخَنتُمُوهُمْ - فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ - مَنًّۢا - فِدَآءً - حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا - لِّيَبْلُوَا۟ - فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ - سَيَهْدِيهِمْ - وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ - عَرَّفَهَا لَهُمْ - وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ - فَتَعْسًا لَّهُمْ - وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ - فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾	فاضربوا الرقاب - فاقتلوهم
﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾	غلبتموهم - قهرتموهم - جرحتموهم - أكثرتم قتلهم
﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾	أحكموا ربطهم خشية هربهم
﴿مَنًّۢا﴾	تفضلًا منكم عليهم بإطلاق سراحهم بلا فداء
﴿فِدَآءً﴾	قبول الفدية منهم وإطلاقهم
﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾	حتى يضع المحاربون أسلحتهم حتى يسلم المشركون فتتساقط أوزارهم أي: ذنوبهم وقيل: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام
﴿لِّيَبْلُوَا۟﴾	ليختبر
﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾	فلن يُبطل ثواب أعمالهم - لن يُضيع ثوابهم - لن يجعل أعمالهم في ضلال وبُعدٍ عن الحق بل سيوفقهم
﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾	سيوفقهم ويسددهم في طريق الحق
﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾	يصلح شأنهم وحالهم وأمرهم
﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾	جعلهم يعرفون منازلهم فيها إذا دخلوها
﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾	يثبتها عند القتال فلا تفرون من عدوكم - يثبتها عند الصراط فلا تزل - يثبتكم على الحق
﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾	خزيًا لهم - بُعدًا لهم عن الحق - حُزنًا لهم - شقاءً لهم - هلاكًا لهم

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾	جعلها في ضلالٍ، في بُعدٍ عن الحق والصواب
﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾	أبطل ثوابها (ثواب ما عملوه من الأعمال الصالحة)

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- فإذا لقيتم يا أهل الإيمان في الحروب أهل الكفر فاقتلوهم وبالغوا في قتلهم واشتدوا في ذلك واجتهدوا حتى إذا قهرتموهم وغلبتموهم وأوجعتموهم وحملتموهم على الاستسلام فاستسلموا فأحكموا قيدهم حتى لا يهرب منهم هاربٌ ولا يفرّ منهم فار، ذلك حتى ينتهي القتال ويضع المجاهدون أسلحتهم وأثقالهم فإذا انتهت الحرب ووضعتم أثقالكم وقتل من قتل منهم وأسلم من أسلم واستسلم من استسلم، فإما أن تتفضلوا على الأسرى وتطلقوا سراحهم بلا فدية، وإما أن تقبلوا منهم الفدية مقابل إطلاق سراحهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لفريق الإيمان به وبرسوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ يقول: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ يقول: فشدوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم، فيهربوا منكم.

وقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ يقول: فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضًا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف، ﴿حَتَّىٰٓ

﴿إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أهلكتموهم قتلًا ﴿فَشُدُّواْ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشاطرونهم عليه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون، ثم بعد ذلك يأسرونهم جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧]، الآية، وقد أمر تعالى بقتلهم في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] الآية.

وقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٥٧] الآية، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فإما تمنون عليهم منًّا، أو تفادونهم فداء.

❁ ❁ ❁

س: لماذا عُبر بلفظ ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ عن القتل؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك للحث على الغلظة والشدة على أهل الكفر أثناء المعارك ففي لفظ ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ما يفيد ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مصدر قال الزجاج: أي فاضربوا الرقاب ضربًا وخص الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها وقيل: نصب على الإغراء قال أبو عبيدة: هو كقولك: يا نفس صبرًا وقيل: التقدير اقصدوا ضرب الرقاب وقال: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ولم يقل: فاقتلوهم؛ لأن في العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه.

❁ ❁ ❁

س: هل قال أحدٌ من أهل العلم: إن هذا القدر من الآية: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ منسوخ، وما ناسخه عند هؤلاء القائلين بذلك، وما مدى صحة هذا القول؟

ج: نعم، قد قال بذلك عددٌ من أهل العلم، قالوا: إن ما تضمنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ قد نُسخ، ثم اختلفوا في الناسخ، فقال بعضهم: هو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وقال آخرون: بل الناسخ قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وقد صح هذا عن عدد من أهل العلم كقتادة والسدي وابن جريج وغيرهم كما أخرج ذلك الطبري عنهم بأسانيد صحيحة[1].

فقال ابن جريج والسدي: نسختها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ كان المسلمون إذا لقوا المشركين قاتلوهم، فإذا أسروا منهم أسيرًا، فليس لهم إلا أن يفادوه، أو يمنوا عليه، ثم يرسلوه، فنسخ ذلك بعد قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]: أي عظ بهم من سواهم من الناس لعلهم يذكرون. وكذا قال آخرون بالنسخ.

بينما ذهب عددٌ من العلماء إلى أن الآية الكريمة ليست بمنسوخة بل يعمل بها، ونُقل هذا القول عن ابن عمر وعطاء والحسن وغيرهم، وقد أورد الطبري وغيره أسانيد ذلك. والذي يظهر أن الآية الكريمة ليست بمنسوخة بل يعمل بها عند الاحتياج إلى ذلك لمفاداة أسير مسلمٍ مثلًا بأسيرٍ كافر أو لفائدة يراها الإمام المسلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول عندنا في ذلك أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ ما قد بينا في غير موضع في كتابنا إنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر، وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورًا في هذه الآية؛ لأنه قد أذن بقتلهم

---

(١) انظر الطبري (٣١٣٤١، ٣١٣٤٢) و (٣١٣٤٣، ٣١٣٤٤).

في آية أخرى، وذلك قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[التوبة: ٥] ... الآية، بل ذلك كذلك؛ لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرًا في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضًا، ويفادي ببعض، ويمن على بعض، مثل يوم بدر قتل عقبة بن أبي معيط وقد أتي به أسيرًا، وقتل بني قريظة، وقد نزلوا على حكم سعد، وصاروا في يده سلمًا، وهو على فدائهم، والمن عليهم قادر، وفادى بجماعة أسارى المشركين الذين أسروا ببدر، ومن على ثمامة بن أثال الحنفي، وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتًا من سيره في أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائمًا ذلك فيهم، وإنما ذكر جل ثناؤه في هذه الآية المن والفداء في الأسارى، فخص ذكرهما فيها؛ لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكررًا، فأعلم نبيه ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المن والفداء ما له فيهم مع القتل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذٍ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾.

[الأنفال: ٦٧، ٦٨]

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية -المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه- منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جُرَيْج.

وقال الآخرون -وهم الأكثرون-: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط من أسارى بدر[١]، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ

---

(١) وفي شأن عقبة بعض النظر من ناحية السند بقتله.

حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقْتل تَقْتُل ذا دَمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعطَ منه ما شئت.

وزاد الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضًا. وهذه المسألة مُحرّرة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وأورد القرطبي أقوالًا متعددة في نسخ هذه الآية الكريمة فراجعه إن شئت فهنالك تفصيلات كثيرة.

قال القاسمي في «محاسن التأويل»:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لما كان طليعة هذه السورة تمهيدًا لجهاد المشركين الساعين في الأرض بالفساد، الصادّين عن منهج الرشاد، وبعثًا على الصدق في قتالهم، كسحًا لعقبة باطلهم، عملًا بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان، وتمييزًا لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة، ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب ما في حيّزها من الأمر على ما قبلها. فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام. أي: فإذا كان الأمر كما ذكر، فإذا لقيتموهم في المحاربة، فضرب الرقاب. وأصله: فاضربوا الرقاب ضربًا. فحذف الفعل، وقدم المصدر، وأنيب منابه مضافًا إلى المفعول. وفيه اختصار وتأكيد بليغ. والتعبير به عن القتل، تصوير له بأشنع صورة، وتهويل لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: غلبتموهم، وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ بفتح الواو، وقرئ بكسرها. وهو ما يوثق به، أي: يربط ويشد، كالقيد والحبل. أي: فأمسكوهم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإما تمنون بعد ذلك عليهم، فتطلقونهم بغير عوض، لزوال سبعيّتهم، وإما تفدون فداءً، فتطلقونهم بعوض مال، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون، أو يتخلص أسيرهم.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

ج: أولًا: معنى الأوزار: الأثقال والأحمال وقد تُطلق الأوزار أحيانًا على الأحمال من الذنوب والسيئات كما في الآية الكريمة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وكقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

ثم إن أقوال العلماء في الآية قد تعددت: فقال بعض العلماء: المعنى حتى يضع المجاهدون أسلحتهم وذلك بعد انتهاء الحرب.

وقال آخرون: حتى يُسلم الكفار فتتساقط ذنوبهم وأيضًا حتى يبذل المسلمون قصارى جهدهم في الحرب فتتساقط ذنوبهم.

وقال آخرون: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وحتى يأتي أمر الله.

فالقتال لا يزال بين المسلمين والكفار إلى ذلك الزمان.

والظاهر من هذه الأقوال: ويبدو لي -والله أعلم- أنه أصحها: هو القول الأول، أي: حتى يضع المجاهدون أسلحتهم وذلك بعد انتهاء الحرب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ يقول تعالى ذكره: فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا رقابهم، وافعلوا بأسراهم ما بينت لكم، حتى تضع الحرب آثامها وأثقال أهلها، المشركين بالله بأن يتوبوا إلى الله من شركهم، فيؤمنوا به وبرسوله، ويطيعوه في أمره ونهيه، فذلك وضع الحرب أوزارها، وقيل: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ والمعنى: حتى تلقي الحرب أوزار أهلها. وقيل: معنى ذلك: حتى يضع المحارب أوزاره.

وأورد الطبري من وجهين[١] عن قتادة قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ حتى لا يكون شرك، وهذا صحيح عن قتادة. وأورد[٢] من وجهٍ آخر فيه مقال، عن قتادة ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال: الحرب، من كان يقاتلهم سماهم حربًا. وأورد الطبري[٣] بإسنادين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال:

(١) الطبري (٣١٣٥٤، ٣١٣٥٥).

(٢) الطبري (٣١٣٥٦).

(٣) الطبري (٣١٣٥٣).

حتى يخرج عيسى ابن مريم، فيسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة، وتأمن الشاة من الذئب، ولا تقرض فأرة جرابًا، وتذهب العداوة من الأشياء كلها، ذلك ظهور الإسلام على الدين كله، وينعم الرجل المسلم حتى تقطر رجله دمًا إذا وضعها.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

وأظهر الأقوال في معنى وضع الحرب أوزارها أنه وضع السلاح، والعرب تسمي السلاح وزرًا، وتطلق العرب الأوزار على آلات الحرب وما يساعد فيها كالخيل، ومنه قول الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها رماحًا طوالًا وخيلًا ذكورًا

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

ج: الظاهر -والله تعالى أعلم- أن المعنى: ذلك الذي حدثناكم عليه من قتال أهل الشرك وتكليفكم بذلك ليس لكوننا لا نستطيع الانتقام من أهل الشر، بل نحن قادرون على الانتقام منهم وإحلال عقوبتنا بهم فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وما يعلم جنود ربك إلا هو، ولكن هذا التكليف الذي كلفناكم به لنختبر بعضكم ببعض، نختبركم يا أهل الإيمان بالتكليف بالجهاد فهل تمتثلون الأمر أم لا؟ وهل تخشون أهل الكفر أم لا؟ ونختبر كذلك أهل الكفر ونرى هل يتراجعون عن كفرهم أم أنهم ثابتون عليه وإن قتلوا، ونختبرهم بتسليطكم عليهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وغيِّهم وضلالهم إلى غير ذلك من الحكم والغايات المأخوذة من التكليف بالقتال.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الذي أمرتكم به أيها المؤمنون من قتل المشركين إذا لقيتموهم في حرب، وشدهم وثاقًا بعد قهرهم، وأسرهم، والمن والفداء ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ هو الحق الذي ألزمكم ربكم ولو يشاء ربكم، ويريد لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة

منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذكره كره الانتصار منهم، وعقوبتهم عاجلًا إلا بأيديكم أيها المؤمنون ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال في سورة براءة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾.

ج: من العلماء من ذهب إلى أن معنى الآية الكريمة أن الشهداء لن تضيع أعمالهم الصالحة التي عملوها في دنياهم، ولن يضيع الله ثواب جهادهم لنصرة دينه، سواء نصرهم الله في المعارك أم كانت لعدوهم الغلبة فقتلوا.

فقد يظن ظان أن الشهداء لما قتلوا ولم ينتصروا في المعارك أنه ليس لهم أجرٌ، فأُبطل هذا الظن إذ الله قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾.

وقد قال أبو سفيان يوم أُحدٍ: يومٌ بيوم بدر والحرب سجال، فأمر النبي ﷺ الصحابة أن يجيبوه، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

والوجه الثاني حاصله أن الشهداء لا تنقطع أجورهم بعد قتلهم، بل أجورهم تتواصل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ فلن يجعل الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضلالًا عليهم كما أضل أعمال الكافرين.

س: كيف قيل: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ وقد قتلوا؟

ج: وجَّه بعض أهل العلم ذلك إلى أن المعنى سيهديهم يوم القيامة إذا أدخلهم الجنان إلى منازلهم التي أُعدت لهم فيها كأنهم سكانها يعرفونها من قبل وسكنوها من قبل.

وهذا قوله أيضًا: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ كما في حديث القنطرة: ففيه: «فوالذي نَفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا»[١].

وقال آخرون: سيهدي من بقي منهم ويوفقه حتى يقتل في سبيل الله كما قتل صاحبه، وهذا بعيدٌ شيءٌ ما.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: سيوفق الله تعالى ذكره للعمل بما يرضى ويحب، هؤلاء الذين قاتلوا في سبيله، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ ويصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ يقول: ويدخلهم الله جنته عرفها، يقول: عرفها وبينها لهم، حتى إن الرجل ليأتي منزله منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا، لا يشكل عليه ذلك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- يدخلهم الجنة قد أعلمهم بمساكنهم فيها، فهم يعرفونها ويتجهون إليها كأنهم كانوا يعرفونها من قبل[٢].

هذا، وهناك قولٌ حاصله أن قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ أي: طيبها لهم بأنواع الملاذ، مأخوذ من العَرْف وهو الرائحة الطيبة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ أي: عرفها أولًا بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم،

(١) البخاري (٢٤٤٠) وفيه: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة...» فذكره.

(٢) وانظر السؤال المتقدم.

وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيله، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ مع ذِكر بعض الآيات في معناها.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - يا من آمنتم بالله ووحدتموه وصدقتم بوعده ووعيده، وصدقتم بكتابه ورسوله وأيقنتم بالبعث وأقررتم بالملائكة وبالقضاء والقدر، يا هؤلاء إن تنصروا دين الله وتنصروا رسوله ﷺ بجهادكم معه ودفاعكم عن دينه وتجتهدون لإعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ ينصركم الله عزَّ وجلَّ على عدوكم ويرفع رايتكم ويؤتكم العزة ويثبت أقدامكم عند القتال فلا تفروا؛ يثبتها على الصِراط كذلك ويثبتكم على الحق أيضًا.

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وكما قال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ...﴾ [الأنفال: ١٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، إن تنصروا الله ينصركم بنصركم رسوله محمدًا ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به وجهادكم إياهم معه لتكون كلمته العليا ينصركم عليهم، ويظفركم بهم، فإنه ناصر دينه وأولياءه.

وقوله: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾﴾ يقول: ويقوكم عليهم، ويجرئكم، حتى لا تولوا

عنهم، وإن كثر عددهم، وقل عددكم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

هذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، وأن يقصدوا بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسادهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر من الثبات وغيره.

❀ ❀ ❀

س: ما المراد بنصر المؤمنين لله في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

ج: قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

ومعنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- والذين جحدوا وحدانية الله وأشركوا في عبادته معه غيره فخزيًا لهم وشقاءً لهم وعذابًا لهم، وكذا فإن الله عزَّ وجلَّ جعل أعمالهم في ضلالٍ وعلى غير هدى ومن ثمَّ فإنها غير متقبلة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله، فجحدوا توحيده ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ يقول: فخزيًا لهم وشقاء وبلاء.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨﴾ يقول وجعل أعمالهم معمولة على غير هدى ولا استقامة؛ لأنها عملت في طاعة الشيطان لا في طاعة الرحمن.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ذلك الذي ذُكر من إضلال أعمال الكفار وتلك التعاسة التي كتبت عليهم سببه كراهيتم القرآن المنزل من عند الله، ذلكم الأمر بتوحيد الله عزَّ وجلَّ المتضمن للحق، فمن ثم أحبط الله أعمالهم أي أذهب ثوابها وأضاعها، تلك التي كانوا يتقربون بها من صدقة وعتقٍ وبرٍّ وصلة رحم وعبادة باطلة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلنا بهم من الإتعاس وإضلال الأعمال من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسخطوه، فكذبوا به، وقالوا: هو سحر مبين.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ يقول: فأبطل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم الله بها في الدنيا ولا في الآخرة، بل أوبقهم بها، فأصلاهم سعيرًا، وهذا حكم الله جل جلاله في جميع من كفر به من أجناس الأمم، كما قال قتادة.



قال الله تعالى:

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾

[محمد: ١٠-١٥]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا - مَوْلَى - مَثْوًى لَّهُمْ - وَكَأَيِّن - زُيِّنَ - سُوٓءُ عَمَلِهِۦ - مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ - غَيْرِ ءَاسِنٍ - لَّذَّةٍ - مُّصَفًّى - حَمِيمًا﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾	وأعدَّ الله للكافرين أمثال هذه العقوبات التي حلَّت بمن كانوا قبلهم
﴿مَوْلَى﴾	ناصر - متولي الأمر
﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾	مسكن لهم - مقام لهم
﴿وَكَأَيِّن﴾	كم
﴿زُيِّنَ﴾	حُسِّن
﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾	عمله السيئ
﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾	وصف الجنة - نعت الجنة
﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾	غير منتن - متغيِّر (لم يتغير من مُكثه)
﴿لَّذَّةٍ﴾	يتلذذون بها
﴿مُّصَفًّى﴾	صافي لا كدر فيه، مصفى من الشوائب
﴿حَمِيمًا﴾	بلغ أعلى درجات غليانه

❋ ❋ ❋

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

ج: هذا -والله تعالى أعلم- حثٌّ للكفار على السير في الأرض والنظر بنظرة الاعتبار والادكار للأمم التي أبادها الله وأهلكها وأفناها، فقد دمر الله القرى على من فيها، وهذه العقوبة ومثلها ربي قادر على إنزالها على الكافرين، وفي الآية أيضًا توبيخٌ لأهل الكفر المعرضين عن الإيمان.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أفلم يسر هؤلاء المكذبون محمدًا ﷺ المنكروما أنزلنا عليه من الكتاب في الأرض سفرًا، وإنما هذا توبيخ من الله لهم، لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشام، فيرون نقمة الله التي أحلها بأهل حجر ثمود، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحل الله بسبإ، فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين به: أفلم يسر هؤلاء المشركون سفرًا في البلاد فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم من الأمم المكذبة رسلها الرادة نصائحها، ألم نهلكها فندمر عليها منازلها ونخربها، فيتعظوا بذلك، ويحذروا أن يفعل الله ذلك بهم في تكذيبهم إياه، فينيبوا إلى طاعة الله في تصديقك، ثم توعدهم جل ثناؤه، وأخبرهم إن هم أقاموا على تكذيبهم رسوله، أنه مُحل بهم من العذاب ما أحل بالذين كانوا من قبلهم من الأمم، فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ يقول: وللكافرين من قريش المكذبي رسول الله ﷺ من العذاب العاجل أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿۞أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ يعني: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هبل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟

قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[١].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا من كان قبلهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر فخمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

قال الرازي في التفسير الكبير:

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون المراد لهم أمثالها في الدنيا، وحينئذٍ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام. وثانيهما: أن يكون المراد لهم أمثالها في الآخرة، فيكون المراد من تقدم؛ كأنه يقول: دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ذلك الذي فعلناه بأهل الإيمان والذي تفضلنا به عليهم من نصرهم وهدايتهم وإصلاح بالهم، وإدخالهم الجنة، وكذا الذي فعلناه بأهل الكفر من إحباط أعمالهم وإتعاسهم وتدمير بلادهم عليهم سببه أن الله عزَّ وجلَّ توعد بنصر عباده أهل الإيمان وأخبر أنه سيتولاهم بنصره وتدبيره أمرهم، وأن أهل الكفر ليس لهم مولى يتولاهم ولا ناصر ينصرهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هذا الفعل الذي فعلنا بهذين الفريقين: فريق الإيمان، وفريق

---

(١) البخاري (٤٠٤٣).

الكفر من نصرتنا فريق الإيمان بالله، وتثبيتنا أقدامهم، وتدميرنا على فريق الكفر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقول: من أجل أن الله ولي من آمن به، وأطاع رسوله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى ذلك:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، يدخل الذين آمنوا بالله ورسوله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، يفعل ذلك بهم تكرمة على إيمانهم به وبرسوله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- وأهل الكفر في دنياهم ليس لهم همٌّ إلا دنياهم والاستمتاع فيها بقضاء أوطارهم وأكلهم وشربهم ونكاحهم، وإمضاء شهواتهم ولعبهم ولهوهم، شأنهم شأن الأنعام سواء بسواء تلك التي تأكل وتشرب وتنكح، ثم إن عاقبة أهل الكفر النار التي أُعدت لهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ يقول جل ثناؤه: والذين جحدوا توحيد الله، وكذبوا رسوله ﷺ يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية الدارسة، ويأكلون فيها غير مفكرين في المعاد، ولا معتبرين بما وضع الله لخلقه من الحجج المؤدية لهم إلى علم توحيد الله ومعرفة صدق رسله، فمثلهم في أكلهم ما يأكلون فيها من غير علم منهم بذلك وغير معرفة؛ مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ يقول جل ثناؤه: والنار -نار جهنم- مسكن لهم ومأوى، إليها يصيرون من بعد مماتهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عما في غدهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ أي: مقام ومنزل.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- وكم من قرية من القرى الظالمة كان أهلها أشد قوة من أهل مكة الذين أخرجوك فظلموا وأشركوا فأهلكناهم، ولم يكن لهم من ناصرٍ ينصرهم ولا من معين يعينهم ولا من متولٍ يتولى أمرهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وكم يا محمد من قرية هي أشد قوة من قريتك، يقول أهلها أشد بأسًا، وأكثر جمعًا، وأعد عديدًا من أهل قريتك -وهي مكة- وأخرج الخبر عن القرية، والمراد به أهلها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني: مكة، ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عزَّ وجلَّ، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

❁ ❁ ❁

س: هل النبي ﷺ خرج أم أُخرج؟

ج: الظاهر من الأدلة أنه أُخرج عليه صلوات الله وسلامه ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

* قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

* وقول النبي ﷺ: «والله يا مكة إنك لأحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليَّ ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت»[١].

قال الشنقيطي رحمه الله:

وماتضمنته هذه الآية الكريمة من إخراج كفار مكة للنبي ﷺ منها بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور، وبين جل وعلا أن النبي ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] أي: يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.

وقال تعالى في إخراجهم له: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ الآية [التوبة: ١٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

(١) وهو عند الطبري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أفمن كان يسير في حياته على علم وبصيرة من الله عزَّ وجلَّ، وكذا على يقين بما وعده الله عزَّ وجلَّ به فسار متبعًا كتاب الله عزَّ وجلَّ الذي أنزله على رسوله ﷺ كالأعمى الذي يتخبط في حياته ويسير على غير هدى فيتلاعب به الشيطان ويُزين له أسوأ الأعمال فيراها حسنة ويقترفها ويجترمها تبعًا لهواه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ أي: ليس هذا كهذا، كقوله: ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه، علمًا وعملًا قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله، واتبع هواه بغير هدى من الله -ومع ذلك- يرى أن ما هو عليه هو الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغي!

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الآيات في معنى الآية الكريمة ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

ج: من الآيات في معنى الآية الكريمة ما يلي:

قوله تعالى: ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨].

س: وضح معنى الآية الكريمة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وصف الجنة التي وعد الله عزَّ وجلَّ المتقين إياها أن فيها أنهارًا من ماء غير متغير وغير منتن، مهما طال بقاؤه، وكذا فيها أنهارٌ من خمر يتلذذ الشاربون بها، وأنهار من عسل مصفى من كل الشوائب والأكدار، وكذا لهم فيها من كل الثمرات، وفضلًا عن ذلك فإن الله عزَّ وجلَّ قد غفر ذنوبهم وامتن عليهم بذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ يقول تعالى ذكره: وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه؛ لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنه خلقه الله ابتداء في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يقول: وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين يلتذون بشربها.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ يقول: وفيها أنهار من عسل قد صفي من القذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية، إنما أعلم تعالى ذكره عباده بوصفه ذلك العسل بأنه مصفى أنه خلق في الأنهار ابتداء سائلًا جاريًا سيل الماء واللبن المخلوقين فيها، فهو من أجل ذلك مصفى، قد صفاه الله من الأقذاء التي تكون في عسل أهل الدنيا الذي لا يصفو من الأقذاء إلا بعد التصفية؛ لأنه كان في شمع فصفي منه.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يقول تعالى ذكره: ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهار التي ذكرنا من جميع الثمرات التي تكون على الأشجار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يقول: وعفو من الله لهم عن ذنوبهم التي أذنبوها في الدنيا، ثم تابوا منها، وصفح منه لهم عن العقوبة عليها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نعتها: ﴿فِيهَآ

﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني: غير منتن. والعرب تقول: أَسِن الماء إذا تَغَيَّر ريحه.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية».

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]، وفي حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها».

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسير الكريم الرحمن»:

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بحرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحا، وألذها شربًا.

❁ ❁ ❁

وصف أنهار الجنة

س: اذكر بعض الوارد في وصف أنهار الجنة.

ج: هذه الأنهار لا يعلم عددها إلا الله عزَّ وجلَّ.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وفي آية أخرى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

ومن هذه الأنهار: أنهارٌ من ماء غير آسنٍ، وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه، وأنهارٍ من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عسل مصفى.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥].

وفي الحديث[١] عن رسول الله ﷺ: «إن في الجنة بحر الماء وبحر[٢] العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم يشقق الأنهار بعده».

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه «حادي الأرواح»:

فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا؛ فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته.

وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها، ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها، كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو والإنزاف وعدم اللذة فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا تغتال العقل ويكثر اللغو على شربها؛ بل لا يطيب لشرابها ذلك إلا باللغو وتنزف في نفسها وتنزف المال وتصدع الرأس وهي كريهة المذاق وهي رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم وتذهب الغيرة وتورث الخزي والندامة والفضيحة وتلحق شاربها بأنقص نوع الإنسان وهم المجانيين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته أو إهلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قيامًا له ولم يلزمه مؤنته، وتهتك الأستار وتظهر الأسرار وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أهاجت من حرب وأفقرت من غني، وأذلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وفسخت مودة، ونسجت عداوة، وكم فرقت بين رجل وزوجته

(١) صحيح لشواهده: وأخرجه الترمذي (٢٥٧١).

(٢) والبحر يطلق أحيانًا على النهر، وذلك لاتساعه، فالبحر يطلق على الشيء الواسع، ومنه الحديث في شأن الفرس (وإن وجدناه لبحرًا أي: واسع الخطو سريع).

فذهبت بقلبه وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة وأجرت من عبرة وكم أغلقت في وجه شاربها بابًا من الخير وفتحت له بابًا من الشر، وكم أوقعت في بلية وعجلت من منية وكم أورثت من خزية، وجرت على شاربها من محنة، وجرت عليه من سفلة فهي جماع الإثم ومفتاح الشر وسلابة النعم وجالبة النقم، ولو لم يكن من رذائلها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد كما ثبت عنهﷺ أنه قال: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة» لكفى.

وآفات الخمر أضعاف أضعاف ما ذكرنا وكلها منتفية عن خمر الجنة.

فإن قيل: فقد وصف سبحانه الأنهار بأنها جارية ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن فما فائدة قوله: غير آسن؟

قيل: الماء الجاري وإن كان لا يأسن فإنه إذا أخذ منه شيء وطال مكثه أسن، وماء الجنة لا يعرض له ذلك ولو طال مكثه ما طال.

وتأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس فهذا لشربهم وطهورهم، وهذا لقوتهم وغذائهم وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لشفائهم ومنفعتهم - والله أعلم.

قلت (مصطفى): وهذه الأنهار تتفجر من الفردس.

ففي الصحيح[1] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله عزَّ وجلَّ للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[2].

وفيها نهران ظاهران ونهران باطنان:

ألا وهما سيحان وجيحان والنيل والفرات، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «سَيْحَان وجَيْحَان والفُرَات والنيل كل من أنهار الجنة»[3].

---

(١) صحيح، وقد تقدم.

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «حادي الأرواح»: وأنهار الجنة تتفجر من أعلاها ثم تنحدر نازلةً إلىٰ أقصىٰ درجاتها.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٣٩).

وهذان النهران الظاهران والنهران الباطنان يخرجان من ساق سدرة المنتهي.

ففي الصحيحين[١] من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «بينا أنا نائم عند البيت...» فذكر الحديث وفيه: «... ورُفِعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران: فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات».

وفي الجنة نهر الحياة:

أخرج البخاري ومسلم[٢] من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:... فذكر الحديث وفيه: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار بقيت شفاعتي فيقبض قبضة من النار فيخرج أقوامًا قد امتحشوا فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة وإلى جانب الشجرة فما كان إلى الشمس منها كان أخضر وما كان منها إلى الظل كان أبيض فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه فيقال لهم لكم ما رأيتم ومثله معه».

وفيها كذلك الحوض والكوثر:

أخرج البخاري[٣] من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه - أو طينه - مسك أذفر».

ومما ورد في صف الكوثر:

ما أخرجه مسلم[٤] في صحيحه من حديث أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات

---

(١) البخاري (٣٢٠٧).

(٢) البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٣) البخاري (٦٥٨١).

(٤) مسلم (٤٠٠).

يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسمًا فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي آنفا سورة» فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ١-٣] ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير وحوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول ما تدري ما أحدثت بعدك؟».

وفي الجنة ترعُ كذلك:

فعند أحمد بسندٍ صحيح من حديث أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال: «منبري هذا على تُرعة من تُرع الجنة»(١).

وفي الجنة عيونٌ كذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥] من هذه العيون السلسبيل، ومنها التسنيم ومنها الكافور، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٥، ٦].

وقد قال بعض أهل العلم: إن هذه العيون المذكورة (تسنيم وسلسبيل وعين الكافور) كلها معدة للمقربين، ولكنها تخلط وتمزج لأصحاب اليمين، فالمقربون يشربون منها صرفًا خالصة صافية لم تُشب (أي: لم تخلط) بغيرها.

أما أصحاب اليمين فتمزج لهم هذه العيون بغيرها، ودلَّ على ذلك ما ذكر من الآيات الكريمات، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٧] أي: وخليطه من تسنيم، وإذا سألت عن التسنيم ما هي؟ وجدت جوابًا ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨] أي: يشرب منها المقربون.

---

(١) أحمد بسند حسن (٨٧٠٦).

فهي تمزج لأصحاب اليمين - الذين هم ها هنا الأبرار - مزجًا ويشرب بها المقربون صرفًا.

هذا، ومما ورد في ذِكر العيون أيضًا قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن: ٦٦].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ يقول تعالى ذكره: أمن هو في هذه الجنة التي وصفها ما وصفنا كمن هو خالد في النار. وابتدئ الكلام بصفة الجنة، فقيل: مثل الجنة التي وعد المتقون، ولم يقل: أمن هو في الجنة. ثم قيل بعد انقضاء الخبر عن الجنة وصفتها ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾. وإنما قيل ذلك كذلك استغناء بمعرفة السامع معنى الكلام، ولدلالة قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ على معنى قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قال الفراء: المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار. وقال الزجاج: أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطي هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار فقوله: ﴿كَمَنْ﴾ بدل من قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [فاطر: ٨]، وقال ابن كيسان: مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم- وسقي هؤلاء أهل الكفر المخلدون في النار ماءًا قد بلغ أقصى درجات غليانه فتقطعت من هذا الماء أمعاؤهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ يقول تعالى ذكره: وسقي هؤلاء الذين هم خلود في

النار ماء قد انتهى حره فقطع ذلك الماء من شدة حرِّه أمعاءهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا شديد الغليان إذا أدني منهم شوى وجوهم ووقعت فروة رؤوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم والأمعاء جمع معي والتثنية معيان وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

قال السمعاني في «تفسيره»:

وقوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ الحميم: هو الماء الذي تناهى في الحر، وفي التفسير: أنه ماء سعرت عليه نيران جهنم منذ خلقت، فإذا قربه الكافر إلى وجهه للشرب شوى وجهه، وسقطت جلدة وجهه وفروة رأسه.



قال الله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

[محمد: ١٦-١٨]

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ءَانِفًاۚ - ءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ - يَنظُرُونَ - ٱلسَّاعَةَ - بَغۡتَةًۖ - أَشۡرَاطُهَاۚ - فَأَنَّىٰ لَهُمۡ - ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿ءَانِفًاۚ﴾	الآن - هذه الساعة
﴿ءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾	ألهمم رشدهم - قذف في قلوبهم التقوى والخوف من الله والعمل بما شرعه واجتناب ما عنه نهى
﴿يَنظُرُونَ﴾	ينتظرون - يؤخرون إيمانهم
﴿ٱلسَّاعَةَ﴾	القيامة
﴿بَغۡتَةًۖ﴾	فجأة
﴿أَشۡرَاطُهَاۚ﴾	علاماتها
﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ﴾	من أي وجه
﴿ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾	التذكر والاعتبار الذي ينتفعون به

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ومن أهل النفاق من يحضر مجالسك ويستمع إليك بلا مبالاة ولا تعقُّل ولا تفهّم حتى إذا خرجوا من عندك وفارقوا مجلسك قالوا على سبيل الاستخفاف والاستهزاء والسخرية من حديثك، قالوا لأهل التعقل والإيمان والفهم ماذا قال صاحبكم الآن، أو ماذا كان يقول الآن، فيظهرون بذلك أنهم كانوا غير مبالين ولا مهتشين ولا منصتين، فهؤلاء هم الذين طبع الله على قلوبهم وأغلق عليها فلم يعد يصل إليها خيرٌ تهتدي به، ولا نورٌ تستضيء به فلم يجدوا ملاذًا من اتباع ما تمليه عليهم عقولهم الضعيفة وآرائهم السخيفة، وشهواتهم المنحطة والشبهات التي تجترفهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء الكفار يا محمد ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهو المنافق، فيستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه، تهاونًا منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، وتغافلًا عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ قالوا إعلامًا منهم لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم بكتاب الله، وتلاوتك عليهم ما تلوت، وقيلك لهم ما قلت إنهم لن يصغوا أسماعهم لقولك وتلاوتك ﴿مَاذَا قَالَ﴾ لنا محمد ﴿ءَانِفًا﴾؟

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله على قلوبهم، فهم لا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ يقول: ورفضوا أمر الله، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فهم لا يرجعون مما هم عليه إلى حقيقة ولا برهان، وسوى جل ثناؤه بين صفة هؤلاء المنافقين وبين المشركين، في أن جميعهم إنما يتبعون فيما هم عليه من فراقهم دين الله، الذي ابتعث به محمدًا ﷺ أهواءهم، فقال في هؤلاء المنافقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ وقال في أهل الكفر به من أهل الشرك، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤]

ونقل عن قتادة - بإسناد صحيح - قوله في تفسير قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ هؤلاء المنافقون، دخل رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما سمع ورجل لم يعقل عن الله، فلم ينتفع بما سمع، كان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع غافل، وسامع تارك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكترثون له.

قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ أي: فلا فهم

صحيح، ولا قصد صحيح.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وزين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون: عبد الله ابن أبي ابن سلول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت والحارث بن عمرو ومالك ابن دخشم، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه، قاله الكلبي ومقاتل.

وقيل: كانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي إذا فارقوا مجلسك.

﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ قال عكرمة: هو عبد الله بن العباس.

قال ابن عباس: كنت ممن يسأل، أي كنت من الذين أوتوا العلم.

وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبد الله بن مسعود.

وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء.

وقال ابن زيد: إنهم الصحابة.

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي الآن، على جهة الاستهزاء.

أي أنا لم ألتفت إلى قوله.

و﴿ءَانِفًا﴾ يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات إليك، من قولك: استأنفت الشيء إذا ابتدأت به.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول استماعًا، لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: قريبًا، وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه

أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾.

ج: المعنى -والله تبارك وتعالى أعلم- والذين سلكوا سبيل الهداية وأقبلوا إليك يا رسول الله يتعلمون منك ويفهمون المراد، هؤلاء زادهم الله توفيقًا وسدادًا وهداية ومنَّ عليهم بالتقوى فقذف في قلوبهم الخوف من الله عزَّ وجلَّ واتقاء محارمه وكذا رزقهم مراقبته في السر والعلن ورزقهم امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ أي للإيمان زادهم الله هدى.

وقيل: زادهم النبي ﷺ هدى. وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدى. أي يتضاعف يقينهم. وقال الفراء: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى. وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى. وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل: **أحدها**: زادهم علما، قاله الربيع بن أنس. **الثاني**: أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا، قاله الضحاك. **الثالث**: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقا لنبيهم، قاله الكلبي. **الرابع**: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان. ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ أي ألهمهم إياها. وقيل: فيه خمسة أوجه: **أحدها**: آتاهم الخشية، قاله الربيع. **الثاني**: ثواب تقواهم في الآخرة، قاله السدي. **الثالث**: وفقهم للعمل الذي فرض عليهم، قاله مقاتل. **الرابع**: بين لهم ما يتقون، قاله ابن زياد والسدي أيضًا. **الخامس**: أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ، قاله عطية. الماوردي: ويحتمل. **سادسًا**: أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم. وقرئ: **(وأعطاهم)** بدل ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ﴾. وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأما الذين وفقهم الله لاتباع الحق، وشرح صدورهم

للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يقول: زادهم الله بذلك إيمانًا إلى إيمانهم، وبيانًا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم. وقد ذكر أن الذي تلا عليهم رسول الله ﷺ من القرآن، فقال أهل النفاق منهم لأهل الإيمان: ماذا قال آنفا، وزاد الله أهل الهدى منهم هدى، كان بعض ما أنزل الله من القرآن ينسخ بعض ما قد كان الحكم مضى به قبل.

وقال أيضًا: وقوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وأعطى الله هؤلاء المهتدين تقواهم، وذلك استعماله إياهم تقواهم إياه.

❁ ❁ ❁

س: من سلك طريق الهداية يسر الله له أسبابها. اذكر ما يدل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفي الحديث القدسي: «وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فماذا ينتظر هؤلاء المعرضون عن الهداية المعرضون عن القرآن هل ينتظرون الساعة حتى يهتدوا؟

هل ينتظرون النفخ في الصور وبعث العباد من القبور حتى يهتدوا؟ إن أشراط الساعة وعلاماتها قد أتت ولم يؤمنوا فمن أي وجه يهتدوا ومن أين لهم التذكر

---

(١) البخاري (٧٥٣٦) من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «إذا تقرب العبد إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا وإذا تقرب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»، وأخرجه مسلم (٢٦٧٥) بنحوه من حديث أبي هريرة.

والاتعاظ إذا جاءتهم الساعة؟!

وبتعبير آخر:

إن هؤلاء القوم لم يؤمنوا وقد جاءتهم مقدمات الساعة واقتربت منهم أشراطها الكبرى كذلك وعلاماتها فمتى إذًا يؤمنوا؟ أيؤمنوا إذا جاءتهم الساعة؟ فإذا جاءتهم الساعة فلن ينفعهم التذكر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يقول تعالى ذكره: فهل ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله من أهل الكفر والنفاق إلا الساعة التي وعد الله خلقه بعثهم فيها من قبورهم أحياء، أن تجيئهم فجأة لا يشعرون بمجيئها. والمعنى: هل ينظرون إلا الساعة، هل ينظرون إلا أن تأتيهم بغتة. و«أنْ» من قوله: «إلّا أنْ» في موضع نصب بالرد على الساعة، وعلى فتح الألف من ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ ونصب ﴿تَأْتِيَهُم﴾ بها قراءة أهل الكوفة.

ثم قال: وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يقول: فقد جاء هؤلاء الكافرين بالله الساعة وأدلتها ومقدماتها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر -صلوات الله وسلامه عليه- بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في «التفسير الكبير»:

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحتمل وجهين أحدهما: لبيان غاية عنادهم وتحقيقه

هو أن الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن أشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنوا ولم يؤمنوا فهم في لجة الفساد وغاية العناد ثانيهما: يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ فهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلاً قال متى تكون الساعة؟ فقد جاء أشراطها كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، والأشراط العلامات، قال المفسرون: هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فقد جاءت أشراط الساعة، والمراد علاماتها ومقدماتها الصغرى.

قولٌ مجملٌ في بيان أشراط الساعة.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض أشراط الساعة الكبرى، وبعض أشراطها الصغرى؟

ج: أما أشراط الساعة الصغرى فكثيرة جدًّا، وقد جمعت أكثرها في كتابي الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة، وكذلك ضمنته أشراط الساعة الكبرى.

❁ ومن الأشراط الصغرى: أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، ومنها أن تلد الأمةُ ربتها، ومنها كثرة التبرج وكثرة الزنا وكثرة شرب الخمر وكثرة القتل وكثرة النساء، وكثرة الروم وكثرة الأسواق، وكثرة الزلازل وانحسار الفرات عن كنز من ذهب، وخراب الكعبة على يد ذي السويقتين الحبشي، ويخسف بجيش أراد غزو الكعبة، وغُربة الإسلام إلى غير ذلك من الأشراط الصغرى وكذا خروج المهدي.

❁ ومن الأشراط الكبرى: خروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام من السماء حكمًا عدلًا مقسطًا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، والخسوف الثلاث، وخروج يأجوج ومأجوج، ودابة

الأرض التي تكلم الناس، وطلوع الشمس من مغربها، والريح التي تقبض أرواح المؤمنين، إلى غير ذلك مما ذكرناه هنالك، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فمن أي وجه يأتيهم التذكر والاتعاظ، والاعتبار إذا جاءتهم الساعة والذي يظهر، والله أعلم، أن الآية فيها من التقديم والتأخير، والمعنى، فأنى لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فمن أي وجه لهؤلاء المكذبين بآيات الله ذكرى ما قد ضيعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة، يقول: ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم، لأنه وقت مجازاة لا وقت استعتاب ولا استعمال.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن قتادة قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ يقول: إذا جاءتهم الساعة أنى لهم أن يتذكروا ويعرفوا ويعقلوا؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

التحقيق إن شاء الله تعالى، في معنى هذه الآية الكريمة، أن الكفار يوم القيامة، إذا جاءتهم الساعة، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته فقوله: ﴿ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ مبتدأ خبره ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ أي كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان.

والضمير المرفوع في ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ عائد إلى الساعة التي هي القيامة.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن الكفار يوم القيامة

يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانهم جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ إلى قوله - ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فظهر أن قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ على حذف مضاف، أي أنى لهم نفع ذكراهم.

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان.

قال الرازي في «التفسير الكبير»:

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ يعني لا تنفعهم الذكرى إذ لا تقبل التوبة ولا يحسب الإيمان، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم، ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: ٢١]، فيذكرون به للتحسر، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾ [الزمر: ٧١].



﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿إِلَٰهَ - ٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ - مُتَقَلَّبَكُمۡ - مَثۡوَىٰكُمۡ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿إِلَٰهَ﴾	معبود
﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾	سل الله أن يغفر لك ذنبك
﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾	مُتصرفكم الذي تتصرفونه - عملكم الذي تعملون وتحرككم الذي تتحركون
﴿ مَثۡوَىٰكُمۡ ﴾	المكان الذي تؤوون إليه بعد انقضاء العمل للنوم فيه

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فاعلم يا رسول الله، واعلم يا عبد الله واعلموا جميعًا أيها الخلق أنه لا معبود يستحق أن يُعبد إلا الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه.

وقال الرازي في «التفسير الكبير»:

قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ ولبيان المناسبة وجوه الأول: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ قال: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ يأتي بالساعة، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[النجم: ٥٧، ٥٨]، وثانيها: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ وهي

آتية فكأن قائلاً قال: متى هذا؟ فقال: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعداً للقائها ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، الثالث: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ينفعك.

❀ ❀ ❀

س: كيف قيل: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ والنبي ﷺ يعلم ذلك؟

ج: قيل: إن المراد أيقن بذلك ولا تشك فيه ولا تتردد.

وذلك كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

أي: أيقنوا بذلك وازدادوا إيمانًا بذلك واثبتوا على إيمانكم.

* وقال بعض أهل العلم: هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ بذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ قال الماوردي: وفيه - وإن كان الرسول عالمًا بالله - ثلاثة أوجه: يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله.

الثاني: ما علمته استدلالا فاعلمه خبرًا يقينًا.

الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه.

قال الرازي في «التفسير الكبير»:

فإن قيل: النبي عليه الصلاة والسلام كان عالماً بذلك فما معنى الأمر، نقول عنه من وجهين أحدهما: فاثبت على ما أنت عليه من العلم كقول القائل لجالس يريد القيام: اجلس أي لا تقم ثانيهما: الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قومه والضمير في أنه للشأن، وتقدير هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام، فسلى قلبه وقال: أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فإن لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيراً فأنت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر وأنت بحمد الله مكمل تكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم، فقد حصل لك الوصفان، فاثبت على ما أنت عليه، ولا يحزنك كفرهم.

س: كثيرًا ما يُورد العلماء هذه الآية الكريمة كاستدلالٍ على أن العلم قبل القول والعمل، وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن الله عزَّ وجلَّ أمر بالعلم بأنه لا إله إلا الله وأخبر بذلك قبل أن يُكلِّف بالاستغفار فقال: فاعلم أنه لا إله إلا الله ثم عقب بقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات.

ويشهد لهذا المعنى من النصوص ما يلي:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، فتلزم البصيرة قبل الدعوة إلى الله، وفي الحديث: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، فجاء التعلم قبل التعليم.

وكذا في الحديث الآخر: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها».

قال القرطبي في تفسيره:

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ - إلى قوله - ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠ - ٢١] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ثم قال بعد: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١].

ثم أمر بالعمل بعد.

❁ ❁ ❁

استغفار النبي ﷺ وسائر الأنبياء لأنفسهم وأممهم

س: اذكر بعض الوارد في استغفار النبي ﷺ.

ج: من ذلك ما يلي:

قول النبي ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١].

(١) البخاري (مع الفتح ١١/ ١٠١).

وقول عبد الله بن عمر[١] رضي الله عنهما: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم»، وفي رواية: «إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة.

وفي صحيح مسلم[٢] من حديث الأغر المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الوارد في استغفار الأنبياء عليهم السلام لأنفسهم وللمؤمنين من أممهم.

ج: من ذلك ما يلي:

قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨].

وقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقد أخرج مسلم في صحيحه من طريق عاصم عن عبد الله سرجس قال: رأيت النبي ﷺ وأكلت معه خبزًا ولحمًا أو قال ثريدًا. قال: فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم ولك ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ..﴾[٣].

❁ وها هو الخليل إبراهيم عليه السلام يقول:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢].

❁ وها هو موسى عليه السلام يقول:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

ويقول عليه السلام:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

---

(١) أبو داود (١٥١٦)، وعبد بن حميد في المنتخب بتحقيقي (٧٨٤).

(٢) مسلم (١٧/ ٢٣).

(٣) مسلم (حديث ٢٣٤٦).

* ويونس ﷺ ينادي في الظلمات:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

* وسليمان عليه السلام يدعو فيقول: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: ٣٥].

* وأبوه داود عليه السلام يقول الله في شأنه:

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾ [ص: ٢٤].

❀ ❀ ❀

توجيه المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾

س: هل كان رسول الله ﷺ أذنب حتى قيل له: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد ما صدر منك من ذنب قبل نبوتك.

الثاني: على رأي من يجوِّز الصغائر في حق بعض الأنبياء - أنها الصغائر.

الثالث: ما صدر منك من اجتهادات ونزل القرآن بخلافها كقبوله الفدية من أُسارى بدر وكتحريمه بعض ما أحله الله له وكصلاته على عبد الله بن أبي رأس المنافقين ونحو ذلك.

الرابع: أن الخطاب وجه إليه والمراد أمته، لتقتدي به أُمته.

الخامس: أنه قيل له ذلك لضيق الصدر الذي كان يعتريه أحيانًا من تكذيب قومه له. والله أعلم.

وقال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في «التفسير الكبير»:

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لإفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر. وقال بعض الناس: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ أي: لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات أي: الذين ليسوا منك بأهل بيت وثالثهما: المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحاشاه من ذلك وثالثها: وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل

الحسن واجتناب العمل السيئ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران، والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي ﷺ وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي ﷺ له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره، فأما مع الله وحده، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة وحالكم في الليل والنهار.

❀ ❀ ❀

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: والله يعلمُ متصرفكم في النهار وعملكم بالنهار ومكانكم الذي تأوون إليه بالليل بعد انقضاء عملكم.

الثاني: والله يعلم سعيكم الذي سعيتموه في الدنيا ومثواكم الذي تدفنون فيه.

الثالث: والله يعلم ما عملتموه في دنياكم ومصيركم الذي تصيرون إليه في أُخراكم.

الرابع: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم في الأرض.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: والعموم يأتي على هذا كله، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أولى وأخرى. سبحانه! لا إله إلا هو.

❀ ❀ ❀

وقوله تعالى في شأن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١-١٠٢].

فلما تركوا القرآن والتوراة ابتلوا باتباع الباطل الذي افترته الشياطين واختلقته في شأن ملك سليمان وعن ملك سليمان.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧].

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

ج: في ذلك وجهان من وجوه التأويل، بُنيا على تفسير التولي في قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾.

أحدهما: فلعلكم يا من نكلتم عن الجهاد وأعرضتم عنه وعن القرآن وانصرفتم أن تُسلط عليكم بهذا الذنب عقوبة ألا وهي انصرافكم عن الحق إلى الباطل وإفسادكم في الأرض وتقطيعكم الأرحام.

الوجه الثاني: فلعلكم إن أصبحتم ولاة أمرٍ ورغبتم في المناصب وتقلدتموها أن تفسدوا في الأرض ولا توفقوا للإصلاح فيها، وكذا لعلكم إن أصبحتم ولاة أمر أن تنصرفوا عن أرحامكم فلا تصلوها كما هو الشأن الغالب فيمن أُوتوا المناصب في الدنيا تنكرون إلا من رحم الله - لأقربائهم وأرحامهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين وصف أنهم إذا نزلت سورة محكمة، وذكر فيها القتال نظروا إلى رسول الله ﷺ نظر المغشي عليه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أيها القوم، يقول:

= عسيتم كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطّعوا الأرحام، وعصوا الرحمن.

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾

[محمد: ٢٠-٢٣]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿مُّحۡكَمَةٞ - مَّرَضٌ - نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ - فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ - عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ - فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ - تَوَلَّيۡتُمۡ - لَعَنَهُمُ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾	ليست بمنسوخة - واضحة
﴿مَّرَضٌ﴾	الأحكام فيها بيان حكم القتال[1]
﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾	شك - نفاق - ارتياب نظر المغمى عليه خوفًا من الموت
﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾	الويل لهم - الأفضل لهم والأحسن
﴿عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾	جد الجد - فرض القتال
﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾	فلعلكم
﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾	أعرضتم عن القرآن وعما فيه من الأوامر وتركتم الجهاد - أصبحتم ولاة أمر
﴿لَعَنَهُمُ﴾	طردهم وأبعدهم (عن رحمته)

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾.

ج: من ذلك، والله تعالى أعلم، ما يلي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: ٦].

(١) أورد الطبري (٣١٣٩٢) بإسنادٍ حسن عن قتادة قال: كل سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وكذا العمومات الواردة في أن الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيء وهي كثيرة جدًّا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ويتمنى أهل الإيمان الصادقون في إيمانهم أن تنزل على رسول الله ﷺ سورة فيها الترخيص في قتال الكفار، والإذن لهم بقتال الكفار، فقد كان أهل الإيمان في بادئ الأمر ممنوعين من القتال، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧] هكذا كان الأمر في أوله فتمنى أهل الإيمان لو أُذن لهم في القتال، فقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الصادقون في إيمانهم ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: فيها الأمر بالقتال، فإذا أُنزلت سورة محكمة فيها الأمر بالقتال، أمرًا مُحكمًا لم ينسخ، وجاء فيها التكليف بالقتال تبين حينئذٍ الصادق من غيره فهنا يظهر أهل النفاق الذين مُلئت قلوبهم شكًّا وارتيابًا وضعفًا ونفاقًا، يظهرون في صورة من ينظر ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ نظر الذي أُغمي عليه خوفًا من الموت، أو نظر الذي أُغمي عليه بين يدي الموت أو نظر من يُعاين سكرات الموت وذلك من شدة خوفهم من أن يؤمروا بقتال.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي المؤمنون المخلصون. ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقا للوحي وحرصا على الجهاد وثوابه. ومعنى: ﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. وفي قراءة عبد الله: (فإذا أنزلت سورة محدثة) أي محدثة النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: فرض فيها الجهاد. وقرئ: (فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ) على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص ببصره عند الموت، وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا، ولميلهم في السر إلى الكفار.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عزَّ وجلَّ، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتملة على حُكْم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه إذا أنزل سورة محكمة، أي متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الدلالة، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبب عن ذلك، كون الذين فى قلوبهم مرض أي شك ونفاق، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه لأنه في سياق الموت، لأن نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره.

وهذا إنما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم.

وقد صرح جل وعلا بأن ذلك من الخوف المذكور في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقد بيَّن تعالى، أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة، فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد، وذمهم الله على ذلك، وذلك فى

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: ٨٦ - ٨٧].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المعنى فالويل لهم، ومنه ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥]، فعلى هذا القول يكون قوله تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾ متعلق بما قبله، أي: فالويل للمنافقين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾ يقول تعالى ذِكره: فأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض، وقوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾ وعيد توعد الله به هؤلاء المنافقين.

الثاني: أن قوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾ معناه: فالأفضل لهم، ويكون حينئذٍ قوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾ متعلق بما بعده، ويكون المعنى فالأولى والأفضل لأهل النفاق أن يطيعوا ويقولوا قولًا معروفًا.

وهنا وجه آخر حاصله فالأولى والأفضل لمن كان قد تمنى القتال قبل نزوله أن يقتصر على فعل ما يؤمر به ولا يتمنى مزيدًا من التكاليف فإذا جاء التكليف بالقتال امتثل الأمر بذلك وقاتل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال مشجعًا لهم: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١)﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، على اعتبار أن قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ متعلق بما قبله.

فالأفضل لهؤلاء الذين تمنوا القتال، أو الأفضل لهؤلاء الذين جبنوا عند فرض القتال عليهم أن يسمعوا ويطيعوا ويتكلموا بطيب الكلام ولا يطلبون مزيدًا من التكاليف، فإذافرض القتال سمعوا وأطاعوا فلو صدقوا الله وامتثلوا أمره بالقتال فقاتلوا لكان خيرًا لهم مما صنعوه من تمني القتال قبل فرضه فلما فرض نكلوا عنه.

أما على قول من قال إن قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ...﴾ جملة ابتدائية لا تعلق لها بما سبق.

فالمعنى، والله تعالى أعلم، أن المنافقين قالوا قبل فرض القتال لما سئلوا عن شأنهم إذا فرض عليهم القتال، كأنهم قالوا شأننا طاعة وامتثالٌ، فإذا وجب القتال نكلوا عنه، فقيل لهم ما حاصله: إن العمل أبلغ من القول فلو صدقتم الله عزَّ وجلَّ وامتثلتم أمره لكان ذلك أفضل لكم من الأُمنيات الكاذبة التي تتمنوها يا أهل النفاق.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل هؤلاء المنافقين من قبل أن تنزل سورة محكمة، ويذكر فيها القتال، وأنهم إذا قيل لهم: إن الله مفترض عليكم الجهاد، قالوا: سمع وطاعة، فقال الله عزَّ وجلَّ لهم: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وفرض القتال فيها عليهم، فشق ذلك عليهم، وكرهوه ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قبل وجوب الفرض عليكم، فإذا عزم الأمر كرهتموه وشق عليكم.

وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مرفوع بمضمر، وهو قولكم قبل نزول فرض القتال ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ يقول: فإذا وجب القتال وجاء أمر الله بفرض ذلك كرهتموه.

وقال كذلك:

وقوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فلو صدقوا الله ما وعدوه قبل نزول السورة بالقتال بقولهم: إذ قيل لهم: إن الله سيأمركم بالقتال طاعة، فوفوا له بذلك، لكان خيرا لهم في عاجل دنياهم، وآجل معادهم.

❀ ❀ ❀

س: هل ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الذي عناهم الله في الآية مؤمنون صادقوا الإيمان أم أن فيهم منافقًا؟

ج: هنا قولان للعلماء:

أحدهما: أنهم المؤمنون صادقوا الإيمان تمنوا فرض القتال، فلما فرض نكل عنه أهل النفاق.

الثاني: أن أهل الإيمان هنا من أظهروا الإيمان فدخل فيهم صادق الإيمان والقول، وغير الصادق في ذلك وهم أهل النفاق، فلما فرض القتال تبين الصادق من الكاذب، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: هل يستحب تمني لقاء العدو؟

ج: الظاهر أنه لا يستحب، ولكن إذا لقيناهم فلنصبر ونقاتل، قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». والله أعلم.

ولقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

❀ ❀ ❀

س: هل يشرع تمني الشهادة في سبيل الله؟

ج: نعم يشرع، بل ويستحب كذلك.

فقد قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن

مات على فراشه»[١]. أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه مرفوعًا.

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند مسلم أيضًا مرفوعًا: «من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تُصبه»[٢].

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيها وجهان لأهل التأويل، اذكرهما.

ج: الوجه الأول: أعرضتم عن القرآن ونكلتم عن الجهاد الذي أمركم الله به.

الوجه الثاني: أصبحتم ولاة أمر.

❁ ❁ ❁

بعض الوارد في التحذير من قطع الرحم

س: اذكر بعض الوارد في التحذير من قطع الرحم.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

وقول النبي ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن تعجل عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه يوم القيامة من البغي وقطيعة الرحم»[٣].

وأخرج مسلم[٤] في صحيحه من حديث حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال

---

(١) مسلم (حديث ١٩٠٩) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) مسلم (حديث ١٩٠٨).

(٣) صحيح.

(٤) مسلم (حديث ١٩٥).

رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف[(١)] لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة. فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله - قال: - فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء وراء[(٢)] اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليما. فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه. فيقول عيسى ﷺ: لست بصاحب ذلك. فيأتون محمدًا ﷺ فيقوم فيؤذن له وترسل الأمانة والرحم[(٣)] فتقومان جنبتي الصراط[(٤)] يمينًا وشمالًا فيمر أولكم كالبرق». قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق؟ قال: « ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرجال[(٥)] تجري بهم أعمالهم[(٦)] ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا - قال: - وفي حافتي الصراط[(٧)] كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس[(٨)] في النار ».

والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفًا.

وعند مسلم[(٩)] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله».

---

(١) تزلف: أي تقرب. كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي: قربت.

(٢) من وراءَ وراءَ: قال الإمام النووي: قد أفادني هذا الحرف الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أمية أدام الله نعمه عليه، وقال: الفتح صحيح. وتكون الكلمة مؤكدة كَشَذَرَ مَذَرَ. وشَغَرَ بَغَرَ، نسقطوا بَيْنَ بَيْنَ، فركبهما وبناهما علىٰ الفتح.

(٣) وترسل الأمانة والرحم: إرسال الأمانة والرحم لعظم أمرهما وكثير موقعهما. فتصوران مشخصتين علىٰ الصفة التي يريدها الله تعالىٰ.

(٤) جنبتي الصراط: معناهما جانباه، ناحيتاه اليمنىٰ واليسرىٰ.

(٥) وشد الرجال: الشد هو العدو البالغ والجري.

(٦) تجري بهم أعمالهم: هو تفسير لقوله ﷺ: «فيمر أولكم كالبرق ثم كمر الريح...» إلىٰ آخره.

(٧) حافتي الصراط: هما جانباه.

(٨) ومكدوس: قال في النهاية: أي مدفوع، وتكدُّس الإنسان إذا دُفِعَ من ورائه فسقط.

(٩) مسلم (٢٥٥٥) وبنحوه عند البخاري (٥٩٨٩).

وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم[١] رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع».

وعند مسلم[٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله! إن لي قرابة. أصلهم ويقطعوني. وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ. وأحلُمُ عنهم ويجهلون عليَّ. فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملَّ. ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم، ما دمت على ذلك».

❁ ❁ ❁

س: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة عقب حديث. اذكره.

ج: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة. قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك».

ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾» [محمد: ٢٢-٢٤][٣].

❁ ❁ ❁

من ترك الحق ابتلي بالباطل

س: من ترك الحق ابتلي بالباطل. دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣][٤].

---

(١) البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) مسلم (٢٥٥٨).

(٣) البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤)، واللفظ له.

(٤) أخرج الطبري (٣١٤٠١) بإسنادٍ حسن، عن قتادة، قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾... الآية. يقول: فهل =

فلعلكم إن توليتم عن تنزيل الله جل ثناؤه، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد ﷺ وعما جاءكم به ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: أن تعصوا الله في الأرض، فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرق بعد ما قد جمعكم الله بالإسلام، وألف به بين قلوبكم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝٢٣﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال.

قال السمعاني في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: إن توليتم ولاية أي: كانت لكم ولاية. والثاني: إن توليتم عن الإيمان بالرسول وبالقرآن أي: أعرضتم، فهل يكون منكم سوى أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم؟ وقيل على القول الأول: أنه قد كان هذا في صدر الإسلام، فإن قريشًا لما تولوا الأمر أفسدوا في الأرض وقطعوا الأرحام، وذلك من قتل بني هاشم قريشًا، وقتل قريش بني هاشم.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم الله.

وقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ أي: جعلهم بمنزلة الصم. وقوله: ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝٢٣﴾ أي: بمنزلة العمي.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ التدبر: هو التفكر والنظر فيما يؤول إليه عاقبة الأمر.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أولئك المعرضون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ وعن كتابه المنزل على رسوله ﷺ وعما فيه من الأوامر كالأمر بالجهاد، ونحوه، أولئك الذين أفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامهم هم الذين طردهم الله عن رحمته، وأبعدهم الله عن جنته، فأصبحوا صُمًّا لا يسمعون خيرًا ينتفعون به، وعميًا لا يرون الحق ولا يعرفونه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يفعلون هذا، يعني الذين يفسدون ويقطعون الأرحام الذين لعنهم الله، فأبعدهم من رحمته فأصمهم، يقول: فسلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله في تنزيله ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: وسلبهم عقولهم، فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وأدلته.

❁ ❁ ❁

س: في الآية الكريمة تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى، وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن أهل النفاق عوقبوا بتسليط الشيطان عليهم وبغرِّه لهم وخداعهم بسبب وهو قولهم لأهل الكفر سنطيعكم في بعض الأمر، فكيف إذا أطاعوهم في كل الأمر كيف تكون العقوبة حينئذٍ؟!!!

ففي الآية الكريمة تحذيرٌ من اتباع أهل الكفر في قليلٍ أو كثيرٍ.



قال الله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

[محمد: ٢٤-٢٨]

س: وضح معنى ما يلي:
﴿يَتَدَبَّرُونَ - عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ - ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم - سَوَّلَ لَهُمْ - وَأَمْلَىٰ لَهُمْ - إِسْرَارَهُمْ - تَوَفَّتْهُمُ - وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾	يتفهمون - يتعقلون - يتأملون
﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾	أغلق على القلوب وأحكم الغلق بالأقفال (فلا يصل إليها خيرٌ)
﴿ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾	كفروا بعد إسلامهم: رجعوا إلى الكفر بعد إيمانهم
﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾	حسَّن لهم - زيَّن لهم
﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾	خدعهم وغرَّهم - أخَّر الله آجالهم ومدَّ الله في أعمارهم
﴿إِسْرَارَهُمْ﴾	ما يتساررون به فيما بينهم ما يقولونه من الكلام سرًّا فيما بينهم
﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾	قبضت أرواحهم
﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾	أعجازهم

❁ ❁ ❁

الحث على تدبر القرآن

س: اذكر بعض الآيات الواردة في الحث على تدبر آيات القرآن.

ج: من الوارد في ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- أفلا يتفهمون آيات القرآن ويقفون على ما فيها من العبر أم أن القلوب قد أُغلق عليها بأقفال فلا يصل إليها خير.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ يقول: أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيًا عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

تنبيه مهم

يجب على كل مسلم يخاف العرض على ربه يوم القيامة أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطامة الكبرى، التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة.

وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله، استغناء تامًا، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدونة.

وبناء هذا على مقدمتين:

إحداهما: أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين.

والثانية: أن المجتهدين معدومون عدماً كليًّا، لا وجود لأحد منهم، في الدنيا، وأنه بناء على هاتين المقدمتين، يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله منعاً باتًّا على جميع أهل الأرض، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة.

وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان.

فتأمل يا أخي رحمك الله: كيف يسوغ لمسلم، أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما استغناء عنهما بكلام رجال، غير معصومين ولا خلاف في أنهم يخطئون.

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة لا حاجة إلى تعلمهما، وأنهما يغني غيرهما، فهذا بهتان عظيم، ومنكر من القول وزور.

وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه، فهو أيضاً زعم باطل؛ لأن تعلم الكتاب والسنة أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة مع كونها في غاية التعقيد والكثرة والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧ - ٢٢ - ٤٠]. ويقول تعالى في الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]. ويقول في مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

فهو كتاب ميسر بتيسير الله لمن وفقه الله للعمل به، والله جل وعلا يقول: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢].

فلا شك أن الذي يتباعد عن هداه يحاول التباعد عن هدى الله ورحمته.

ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار، والرشد من الغي.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

عِبَادِنَاۚ﴾[الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾[التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾[الأعراف: ١٥٧].

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور.

فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم:

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم

مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نوراً ويعمي أعين الخفاش

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾[البقرة: ٢٢]. ﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾[الرعد: ١٩].

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف أنه يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علماً صحيحاً.

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان، أيسر منه بكثير في القرون الأولى، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين وأحوال الرجال من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف؛ لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين.

وجميع الأحاديث الواردة عنه ﷺ حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف. فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جدًا على كل من رزقه الله فهمًا وعلمًا.

والناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك تسهل معرفته اليوم على كل ناظر في الكتاب والسنة ممن رزقه الله فهماً ووفقه لتعلم كتاب الله وسنة رسوله.

❁ ❁ ❁

س: من هؤلاء الذين عناهم الله بقوله: ﴿ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم أهل النفاق كفرت قلوبهم بعد إيمانهم.

الثاني: أنهم اليهود والنصاري عرفوا صفة النبي محمد ﷺ ثم كفروا.

الثالث: أنهم المرتدون بصفة عامة، وهم الذين كفروا بعد إسلامهم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الظاهر أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، قوم كفروا بعد إيمانهم.

وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ﷺ ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم.

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾ [البقرة: ٨٩]؛ لأن قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ مبين معنى قوله: ﴿بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾، وقوله: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ مبين معنى قوله: ﴿ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾.

وقال بعض العلماء: نزلت الآية المذكورة في المنافقين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- من بعد ما ظهر لهم الحق.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥﴾.

ج: من العلماء من قال: إن المعنى الشيطان زيَّن لهم ما هم عليه من الكفر، وأملى الله عزَّ وجلَّ لهم، أي: أخرهم ومدَّ لهم في الأعمار وأخَّر عقوبتهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥﴾ يقول: ومد الله لهم في آجالهم ملاوة من الدهر، ومعنى الكلام: الشيطان سول لهم، والله أملى لهم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

وقد بيَّن جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيراً إلى علة ذلك ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ أي زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، وأملى لهم أي مد لهم في الأمل ووعدهم طول العمر.

قال الزمخشري: سول: سهل لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً.

وأملى لهم ومد لهم في الآمال والأماني. انتهى.

وإيضاح هذا أن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أن الشيطان سول لهم ذلك أي سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم بطول الأعمار.

لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي.

وفي هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبني للفاعل، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان.

وأصل الإملاء الإمهال والمد في الأجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ

كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] الآية.

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] إلى قولك: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى.

والمعنى: الشيطان ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله جل وعلا أملى لهم: أي أمهلهم إمهال استدراج.

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله تعالى في تزيين الشيطان لهم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] الآية. وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٢] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وحده من السبعة (وأملي لهم) بضم الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضي المبني للمفعول والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران آنفاً في فاعل وأملي لهم على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل.

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى في إملاء الشيطان لهم ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، وقوله في إملاء الله لهم: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٣] كما تقدم قريباً، والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ راجعة إلى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- إن هؤلاء الذين كفروا بعد إسلامهم، ورجعوا إلى الكفر بعد ظهور الحق لهم وبعد أن تبينت معالمه لهم كاليهود والنصارى وأهل النفاق وكذا عموم من ارتد بعد إسلامه، هؤلاء إنما حملهم على الردة تزيين الشيطان لهم ما هم عليه من الكفر وتحسين الباطل لهم وخداعه لهم وتغريره بهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ يقول الله عزَّ وجلَّ إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارًا بالله من بعد ما تبين لهم الحق وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة ثم آثروا الضلال على الهدى عنادًا لأمر الله تعالى ذكره من بعد العلم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى

الكفر، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ أي: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾﴾ أي: غرهم وخدعهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ذلك الذي حدث لأهل النفاق - الذين تقدم ذِكرهم - من تزيين الشيطان لهم، والإملاء لهم وتأخيرهم سببه موافقتهم لأهل الشرك والكفر - الكارهين ما أنزله الله من القرآن - في بعض ما يريده منهم أهل الكفر، والله يعلم ما يتسارر به هؤلاء المنافقون مع الكفار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أملى الله لهؤلاء المنافقين وتركهم، والشيطان سول لهم فلم يوفقهم للهدى من أجل أنهم ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من الأمر بقتال أهل الشرك به من المنافقين: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ الذي هو خلاف لأمر الله تبارك وتعالى وأمر رسوله ﷺ.

ونقل بإسنادٍ حسن عن قتادة قال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ فهؤلاء المنافقون ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره: والله يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النفاق على خلاف أمر الله وأمر رسوله، إذ يتسارون فيما بينهم بالكفر بالله ومعصية الرسول، ولا يخفى عليه ذلك ولا غيره من الأمور كلها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أي: مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ [النساء: ٨١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا في الكفر بأنهم قالوا -يعني المنافقين واليهود- ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السر. وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيه. وقراءة العامة: (أسرارهم) بفتح الهمزة، جمع سر، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الهمزة على المصدر، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٩] جمع لاختلاف ضروب السر.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»:

وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٧، ٢٨].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- فكيف يكون حال هؤلاء المنافقين عند وفاتهم واحتضارهم وقد جاءتهم الملائكة - ملائكة العذاب - تضربهم ضربًا شديدًا على الوجوه والأعجاز، وهذا الذي ذُكر من تعذيب الملائكة لهم عند الاحتضار وضربهم لهم سببه خلافهم أمر الله عزَّ وجلَّ، بل واتباعهم ما يُسخط الله عليهم، وما يجلب عليهم سخطه، وكذا كراهيتهم رضوان الله عليهم، فمن ثم أبطل الله ثواب

أعمالهم الصالحة التي عملوها كصلة الأرحام وإكرام الضيف ونحو ذلك من صنائع المعروف التي عملوها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله يعلم إسرار هؤلاء المنافقين، فكيف لا يعلم حالهم إذا توفتهم الملائكة، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، يقول: فحالهم أيضًا لا يخفى عليه في ذلك الوقت ويعني بالأدبار: الأعجاز، وقد ذكرنا الرواية في ذلك فيما مضى قبل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ يقول تعالى ذكره: تفعل الملائكة هذا الذي وصفت بهؤلاء المنافقين من أجل أنهم اتبعوا ما أسخط الله، فأغضبه عليهم من طاعة الشيطان ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ يقول: وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكفار به، بعد ما افترضه عليهم.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ يقول: فأبطل الله ثواب أعمالهم وأذهبه؛ لأنها عملت في غير رضاه ولا محبته، فبطلت، ولم تنفع عاملها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي أعني قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾، أي ذلك الضرب وقت الموت واقع بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله أي: أغضبه من الكفر به، وطاعة الكفار

الكارهين لما نزله.

والإسخاط استجلاب السخط، وهو الغضب هنا.

وقوله: ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُۥ﴾؛ لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله.

لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه؛ لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه، فهو ككارهه.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ أي أبطلها؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة. وقد أوضحنا المقام في ذلك إيضاحًا تامًّا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩].

وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الآية [النحل:٩٧].

وقال الشنقيطي أيضًا في «أضواء البيان»:

اعلم أن كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان، تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيرا ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد.

لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ، وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي ﷺ من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كل الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم.

وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم.

فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ
نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ
﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن
يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ
تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ
عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا
يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

[محمد: ٢٩-٣٨]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَمْ حَسِبَ - مَّرَضٌ - أَضْغَٰنَهُمْ - لَأَرَيْنَٰكَهُمْ - بِسِيمَٰهُمْ - لَحْنِ ٱلْقَوْلِ - وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ - نَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ - صَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ - شَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ - تَهِنُوا۟ - ٱلسَّلْمِ - ٱلْأَعْلَوْنَ - يَتِرَكُمْ - فَيُحْفِكُمْ - أَضْغَٰنَكُمْ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَمْ حَسِبَ﴾	أفحسب - أفظن
﴿مَّرَضٌ﴾	شك - نفاق
﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾	أحقاد قلوبهم - الحسد والغلّ الذي في قلوبهم
﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾	لأطلعناك عليهم
﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾	بعلاماتٍ تعرفهم بها
﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾	معنى القول - المفهوم من القول
﴿ لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾	ولنختبرنكم
﴿ نَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾	نختبر أموالكم فنعلم الصادق من الكاذب
﴿ صَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	منعوا الناس من سلوك طريق الله
﴿ شَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾	خالفوا الرسول - كانوا في شقٍّ والرسول في شق
﴿تَهِنُوا۟﴾	تضعفوا - تجبنوا
﴿ٱلسَّلْمِ﴾	الصلح - المصالحة - المهادنة
﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾	الغالبون القاهرون -الأعلون عند الله-أنتم أولى بالله
﴿يَتِرَكُمْ﴾	يبخسكم -يظلمكم-يُنقصكم - ينقصكم أجور
﴿فَيُحْفِكُمْ﴾	فيحرجكم - فيُلح عليكم بالطلب - فليحلف في المسألة - فيجهدكم بكثرة السؤال

﴿أَضْغَٰنَكُمْ﴾	الضغائن (الأحقاد والغل والحسد والكراهية) التي في الصدور

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

ج: أفظن أهل النفاق الذي امتلأت قلوبهم شكًّا وريبة وكفرًا وحقدًا على الإسلام وأهله وحسدًا لرسوله الكريم محمد، أفحسب هؤلاء أن يستمروا على هذا الكتمان لتلك الأحقاد ولا يعلم بهم أحدٌ، كلا فالله سبحانه سيخرج هذا الكامن في النفوس من الغل والحقد والريبة والكفر والنفاق، سيخرج هذا على ألسنتهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أحسب هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شك في دينهم، وضعف في يقينهم، فهم حيارى في معرفة الحق أن لن يخرج الله ما في قلوبهم من الأضغان على المؤمنين، فيبديه لهم ويظهره، حتى يعرفوا نفاقهم، وحيرتهم في دينهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

قال السمعاني في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ الأضغان: جمع ضغن، وهو بمعنى: الحقد والغل والغش، ومعنى الآية: أي: أحسب

المنافقون والكفار أن لن يظهر ما في قلوبهم لرسوله ﷺ وللمؤمنين.

قال الشاعر في الضغن:

قـل (لأبـي) هنـد مـا أردت بمنطـق ... سـاء الـصديق (وسـود) الأضـغان

أي: الأحقاد.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- ولو نشاء لأطلعناك على أهل النفاق وجعلنا لهم علامات تعرفهم بها بمجرد رؤيتك لهم، ولتعرفنهم في فحوى الكلام ومضمونه، وعلى كل حال فالله سبحانه يعلم أعمالكم يا أهل النفاق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: ولو نشاء يا محمد لعرفناك هؤلاء المنافقين حتى تعرفهم من قول القائل: سأريك ما أصنع، بمعنى سأعلمك.

وقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾ يقول: فلتعرفنهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم ثم إن الله تعالى ذكره عرفه إياهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانًا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

قال السمعاني في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرفناهم إياك.

وقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: جعلنا لهم في وجوههم سمةً تعرفهم بها.

وقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: في فحوى القول ومقصده ومغزاه. وعن بعضهم: قول الإنسان وفعله دليل على نيته. ويقال: لحن في القول إذا ترك الصواب، واللحن هاهنا: هو قول يفهم المخاطب معناه مع إخفاء القائل المراد فيه، قال الشاعر:

منطقٌ صائبٌ ويلحن أحيا ... نًا وخير القول ما كان لحنا

وفي الخبر المعروف أن النبي ﷺ قال: «إنكم لتختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم ألحن بحجته من بعض»[1] أي: أفطن.

وعن بعضهم: عجبت لمن يعرف لحن الكلام كيف يكذب.

❁ ❁ ❁

س: هل أطلع الله نبيه محمدًا ﷺ على كل أسماء المنافقين؟

ج: أطلع الله نبيه ﷺ على بعضهم وأخفى عليه بعضهم، وقد أطلع النبي ﷺ حذيفة بن اليمان على بعض من أطلعه الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

أخرج البخاري من طريق إبراهيم قال: ذهب علقمة إلى الشام فأتى المسجد فصلى ركعتين، فقال: اللهم ارزقني جليسًا، فقعد إلى أبي الدرداء، فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: أليس فيكم صاحب السر الذى كان لا يعلمه غيره - يعني حذيفة - أليس فيكم - أو كان فيكم - الذي أجاره الله على لسان رسوله ﷺ من الشيطان - يعني عمارًا - أو ليس فيكم صاحب السواك والوساد - يعني ابن مسعود -[2].

❁ ❁ ❁

(١) البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) البخاري (٦٢٧٨).

س: هل الله عزَّ وجلَّ لم يكن يعلم إذ الله قال: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾؟

ج: كلا، بل الله يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن، وإنما المعنى نعلم علمًا وينبني عليه الثواب والعقاب، وقال بعض العلماء: إن المراد بـ﴿نَعۡلَمَ﴾ نرى.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾. وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي: لنرى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ أي نتعبدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور. وقيل: لنعاملنكم معاملة المختبرين. ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ حتى نميز. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ حتى نرى. وقد مضى في «البقرة». وقراءة العامة بالنون في ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ و﴿نَعۡلَمَ﴾، ﴿وَنَبۡلُوَاْ﴾. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهن. وروى رويس عن يعقوب إسكان الواو من (نبلو) على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردًّا على قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾.

وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلم المجاهدين علم شهادة؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة. ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ نختبرها ونظهرها. قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ الآية.

وقد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [البقرة:١٤٣]

فقلنا في ذلك ما نصه: ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه -سبحانه وتعالى- عن ذلك علوًّا كبيرًا- بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون.

وقد بيَّن أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئًا لم يكن عالمًا به - سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار.

وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه.

ومعنى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالمًا به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى، فهو عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى. اهـ.

❁ ❁ ❁

سنة الابتلاء والاختبار

س: اذكر بعض الآيات الدالة على أن الله عزَّ وجلَّ يختبر عباده المؤمنين.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾. [محمد: ٣١]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقولـه تعـالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة: ١٦].

وقولـه تعـالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ولنختبرنكم بالتكاليف الشرعية والأوامر الدينية، والتي منها الأمر بالقتال حتى نرى المجاهدين منكم والصابرين على ما أُمروا به، ونختبركم حتى يتبين الصادق من الكاذب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون بالقتل، وجهاد أعداء الله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم، وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه، وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلو أخباركم، فنعرف الصادق منكم من الكاذب.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بإبطال العمل الذي نهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: لا تبطلوا أعمالكم بالشرك، فالشرك يبطل كل الأعمال ويذهب بثوابها.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الثاني: لا تبطلوها بفعل الكبائر، فالكبائر تذهب بكثير من الحسنات.

الثالث: لا تبطلوها بالرياء والسمعة.

الرابع: لا تبطلوها بالمعاصي.

الخامس: لا تبطلوها بالتألي على الله.

السادس: لا تبطلوها بنقضها بعد الدخول فيها، وعلى الوجه الأخير: استدل البعض على أن الصلاة إذا أقيمت وكان الشخص في نافلة فإنه يتم نافلته ولا يبطلها.

السابع: لا تبطلوها بعدم طاعتكم لله ورسوله.

الثامن: لا تبطلوها بالردة والكفر.

وثم وجوه أُخر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم إياهما وكفركم بربكم ثواب أعمالكم فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح.

ونقل الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة: قوله: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٣﴾... الآية، من استطاع منكم أن لا يبطل عملًا صالحًا عمله بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ أي: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝٣٤﴾، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآية [النساء: ٤٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سننه ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ أي حسناتكم بالمعاصي قاله الحسن وقال الزهري: بالكبائر. ابن جريج: بالرياء والسمعة، وقال مقاتل والثمالي: بالمن وهو خطاب لمن كان يمن على النبي ﷺ

بإسلامه وكله متقارب وقول الحسن يجمعه وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات والمعاصي تخرج عن الإيمان.

الثانية: احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع صلاة كان أو صومًا بعد التلبس به لا يجوز؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه وقال من أجاز ذلك وهو الإمام الشافعي وغيره: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض فنهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلًا فلا؛ لأنه ليس واجبًا عليه فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن النفل تطوع والتطوع يقتضي تخييرًا.

وعن أبي العالية: كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم.

❁ ❁ ❁

س: من مات على الكفر فلن يغفر له. دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ [محمد: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الذين أنكروا توحيد الله، وصدوا من أراد الإيمان بالله وبرسوله عن ذلك، ففتنوهم عنه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يقول: ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: فلن يعفو الله عما صنع من ذلك، ولكنه يعاقبه عليه، ويفضحه به على رءوس الأشهاد.

❁ ❁ ❁

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- إن الذين جحدوا وحدانية الله عزَّ وجلَّ وأشركوا بالله وصرفوا الناس عن الإسلام وأرهبوهم وخوفوهم لن يضروا بصنيعهم هذا رب العباد شيئًا، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[1].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الذين جحدوا توحيد الله، وصدوا الناس عن دينه الذي ابتعث به رسله ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ يقول: وخالفوا رسوله محمدًا ﷺ، فحاربوه وآذوه من بعد ما علموا أنه نبي مبعوث، ورسول مرسل، وعرفوا الطريق الواضح بمعرفته، وأنه لله رسول.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ لأن الله بالغ أمره، وناصر رسوله، ومظهره على من عاداه وخالفه ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ يقول: وسيذهب أعمالهم التي عملوها في الدنيا فلا ينفعهم بها في الدنيا ولا الآخرة، ويبطلها إلا مما يضرهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

وقوله: ﴿وَصَدُّواْ﴾ على أنه متعدٍّ يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر وصدوه عن الحق، وهذا أرجح مما قبله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي خالفوا محمدًا ﷺ

---

(١) مسلم مع النووي (١٦/ ١٣١) حديث (٢٥٧٧).

مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين:

أحدهما: أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوهﷺ لن يضروا الله بكفرهم شيئًا؛ لأنه غني لذاته الغنى المطلق.

والثاني: أنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم؛ لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله.

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه، وعدم تضرره بمعصيتهم، قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[آل عمران:٩٧].

وقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾[الزمر:٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم:٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[يونس:٦٨].

وقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾[التغابن:٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني وهو إحباط أعمالهم بالكفر أي: إبطالها به قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[إبراهيم:١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[النور:٣٩].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [هود:١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

❀ ❀ ❀

س: لأهل العلم في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وجهان للعلماء. اذكرهما.

ج: الوجه الأول: أن المراد بالأعلون: القاهرون الغالبون.

الوجه الثاني: وأنتم الأعلون عند الله عزَّ وجلَّ.

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جملة حالية فلا تضعفوا عن قتال الكفار.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، أي تبدؤوا بطلب السلم أي الصلح والمهادنة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، أي والحال أنكم أنتم الأعلون أي الأقهرون والأغلبون لأعدائكم، ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب ما لا يرجون.

وهذا التفسير في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ هو الصواب.

وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ لأن من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب.

فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدؤهم بطلب الصلح والمهادنة.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [التوبة:١٤]، ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ الآية [النساء:١٠٤]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة وجزيل الثواب.

وذلك كقوله هنا: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي بالنصر والإعانة والثواب.

❀ ❀ ❀

س: اذكر المعنى الإجمالي لقولـه: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ج: فلا تضعفوا ولا تجبنوا عن لقـاء عـدوكم وتـدعوا إلى المـصالحة في حـال كونكم الأقوى والأشد قهرًا لعدوكم، ففي هـذه الحـال حـال قـوتكم لا تـدعوا إلى المسالمة والمصالحة، والله عزَّ وجلَّ معكم بنـصره ولـن يبخـسكم مـن حقـوقكم شيئًا، ولن ينقصكم من أجوركم ولا من ثواب جهادكم شيئًا.

والوجه الثاني: ولا تضعفوا ولا تجبنوا أمام أعدائكم وتـدعونهم إلى المـصالحة فالله عزَّ وجلَّ معكم بنصره وتأييده ولن ينقصكم شيئًا من أجوركم، وأنتم أولى بـالله عزَّ وجلَّ منهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولـه: ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ يقـول: لا تـضعفوا عـنهم وتـدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ يقـول: والله معكم بالنصر لكم عليهم.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، غير أنهـم اختلفـوا في معنـى قولـه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ فقال بعضهم: معناه: وأنتم أولى بالله منهم. وقال بعضهم: مثل الذي قلنا فيه.

ذكر من قال ذلك، وقال معنى قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أنتم أولى بالله منهم.

وقال:

وقوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ يقول: ولن يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها، من قولهم: وترت الرجل إذا قتلت له قتيلًا فأخذت له مالًا غصبًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: الصلح ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم أعلـم بـالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة. وقيل: المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعـض الأحـوال وقـال قتـادة: لا تكونـوا أول الطـائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

واختلف العلماء في حكمها فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]؛ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح وقيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، وقيل: هي محكمة والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال وقيل: إن قوله: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ مخصوص في قوم بأعيانهم والأخرى عامة فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين وقد مضى هذا المعنى مستوفى ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي بالنصر والمعونة مثل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾ أي لن ينقصكم عن ابن عباس وغيره، ومنه الموتور الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه تقول منه وتره يتره وترًا وترة منه قوله عليه السلام: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» أي ذهب بهما وكذلك وتره حقه أي نقصه وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾ أي لن ينتقصكم في أعمالكم كما تقول: دخلت البيت وأنت تريد في البيت قاله الجوهري. الفراء: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ هو مشتق من الوتر وهو الفرد فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَدَدِكم وعُددِكُمْ؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئًا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾.

ج: يبين الله عزَّ وجلَّ أمر هذه الحياة الدنيا وحالها وحقيقتها، فحقيقتها أنها لهو ولعب تشغل أهلها بلعبهم فيها ولهوهم، إذا لم يتفطنوا لحقيقتها، فيا أيها الناس آمنوا بالله واتقوه واتقوا مساخطه وعذابه فإنكم إن آمنتم واتقيتم آتاكم الله ثواب أعمالكم ولم يسألكم جميع الأموال، بل جزءًا منها مواساة من بعضكم لبعض وكذا لنصرة دينكم، وثواب ذلك عائدٌ عليكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: حاضًّا عباده المؤمنين على جهاد أعدائه، والنفقة في سبيله، وبذل مهجتهم في قتال أهل الكفر به: قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر، ولا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك قتالهم، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو، إلا ما كان منها لله من عمل في سبيله، وطلب رضاه. فأما ما عدا ذلك فإنما هو لعب ولهو، يضمحل فيذهب ويندرس فيمر، أو إثم يبقى على صاحبه عاره وخزيه ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ يقول: وإن تعملوا في هذه الدنيا التي ما كان فيها مما هو لها، فلعب ولهو، فتؤمنوا به وتتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وهو الذي يبقى لكم منها، ولا يبطل بطول اللهو واللعب، ثم يؤتكم ربكم عليه أجوركم، فيعوضكم منه ما هو خير لكم منه يوم فقركم، وحاجتكم إلى أعمالكم ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ يقول: ولا يسألكم ربكم أموالكم، ولكنه يكلفكم توحيده، وخلع ما سواه من الأنداد، وإفراد الألوهية والطاعة له.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

قال السمعاني في تفسيره:

وقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ فيه أقوال:

أحدها: ولا يسألكم جميع أموالكم، إنما يسألكم قدر الزكاة، وهو المعروف.

والقول الثاني: لا يسألكم أموالكم لنفسه، إنما يسألكم لكم.

والقول الثالث: ولا يسألكم أموالكم؛ لأنها ليست لكم في الحقيقة، إنما هي له.

❀ ❀ ❀

س: كيف الجمع بين قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾، وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وكذا ما على شاكلتها من الآيات كقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ أي: ولا يطلب منكم إخراج أموالكم كلها إنما جزء منها وهي الزكوات أو الصدقات.

الثاني: ولا يسألكم أموالكم لنفسه بل مواساة من بعضكم لبعض، وحنو من غنيِّكم على فقيركم. وأيضًا لإثابتكم ومجازاتكم وإكرامكم.

الثالث: لا يسألكم على الإيمان أجرًا كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ أي لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة بل أمر بإخراج البعض قاله ابن عيينة وغيره، وقيل: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ لنفسه أو لحاجة منه إليها إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم وقيل: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ إنما يسألكم أمواله؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها وقيل: ولا يسألكم محمد أموالكم أجرًا على تبليغ الرسالة نظيره ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] الآية.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»:

في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير منها أن المعنى: ولا يسألكم النبي ﷺ ﴿أَمْوَالَكُمْ ۝٣٦﴾ أجرًا على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص:٨٦].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾ [الطور:٤٠].

قال القاسمي في «محاسن التأويل»:

قال بعض المفسرين: أي لا يسألكم جميع أموالكم، بل يقتصر منكم على جزء يسير، كربع العشر وعشره. إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم، وهو معطوف على الجزاء. والمعنى: إن تؤمنوا لا يسألكم الجميع، أي: لا يأخذه منكم، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم. ولا يخفى حسن مقابلته لقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: يعطكم كل الأجور، ويسألكم بعض المال - هذا ما قاله الشهاب -.

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم، لعود نفعه إليهم لا إليه، لاستغنائه المطلق، فإن في الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفي بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد، كله مما يعود ثمرته عليهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- إذا طلب الله عزَّ وجلَّ منكم إخراج كل أموالكم ويلح عليكم في هذا الطلب ويحف في المسألة فعند ذلك تبخلوا بها وتمتنعوا من إخراجها وحينئذٍ يصدر منكم ما تكرهون أن يخرج منكم، فتخرج الضغائن من القلوب وتخرج اعتراضات على الشريعة والأحكام من بعضكم ويخرج التسخط على هذا الدين فيظهر على ألسن الكثيرين، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾: يقول جل ثناؤه: إن يسألكم ربكم أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ يقول: فيجهدكم بالمسألة، ويلح عليكم بطلبها منكم فيلحف، تبخلوا: يقول: تبخلوا بها وتمنعوها إياه، ضنًّا منكم بها، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم فلم يسألكموها.

وقوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ يقول: ويخرج جل ثناؤه لو سألكم أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانكم قال: قد علم الله أن في مسألته المال خروج الأضغان.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يلح عليكم يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد والحفي المستقصي في السؤال وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة ومنه أحفى شاربه أي استقصى في أخذه ﴿تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ أي يخرج البخل أضغانكم.

قال القاسمي في «محاسن التأويل»:

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ أي: أحقادكم، كراهتكم لدين يذهب بأموالكم. وضمير ﴿وَيُخْرِجْ﴾ لله تعالى، ويعضده القراءة بنون العظمة. أو للبخل لأنه سبب الأضغان. وقرئ (يخرج) من الخروج، بالياء والتاء، مسندًا إلى الأضغان.

❁ ❁ ❁

س: ما موضع كلمة «ها» في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بالنفقة فيه، وأدخلت «ها» في موضعين؛ لأن العرب إذا أرادت التقريب جعلت المكنى بين «ها» وبين «ذا»، فقالت: ها أنت ذا قائمًا؛ لأن التقريب جواب الكلام، فربما أعادت «ها» مع «ذا»، وربما اجتزأت بالأولى، وقد حذفت الثانية، ولا يقدمون أنتم قبل «ها»؛ لأن ها جواب فلا تقرب بها بعد الكلمة.

وقال بعض نحويي البصرة: جعل التنبيه في موضعين للتوكيد.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- ومن يبخل فإنما يعود بخله على نفسه لأن من يبخل بالصدقات فإنما يبخل على نفسه بالحسنات.

وقال بعض أهل العلم: إن معنى ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يبخل عن بخل نفسه، أي: إنما بخله صدر لكون نفسه بخيلة، فانعكس ما في القلب على الجوارح.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يقول تعالى ذكره: ومن يبخل بالنفقة في سبيل الله، فإنما يبخل عن بخل نفسه، لأن نفسه لو كانت جوادا لم تبخل بالنفقة في سبيل الله، ولكن كانت تجود بها ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ يقول تعالى ذكره: ولا حاجة لله أيها الناس إلى أموالكم ولا نفقاتكم، لأنه الغني عن خلقه والخلق الفقراء إليه، وأنتم من خلقه، فأنتم الفقراء إليه، وإنما حضكم على النفقة في سبيله، ليكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه.

ونحوه قاله القرطبي، قال: أي على نفسه، أي: يمنعها الأجر والثواب.

قال القاسمي في «محاسن التأويل»:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في جهاد أعدائه، ونصرة دينه ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: بالنفقة فيه. ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: يمسكه عنها، لأنه يحرمها الأجر، ويكسبها الوزر ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه. ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي: بالذات إليه. فوصفه بالغني وصف لازم له، ووصفُ الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه، أي وإذا كان كذلك، فإنما حضكم على النفقة في سبيله ليكسبكم بذلك، الجزيلَ من ثوابه. وليعلم أن سبيل الله يشمل كل ما فيه نفع وخير، وفائدة وقربة

ومثوبة. وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر، وجزئيّه الأهم، وقت نزول الآيات، وإلا فلا ينحصر فيه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عما جاءكم به محمد ﷺ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يهلككم ثم يأتي بقوم آخرين غيركم، بدلًا منكم، يؤمنون به، ويعملون بشرائعه.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ أي: لا يبخلوا بما أُمروا به من النفقة في سبيل الله، ولا يضيعون شيئًا من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله، على ما يؤمرون به.

❁ ❁ ❁

س: قول القائل عند التعريف بنفسه: «أخوكم الفقير إلى الله»، وقول الآخر: «أفقر عباد الله»، هل ورد عن رسول الله ﷺ؟

ج: ابتداءً فنحن جميعًا فقراء إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، لكن تصدير التعريف بقول الفقير إلى الله ونحو ذلك، فلم يرد عن رسول الله ﷺ ولا علمته واردًا عن أحدٍ من أصحابه، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- وإن تتولوا أيها الناس عن هذا الدين وتعرضوا عنه وتتركوا تعاليمه يهلككم الله -عزَّ وجلَّ- ويأتي بقومٍ آخرين سامعين مطيعين لأمر الله عزَّ وجلَّ، مجاهدين في سبيله، منفقين مما آتاهم الله، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة: ٥٤].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: وإن

تتولوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ، فترتدوا راجعين عنه ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يقول: يهلككم ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلا منكم يصدقون به، ويعملون بشرائعه ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ يقول: ثم لا يبخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله، ولا يضيعون شيئا من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يؤمرون به.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يقول: إن توليتم عن كتابي وطاعتي أستبدل قوما غيركم. قادر والله ربنا على ذلك على أن يهلكهم، ويأتي من بعدهم من هو خير منهم.

❀ ❀ ❀

س: من هؤلاء الذين عناهم الله بقوله: ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن هؤلاء أهل فارس إذ قد ورد حديث في ذلك لكن سنده ضعيف ألا وهو ما أخرجه الطبري وغيره من طريق عن مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ كان سلمان إلى جنب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء القوم الذين إن تولينا استبدلوا بنا، قال: فضرب النبي ﷺ على منكب سلمان، فقال: «من هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو أن الدين تعلق بالثريا لنالته رجال من أهل فارس».

قلت (مصطفى): ومسلم بن خالد ضعيف، والذي يظهر أن الآية الكريمة عامة في كل من يمنّ الله عزَّ وجلَّ عليه بالهداية وينعم عليه بالإيمان ويرزقه حسن الاستقامة، والله أعلم.

قال السمعاني في تفسيره:

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: إن تعرضوا.

وقوله: ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ فيه أقوال:

أحدها: ملائكة السماء، وهذا أشد الأقوال.

والقول الثاني: إن تتولوا يا معشر قريش يستبدل قومًا غيركم أي: أهل اليمن، وقد كان الأنصار منهم، فإن الأوس والخزرج حيان من اليمن، وقد قال الشاعر:

وللَّـــه أوس آخــــرون وخــــزرج

والقول الثالث: وهو المعروف، وإن تتلوا يا معشر العرب يستبدل قومًا غيركم أي: العجم. وفي الخبر المعروف: أن قومًا سألوا النبي ﷺ عن معني هذه الآية وقالوا: من الذين يستبدلهم بنا؟ وكان سلمان جالسًا بجنبه فقال: هذا وقومه ثم قال: «لو كان الدين معلقًا بالثريَّا لناله رجال من فارس».

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ أي: يكونوا خيرًا منكم وأطوع لي، ومعناه: لا يكونوا أمثالكم في مخالفة الأوامر، والله أعلم.



سورة الفتح

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

[الفتح: ١-٣]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿فَتَحْنَا - فَتْحًا - مُّبِينًا - يَهْدِيَكَ - صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا - عَزِيزًا﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿فَتَحْنَا﴾	حكمنا - قضينا
﴿فَتْحًا﴾	حُكمًا - قضاءً
﴿مُّبِينًا﴾	مظهرًا لكونك على الحق - ظاهرًا واضحًا
﴿ يَهْدِيَكَ ﴾	يُرشدك
﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾	طريقًا (في الدين) لا اعوجاج فيه يوصلك إلى جنة الله ومرضاته
﴿عَزِيزًا﴾	غالبًا لا يغلبه غالبٌ ولا يدفعه دافعٌ

❀ ❀ ❀

س: متى نزلت هذه السورة المباركة على رسول الله ﷺ؟

ج: نزلت هذه السورة المباركة عند رجوع النبي ﷺ من الحديبية.

أخرج مسلم[1] في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ...﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح: ١-٥] مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحر الهدي بالحديبية فقال: «لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعًا».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة

(١) مسلم (١٧٨٦).

إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر، ورجع، أنزل الله، عزَّ وجلَّ، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

❁ ❁ ❁

فضل سورة الفتح

س: هل ورد شيءٌ في فضل هذه السورة المباركة؟

ج: نعم، ورد في فضلها عن رسول الله ﷺ أحاديث منها ما أخرجه البخاري[(١)] في صحيحه من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخًا يصرخ بي - قال - فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: **«لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»**، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

❁ ❁ ❁

س: هل صح للسورة الكريمة (سورة الفتح) سبب نزول؟

ج: أخرج البخاري ومسلم من طريق حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟

فقال علي: نعم. فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في

(١) البخاري حديث (٤١٧٧).

النار؟ قال: « بلى ». قال: ففيم أعطي الدنية في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا. فقال: « يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا ». فرجع متغيظًا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ﷺ ولن يضيعه الله أبدًا. فنزلت سورة الفتح[١].

وأخرج الطبري من حديث مجمع بن جارية رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحديبية حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كراع الغميم فإذا الناس يرسمون نحو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال لبعض الناس فحركنا حتى وجدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند كراع الغميم واقفًا فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال بعض الناس: أو فتح هو؟ قال: «والذي نفسي بيده إنه لفتح»[٢].

❁ ❁ ❁

س: قرأ رسول الله ﷺ هذه السورة في موطنٍ من المواطن، ما هذا الموطن؟

ج: قرأ النبي ﷺ تلك السورة يوم فتح مكة ففي الصحيحين من حديث عبد الله ابن مغفّل قال: قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة سورة الفتح فرجَّع فيها[٣]. قال معاوية (يعني ابن قرة)[٤] لو شئت أن أحكي لكم قراءة قراءة النبي ﷺ لفعلت.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إنا قضينا لك وحكمنا لك بالنصر على عدوك قضاء ظاهرًا وحُكمًا ظاهرًا موضحًا لمن اطلع عليه وعلم به أن الله نصرك بلا شكٍ ولا ريب. والله تعالى أعلم.

---

(١) البخاري (١٠/ ٢١٠)، ومسلم (٢/ ١٤١).

(٢) الطبري (٢٦/ ٧١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٩).

(٣) البخاري (٤٨٣٥)، ومسلم (٧٩٤).

(٤) معاوية هو ابن قرة، وهو الراوي عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

المراد بالفتح

س: ما المراد بهذا الفتح المبين؟

ج: ذهب الأكثرون من أهل العلم إلى أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية.

ومن حججهم لذلك أن السورة الكريمة - وكما أسلفنا - نزلت على رسول الله ﷺ مرجعه من الحديبية.

بينما ذهب آخرون من أهل العلم إلى أن المراد بالفتح فتح مكة.

وثمَّ قولٌ ثالث بعيد، وهو أن المراد بالفتح فتح خيبر وذلك لكونه تمَّ بعد صلح الحديبية.

وأظهر الأقوال في ذلك، والله أعلم، أن الفتح صلح الحديبية، والله تعالى أعلم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمرا في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وسبب ذلك أنه لما أمن الناس بعضهم بعضا، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عزَّ وجلَّ، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن ذلك للحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحا، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود من فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل به الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وذلك -والله أعلم- بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم

من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

❁ ❁ ❁

س: لماذا أُطلق على صلح الحديبية فتح؟

ج: ذلك، والله تعالى أعلم، لما كان من وراء هذا الصلح من خير فقد آمن أقوام كثيرون في مدة الهدنة التي قُررت في هذا الصلح.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خيرٌ جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان.

❁ ❁ ❁

المراد بالذنب المتقدم والمتأخر

س: ما المراد بالذنب المتقدم والذنب المتأخر في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن الذنب المتقدم هو ما صدر منه قبل الرسالة، والذنب المتأخر هو ما بين مبعثه والوحي إليه إلى وقت نزول هذه الآيات.

الثاني: ما تقدم من الذنب قبل الرسالة، وما تأخر بعد الرسالة عمومًا.

الثالث: ما تقدم من ذنبك، ذنب أبيك آدم وأمك حواء وما تأخر من ذنوب أمتك، وهذا القول أراه أبعد الأقوال عن الصواب، وأيضًا فهنالك أقوال أُخر أرى في جميعها نظر وكذا الذي ذُكر فيه نظر أيضًا.

والصواب من القول - والله تعالى أعلم -: أن ما تقدم من الذنب هو كل ما جرى من رسول الله ﷺ من ذنب قبل نزول هذه الآية الكريمة، وما تأخر ما يصدر منه بعد نزولها.

أما الذنب المتقدم فنحو الوارد في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التوبة: ٤٣].

فكان عليه صلوات الله وسلامه قد أذن لبعض المنافقين في التخلف عن الجهاد لما استأذنوه لذلك.

وكذا نحو الوارد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم: ١]، لما حرَّم على نفسه العسل أو مارية.

ونحو الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]، والله تعالى أعلم.

قال الرازي في «التفسير الكبير»:

لم يكن للنبي ﷺ ذنب، فماذا يغفر له؟ قلنا: الجواب عنه قد تقدم مراراً من وجوه (أحدها): المراد ذنب المؤمنين (ثانيها): المراد ترك الأفضل (ثالثها): الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد، وهو يصونهم عن العجب (رابعها): المراد العصمة.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه الربط بين الآيتين الكريمتين ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾، والتي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وضح المعنى بشيء من التفصيل؟

ج: وجه الارتباط بينهما يتضح من المعنى، فالمعنى - والله أعلم - إنا حكمنا لك بالنصر على عدوك وقضينا لك بذلك قضاء وحكمًا ظاهرًا ومظهرًا للخلق أن الله نصرك عليهم، وقضي لك بالنصر عليهم، فقدِّم شكرًا وحمدًا لله عزَّ وجلَّ على ذلك، وكذا فقدِّم استغفارًا، فإنك إذا قدمت شكرًا واستغفارًا غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر وأتم الله نعمته عليك فالشكر تُستجلب به النعم ويُرجى من ورائه المزيد منها كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧] والاستغفار سبب عظيم من أسباب غفران الذنوب.

ودلَّ على صحة هذا المعنى وسلامته قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣]، فمفادها أن رسول الله ﷺ أُمر - إذا جاءه نصر الله ومنَّ عليه ربُّه بالفتح - أن يسبح بحمد ربِّه مصليًا شاكرًا ذاكرًا، وكذا أُمر بأن يستغفر ربَّه عزَّ وجلَّ.

فإنه إن فعل ذلك تاب الله عزَّ وجلَّ عليه إنه كان توابًا[(١)].

وهذا المعنى هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا، وقد فعل النبي ﷺ ما أمره به ربُّه عزَّ وجلَّ، وأيضًا فقد غفر الله عزَّ وجلَّ لنبيه محمدٍ ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وقد أخرج البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!! قال: «أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا» فلما كثر لحمُه صلى جالسًا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع[(٢)].

وعند البخاري أيضًا من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[(٣)].

هذا، وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني بقوله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ يقول: إنا حكمنا لك يا محمد حكما لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك، وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر، لتشكر ربك، وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتحه ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره، فيغفر لك بفعالك ذلك ربك،

---

(١) ولا تنافي بين هذا المعنى، وبين المنقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أن هذه السورة المباركة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ نعت إلى رسول الله ﷺ أجله، وذلك لأن ما فسرت به السورة يقتضيه ظاهرها، وما ذكره ابن عباس فمعنى زائد على تفسير مفردات السورة، وبلا شك فهو معنى مقبول، والله أعلم.

(٢) البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٣) البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩).

ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته.

وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية لدلالة قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣] على صحته، إذ أمره تعالى ذكره أن يسبح بحمد ربه إذا جاءه نصر الله وفتح مكة، وأن يستغفره، وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك، ففي ذلك بيان واضح أن قوله تعالى ذكره ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إنما هو خبر من الله جل ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام عن جزائه له على شكره له، على النعمة التي أنعم بها عليه من إظهاره له ما فتح، لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها.

وبعد ففي صحة الخبر عنه ﷺ: أنه كان يقوم حتى ترم قدماه، فقيل له: يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»، الدلالة الواضحة على أن الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأن الله تبارك وتعالى، إنما وعد نبيه محمدا ﷺ غفران ذنوبه المتقدمة، فتح ما فتح عليه، وبعده على شكره له، على نعمه التي أنعمها عليه.

وكذلك كان يقول ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة» ولو كان القول في ذلك أنه من خبر الله تعالى نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر على غير الوجه الذي ذكرنا، لم يكن لأمره إياه بالاستغفار بعد هذه الآية، ولا لاستغفار نبي الله ﷺ ربه جل جلاله من ذنوبه بعدها معنى يعقل، إذ الاستغفار معناه: طلب العبد من ربه عزَّ وجلَّ غفران ذنوبه، فإذا لم يكن ذنوب تغفر لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى، لأنه من المحال أن يُقال: اللهم اغفر لي ذنبًا لم أعمله.

❁ ❁ ❁

س: هل هناك أعمالٌ صالحة إذا عملها شخص غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

ج: لا أعلم شيئًا صحيحًا في هذا الباب.

أما مغفرة ما تقدم من الذنوب ففيه أدلةٌ كثيرة، أما مغفرة ما تأخر فلا أعلم فيه شيئًا ثابتًا إلا حديث صلاة التسابيح، وفي سنده مقالٌ وخلاف، وحديث أهل بدرٍ ففيه: «وما يدريك يا عمر لعلَّ الله اطلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه -صلوات الله وسلامه عليه- التي لا يشاركه فيها غيره. وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو -صلوات الله وسلامه عليه- في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾؟

ج: ذلك، والله أعلم، إتمام النعمة على رسول الله ﷺ في الدنيا بنصره على أعدائه وتمكينه منهم وإظهار دينه وإعلاء شرعه، وفي الآخرة بمغفرة الذنوب ورفعة الدرجات.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.

ج: الهداية تأتي بمعنيين، الأول: التوفيق، والثاني: الدلالة والإرشاد، وهي هنا بمعنييها، فالمعنى الإجمالي: ويرشدك إلى الطريق المستقيم الموصل لجنَّته ومرضاته ويوفقك لسلوكه ويسهله عليك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وينصرك الله نصرًا قويًّا لا يغلبك معه غالب ولا يدفعه عنك دافع.

قال الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

[الفتح: ٤ - ٧]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱلسَّكِينَةَ - يُكَفِّرَ - سَيِّـَٔاتِهِمْ - ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ - دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ - لَعَنَهُمْ - سَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾	الطمأنينة - الرحمة - الوقار
﴿يُكَفِّرَ﴾	يغفر - يمحو - لا يؤاخذ - يتجاوز
﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾	ذنوبهم - خطاياهم
﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾	المتهمين لله في حكمه
﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾	دائرة العذاب (يدور عليهم العذاب حيث كانوا ويحيط بهم)
﴿لَعَنَهُمْ﴾	طردهم وأبعدهم عن رحمته
﴿سَآءَتْ مَصِيرًا﴾	كانت مصيرًا سيئًا لهم

❀ ❀ ❀

س: مَنْ المعنيون بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية الكريمة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟

ج: هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا معه يوم الحديبية[(١)].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين. والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس.

وقد ذكر جل وعلا إنزاله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في براءة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٢٦]، وذكر إنزال

(١) إلا صاحب الجمل الأحمر.

سكينته على رسوله في قوله في براءة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ الآية [التوبة:٤٠].

وذكر إنزاله سكينته على المؤمنين في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح:١٨].

وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة، وقد بين في هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب، وذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح:٤].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله عزَّ وجلَّ أنزل السكينة التي هي الطمأنينة والوقار في قلوب أهل الإيمان فازدادوا تصديقًا مع تصديقهم، ازدادوا تصديقًا بكل ما وعدهم الله به وكذا ازدادوا امتثالًا وسمعًا وطاعة لكل ما أمرهم الله به.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ يقول: ليزدادوا بتصديقهم بما جدد الله من الفرائض التي ألزمهموها، التي لم تكن لهم لازمة ﴿إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يقول: ليزدادوا إلى إيمانهم بالفرائض التي كانت لهم لازمة قبل ذلك.

وأورد الطبري بإسنادٍ ضعيف عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: السكينة الرحمة ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ قال: إن الله جل ثناؤه بعث نبيه محمدا ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السموات وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله.



بعض الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه

س: اذكر بعض الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقوله تعالى في شأن الفتية أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وآيات كثيرة أخرى في هذا الباب.

وقول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

وقوله تعالى يوم القيامة: «أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردل من إيمان»[2].

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من هؤلاء الجند؟

ج: هؤلاء على العموم من جندهم الله عزَّ وجلَّ لنصرة دينه وللانتقام من أعدائه ولإنفاذ أوامره.

ومن هؤلاء الجند الملائكة عليهم صلوات الله وسلامه، ومنهم كذلك جنودٌ من الإنس وجنود من الجن، وكذا منهم الطير، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا

(١) مسلم (٤٩).

(٢) البخاري (٢٢).

أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾ [الفيل: ٣]، ومنهم الدواب كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، فكلها جندٌ من جند الله، وهنالك الريح العقيم، وهنالك غير ذلك من الجند الذين لا يعلمهم إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ سبب نزول؟

ج: نعم، أخرج أحمد[1] بسندٍ صحيح من حديث أنس أنها نزلت على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مرجعه من الحديبية وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة وقد حيل بينهم وبين مساكنهم، ونحروا الهدي بالحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١، ٢] قال: «لقد أنزلت علي آيتان هما أحب إلي من الدنيا جميعًا». قال: فلما تلاهما قال رجل: هنيئًا مريئًا يا رسول الله قد بيَّن لك ما يفعل بك فما يفعل بنا؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ الآية التي بعدها ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [الفتح: ٥].

❁ ❁ ❁

س: هل لقوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تعلقٌ بما قبله.

ج: قد قال ذلك بعض أهل العلم، وحاصل ما ذكروه أن المعنى إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، وذلك حتى تشكر ربك يا رسول الله وأيضًا حتى يشكر المؤمنون ربهم عزَّ وجلَّ، فإذا شكروه وحمدوه أدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

ووجه آخر أن تعلق الآية إنما بالآية التي قبلها فحسب.

ووجه ذلك أن الله عزَّ وجلَّ أنزل السكينة في قلوب المؤمنين حتى يزداد إيمانهم ويزداد عملهم الصالح، ومن ثمَّ يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والله أعلم.

---

(١) أحمد في المسند (٣/ ١٣٤)، وفي بعض طرق هذا الحديث أن قوله: «قال رجل: هنيئًا مريئًا» إلىٰ آخره، من قول عكرمة فتكون مرسلة، انظر البخاري (٨/ ٤٥٦).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، لتشكر ربك، وتحمده على ذلك، فيغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وليحمد ربهم المؤمنون بالله، ويشكروه على إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من الفتح الذي فتحه، وقضاه بينهم وبين أعدائهم من المشركين، بإظهاره إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها إلى غير نهاية وليكفر عنهم سيئ أعمالهم بالحسنات التي يعملونها شكرًا منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وكان هذا الدخول، دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وتكفير السيئات وغفران الزلات ومحوها يوم القيامة عند الله ظفرًا عظيمًا، والفوز العظيم الظفر بالمطلوب والفرار من المرهوب وأعظم مطلوب رضوان الله وجنته، وأعظم مرهوب سخط الله ونيرانه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾ يقول تعالى ذكره: وكان ما وعدهم الله به من هذه العدة، وذلك إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وتكفيره سيئاتهم بحسنات أعمالهم التي يعملونها عند الله لهم ﴿فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾ يقول: ظفرًا منهم بما كانوا تأملوه ويسعون له، ونجاة مما كانوا يحذرونه من عذاب الله عظيمًا.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه اتصال قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ ...﴾ بما قبله؟

ج: وجهه أن الله عزَّ وجلَّ فتح لنبيه ﷺ فتحًا مبينًا ليحمد الله ويشكره ويحمده المؤمنون ويشكرونه فيغفر لهم، وكذا فتح لنبيه ﷺ فتحًا مبينًا كي يغيظ بذلك أهل الشرك ويسيئهم ويسبب لهم الهموم والغموم في الدنيا فضلًا عن عذاب الآخرة.

❁ ❁ ❁

س: ما صورة تعذيب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات؟

ج: صورة ذلك أن الله عزَّ وجلَّ إذا نصر رسوله وأيده وحفظه ونصر المؤمنين، دخلت على المنافقين والمنافقات وعلى المشركين والمشركات بذلك النصر الأحزان والهموم والغموم فضلًا عما ينالهم من قتلٍ وأسرٍ واسترقاقٍ، وكل ذلك فضلًا عن العذاب الأخري الذي أعده الله لهم. والله أعلم.

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله، وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، وليعذب المنافقين والمنافقات، بفتح الله لك يا محمد، ما فتح لك من نصرك على مشركي قريش، فيكبتوا لذلك ويحزنوا، ويخيب رجاؤهم الذي كانوا يرجون من رؤيتهم في أهل الإيمان بك من الضعف والوهن والتولي عنك في عاجل الدنيا، وصلي النار والخلود فيها في آجل الآخرة.

❁ ❁ ❁

بعض صور الظن السيئ

س: ما المراد بالظن السيئ الذي ظنه المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات بالله عزَّ وجلَّ؟

ج: ظن هؤلاء أن الله عزَّ وجلَّ سيضيع نبيه ﷺ ويخذله ويطفئ نوره، وأن هذا النبي ﷺ لن يرجع إلى مدينته بل سيقتل ويُقتل كذلك من معه ممن آمنوا به.

قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢].

هذا، وهنالك صورٌ أُخر من الظن السيئ بالله عزَّ وجلَّ:

❁ فمن ذلك الظن: بأن الله عزَّ وجلَّ له شريك في الملك أو أن له صاحبة أو أن له ولد.

❁ ومن ذلك الظن: بأن الله عزَّ وجلَّ يشبه خلقه.

❁ ومن ذلك الظن: بأن الله عزَّ وجلَّ يسوي بين المطيعين له والعاصين

المتمردين على أوامره، الظن بأن الله يسوي بين المسلم والمجرم.

* ومن ذلك الظن: بأن الله عزَّ وجلَّ ليس بقادر على فعل ما يريد.

*ومن ذلك الظن: اتهام الله عزَّ وجلَّ بالقصور، واتهام شرعه الذي شرع بالخلل والنقصان وعدم مناسبته وموافقته لكل زمان ومكان.

* ومن ذلك الظن: بأن الله عزَّ وجلَّ لا يعلم الغيب ولم يقدر المقادير.

* ومن الظن السيئ بالله: ظن البعض أن الله لن يبعث الخلق ولن يحاسبهم.

وهنالك صور كثير من صور الظن السيئ بالله.

* فمن ظن بالله عزَّ وجلَّ ظنًّا مخالفًا لما ذكره الله عن نفسه في كتابه، ولِما ذكره النبي ﷺ في سنته فهو من الذين يظنون بالله سيئ الظن.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، على هؤلاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات دائرة العذاب تدور عليهم وتحيط بهم أينما كانوا وحيثما نزلوا وكذا العاقبة السيئة عليهم ولهم، وكذا الهزائم تلحقهم والشرور تلاحقهم.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه تكرير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؟

ج: وجه ذلك التأكيد على قدرة الله عزَّ وجلَّ وأن يجند جندًا مما يشاء وإلى حيث يريد فلا غالب له ولا رادٍ لقضائه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

ج: المعنى -والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم- وكان الله عزَّ وجلَّ ذا عزةٍ لا يغلبه غالب ولا يمنعه مما أراد مانعٌ فهو تعالى عزيز، وكذا حكيم فيما يشرع لعباده وفيما يقضي به وحكيم في كل شيء.

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾

س: وضح معنى ما يلي:

﴿شَٰهِدٗا - مُبَشِّرٗا - نَذِيرٗا - تُعَزِّرُوهُ - تُوَقِّرُوهُ - تُسَبِّحُوهُ - بُكۡرَةٗ - أَصِيلًا﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿شَٰهِدٗا﴾	الذي يشهد على الناس بما صدر منهم وما حدث لهم
﴿مُبَشِّرٗا﴾	مُخبرًا بأمرٍ يسر ويُسعد (وهو الإخبار بالجنة ورضوان الله)
﴿نَذِيرٗا﴾	مخوفًا من شرور عظيمة (أعظمها سخط الله وعذابه الذي هو النار)
﴿تُعَزِّرُوهُ﴾	تعظموه - تنصرونه بالقتال معه - تجلُّوه
﴿تُوَقِّرُوهُ﴾	تعظموه - تفخموه
﴿تُسَبِّحُوهُ﴾	تنزهوه عن الولد - تنفون عنه الولد والشريك والصاحبة وغير ذلك
﴿بُكۡرَةٗ﴾	أول النهار
﴿أَصِيلًا﴾	آخر النهار

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾ شاهدًا على ماذا، ومبشرًا بماذا؟ ونذيرًا من ماذا؟

ج: شاهد على أمتك أنك قد بلغتها.

ومبشرًا من أطاعك بالجنة.

ونذير لمن عصاك بالنار.

س: قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تسبحوا مَنْ؟

ج: تسبحوا الله عزَّ وجلَّ.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيسير الكريم المنان»:

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة في رقابكم، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ أول النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٠-١٧]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿نَّكَثَ - أَجْرًا عَظِيمًا - ٱلْمُخَلَّفُونَ - يَنقَلِبَ - زُيِّنَ - ظَنَّ ٱلسَّوْءِ - بُورًا - أَعْتَدْنَا - سَعِيرًا - ٱلْمُخَلَّفُونَ - ذَرُونَا - يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ - تَحْسُدُونَنَا - أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ - حَرَجٌ - يَتَوَلَّ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿نَّكَثَ﴾	نقض (نقض البيعة وخالف ولم يفِ)
﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾	ثوابًا كبيرًا
﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾	الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ
﴿يَنقَلِبَ﴾	يرجع
﴿زُيِّنَ﴾	حُسِّن
﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾	الظن السيئ الفاسد المخالف للحق
﴿بُورًا﴾	هلكى - فاسدين
﴿أَعْتَدْنَا﴾	أعددنا - هيأنا - جهزنا
﴿سَعِيرًا﴾	نارًا موقدة مستعرة
﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾	الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية
﴿ذَرُونَا﴾	دعونا - لا تمنعونا
﴿يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾	يغيروا ما قضاه الله وأمر به الله
﴿تَحْسُدُونَنَا﴾	تتمنون زوال النعم عنا
﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾	أقوياء أشداء في الحروب
﴿حَرَجٌ﴾	ضيق - إثم
﴿يَتَوَلَّ﴾	يُعرض - يُدبر - يتخلف وينصرف عن عمدٍ

س: متى كانت هذه البيعة؟

ج: كانت هذه البيعة عام الحديبية.

❁ ❁ ❁

س: على أي شيء كانت هذه البيعة؟

ج: قال عدد من أهل العلم كانت هذه البيعة على أن لا يفروا من عدوهم وعلى أن لا يولوا عدوهم الأدبار، وكذا على نصرتهم لنبيهم محمدﷺ.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابةرَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فيها رسول اللهﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ حقيقة الأمر أنهم ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي: أتى به كاملًا موفرًا، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله في حقيقة الأمر لأنك مبلغ عن الله عزَّ وجلَّ ما يريده من خلقه، وكذا فإنهم إن ناصروك فإنما يناصرون دين الله عزَّ وجلَّ، وكذا طاعتهم لك إنما هي طاعة لله كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء: ٨٠].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية من أصحابك على أن لا يفروا عند لقاء العدو، ولا يولوهم الأدبار ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يقول: إنما

يبايعون ببيعتهم إياك الله، لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك.

❀ ❀ ❀

س: هل بايع أحدٌ من الصحابة رسول الله ﷺ على الموت؟

ج: نعم، منهم من بايع على الموت، أي: على الجهاد حتى النصر أو الموت.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾.

ج: أولًا، وقبل الإجابة على هذا السؤال يجب أن يُعلم أننا نثبت لله عزَّ وجلَّ ما أثبته لنفسه وكذا نثبت له سبحانه وتعالى ما أثبته له رسوله ﷺ، وكذا فإننا ننفي عن الله عزَّ وجلَّ ما نفاه عن نفسه، وكذا ما نفاه عنه رسوله ﷺ.

وبعد، فصفة اليد مما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه وكذا جاءت في سنة رسول الله ﷺ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ﷺ: «يد الله ملأى».

وذكر رسول الله ﷺ قول المؤمنين يوم القيامة لآدم عليه السلام: «خلقك الله بيده».

إلى غير ذلك من الأحاديث.

فثبتت صفة اليد لله عزَّ وجلَّ بهذه النصوص، ولكنها يدٌ ليست كيد الخلق.

قال الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

هذا ما أحببت أن أذكِّر به أولًا.

ثم عن قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ فهذه بعض أقوال أهل العلم فيها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ وجهان من التأويل: أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ.

والآخر: قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسوله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله

ﷺ على نصرته على العدو.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ كقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: ١١١].

وذكر القرطبي أقوالًا منها:

يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء.

ويده في المنة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة.

وقوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم.

وذكر أقوالًا أُخر.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾.

ج: قال فريق من أهل العلم: معنى ذلك أن من نقض العهد ولم يفِ بالبيعة التي بايع رسول الله ﷺ فإنما يضر بنفسه ويحرم نفسه من الخير الذي وعده الله به، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فمن لم يفِ بهذا العهد فليس له عند الله أن يفي الله له بعهده لأنه هو الذي نقض العهد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ يقول تعالى ذكره: فمن نكث بيعته إياك يا محمد، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ يقول: فإنما ينقض بيعته، لأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده الله الجنة بوفائه بالبيعة، فلم يضر بنكثه غير نفسه، ولم ينكث إلا عليها، فأما رسول الله ﷺ فإن الله تبارك وتعالى ناصره على أعدائه، نكث الناكث منهم، أو وفَّى ببيعته.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: يرجع ضرر النكث عليه؛ لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ومن ألزم نفسه بما عاهد عليه رسول الله ﷺ، وذلك من نصرة رسول الله ﷺ والدفاع عنه فسوف يجازيه الله عزَّ وجلَّ أجرًا عظيمًا وهو الجنة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾... الآية، يقول تعالى ذكره: ومن أوفى بما عاهد الله عليه من الصبر عند لقاء العدو في سبيل الله ونصرة نبيه ﷺ على أعدائه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ يقول: فسيعطيه الله ثوابا عظيما، وذلك أن يدخله الجنة جزاء له على وفائه بما عاهد عليه الله، ووثق لرسوله على الصبر معه عند البأس بالمؤكدة من الأيمان.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه الضَّم في قوله: ﴿عَلَيْهُ﴾؟

ج: الظاهر، والله أعلم أنها لغة جاءت في كتاب الله عزَّ وجلَّ فنقرها - بلا تردد ولا ريب - كما جاءت، والله أعلم.

س: من هؤلاء الأعراب الذين قالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا؟

ج: قال بعض أهل العلم إنهم قوم من الأعراب الذين هم حول مدينة رسول الله ﷺ من غفارٍ ومُزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدِّيل.

س: قوله: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ تخلفوا عن ماذا؟

ج: قال بعض أهل العلم: تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ عام الفتح لفتح مكة وتخلفوا عن مسيرك الذي سرت إليه زائرًا بيت الله الحرام، وذلك لما استنفرهم رسول الله ﷺ للخروج معه، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قولهم: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

ج: ذلك، والله أعلم، معناه: شغلنا إصلاح أموالنا وشغلتنا مصالح أهلينا فليس لنا من يقوم بالمحافظة على أموالنا، وليس لنا من يخلفنا في أهالينا بخيرٍ إذا نحن خرجنا معك.

❁ ❁ ❁

س: هل كان هؤلاء الأعراب صادقون فيما قالوا؟

ج: بل كانوا كاذبين، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، سيقول لك هؤلاء الذين تخلفوا عن الخروج معك لفتح مكة وللاعتمار إلى بيت الله الحرام، هؤلاء الذين تركوا النفير لما استنفرتهم، شغلتنا عن الخروج معك أعذارٌ منها خوفنا على أموالنا من الضياع فليس لنا من يقوم بإصلاحها، وكذا خوفنا على أهالينا من أن يعتدي عليهم معتدٍ أو يخوننا فيهم خائن، وهذا القول إنما هو قول كاذبٌ لا أساس له من الصحة، ومن ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ فهو سبحانه القادر على إنزال الضرر بكم في أموالكم وأهليكم وإن كنتم متواجدين في أهاليكم وأموالكم، وكذا فهو القادر على التفضل عليكم بنعمه وبواسع فضله في أي مكان كنتم وفي أي مكان حللتم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سيقول لك يا محمد الذين خلفهم الله في أهليهم عن صحبتك، والخروج معك في سفرك الذي سافرت، ومسيرك الذي سرت إلى مكة معتمرا، زائرا بيت الله الحرام إذا انصرفت إليهم، فعاتبتهم على التخلف عنك، شغلتنا عن الخروج معك معالجة أموالنا، وإصلاح معايشنا وأهلونا، فاستغفر لنا ربنا لتخلفنا عنك، قال الله جل ثناؤه مكذبهم في قيلهم ذلك: يقول هؤلاء الأعراب المخلفون عنك بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وذلك مسألتهم رسول الله ﷺ الاستغفار لهم، يقول: يسألونه بغير توبة منهم ولا ندم على ما سلف منهم من معصية الله في تخلفهم عن صحبة رسول الله ﷺ والمسير معه ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه: قل لهؤلاء الأعراب الذين يسألونك أن تستغفر لهم لتخلفهم عنك: إن أنا استغفرت لكم أيها القوم، ثم أراد الله هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم نفعا بتثميره أموالكم وإصلاحه لكم أهليكم، فمن ذا الذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم من خير أو شر، والله لا يعازه أحد، ولا يغالبه غالب.

وقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يظن هؤلاء المنافقون من الأعراب أن الله لا يعلم ما هم عليها منطوون من النفاق، بل لم يزل الله بما يعملون من خير وشر خبيرا، لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه، سرها وعلانيتها، وهو محصيها عليهم حتى يجازيهم بها، وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر عنه حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر العرب ومن حول مدينته من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه حذرا من قومه قريش أن يعرضوا له الحرب، أو يصدوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ بالعمرة، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لا يريد حربا، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، وتخلفوا خلافه فهم الذين عنى الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾... الآية.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه -بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾.

❀ ❀ ❀

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ﴾، مع ذكر طرفٍ من معناها.

ج: أمر الله جل وعلا نبيه أن يقول للمنافقين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ﴾ أي لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به فلا نافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضر أراده ولا منع نفع أراده.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ما جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأحزاب: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب:١٧].

وقوله تعالى في آخر يونس: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ الآية [يونس:١٠٧].

وقوله في الأنعام: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

وقوله تعالى في المائدة: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله تعالى في فاطر: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ الآية [فاطر:٢].

وقوله تعالى في الملك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الملك:٢٨].

❀ ❀ ❀

س: من الذي زين ذلك في قلوبهم؟

ج: لأهل العلم في مثل هذا الموطن وجهان:

أحدهما: أن الذي زيَّن ذلك هو الله، كما قال في كتابه الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨].

الثاني: أن الذي زيَّن ذلك هو الشيطان، ومستنده: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤].

والجمع ممكن بأن يُقال: إن الشيطان زيَّن ذلك لهم، ولم يكن يزين لهم إلا بإذن الله، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: ما ظن السوء هذا الذي ظنَّه أهل النفاق؟

ج: هو ظنهم بأن رسول الله ﷺ وأصحابه لن ينتصروا ولن يغلبوا بل سيبادوا عن آخرهم وستنطفأ كلمة المسلمين ويخبو نورهم.

❀ ❀ ❀

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - بل ظننتم يا أهل النفاق يا من تخلفتم عن عمدٍ وعن قصدٍ عن رسول الله ﷺ ظننتم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أهل الإيمان سيهلكو ويُبادو عن آخرهم ولن يرجعوا إلى أهاليهم أبدًا، وقوي هذا الظن في قلوبكم وحسن في نفوسكم، وكان ظنًّا سيئًا تمادى بكم فكنتم بسببه من الهلكى التالفين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء الأعراب المعتذرين إلى رسول الله ﷺ عند منصرفه من سفره إليهم بقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ ما تخلفتم خلاف رسول الله ﷺ حين شخص عنكم، وقعدتم عن صحبته من أجل شغلكم بأموالكم وأهليكم، بل تخلفتم بعده في منازلكم، ظنًّا منكم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه سيهلكون، فلا يرجعون إليكم أبدًا باستئصال العدو إياهم وزين ذلك في قلوبكم، وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم، وصححه عندكم حتى حسن عندكم التخلف عنه، فقعدتم عن صحبته ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يقول: وظننتم أن الله لن ينصر محمدًا ﷺ وأصحابه المؤمنين على أعدائهم، وأن العدو سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ يقول: وكنتم قومًا هلكى لا يصلحون لشيء من خير. وقيل: إن البور في لغة أذرعات: الفاسد؛ فأما عند العرب فإنه لا شيء. ومنه قول أبي الدرداء: فأصبح ما جمعوا بورًا أي ذاهبًا قد صار باطلًا لا شيء منه؛ ومنه قول حسان بن ثابت:

لا ينفع الطول من نوك القلوب وقد ... يهدي الإله سبيل المعشر البور

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ومن لم يؤمن بالله عزَّ وجلَّ على الوجه اللائق بذلك من وحدانيته لا شريك له، ولا صاحبة له ولا ولد ولا مثيل، وكذا يؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته العلى تلك التي سمى بها نفسه وسماه بها رسوله ﷺ، وكذا من لم يؤمن برسول الله محمد ﷺ وأنه رسول من عند الله يبلِّغ عن الله عزَّ وجلَّ مراده إلى خلقه، فإنا أعددنا وهيأنا له نارًا مستعرةً موقدة يصلاها، وإن أظهر في الدنيا أنه مؤمن، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين من الأعراب، ومن لم يؤمن أيها الأعراب بالله ورسوله منكم ومن غيركم، فيصدقه على ما أخبر به، ويقر بما جاء به من الحق من عند ربه، فإنا أعددنا لهم جميعًا سعيرًا من النار، تستعر عليهم في جهنم إذا وردوها يوم القيامة؛ يقال من ذلك: سعرت النار: إذا أوقدتها، فأنا أسعرها سعرًا؛ ويقال: سعرتها أيضًا إذا حركتها. وإنما قيل للمسعر مسعر؛ لأنه يحرك به النار، ومنه قولهم: إنه لمسعر حرب: يراد به موقدها ومهيجها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

ج: المعنى -والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم- ولله ملك ما في السموات وما في الأرض، وكذا ملك السموات والأرض فليس ربي بحاجة إلى خلقه، فالخلق كلهم خلقه والملك ملكه والأمر أمره يفعل ما يشاء ويقضي بما يريد، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله ذو مغفرة وذو رحمة واسعة.

وكذا تتضمن الآية معنى الإخلاص أي: من لم يخلص العمل لله في الظاهر والباطن فإنه سيصلى السعير.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يقول تعالى ذكره: ولله سلطان السموات والأرض، فلا أحد يقدر أيها المنافقون على دفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه أو منعه من عفوه عنكم إن عفا، إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم، وهذا من الله جل ثناؤه حثٌّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة والمراجعة إلى أمر الله في طاعة رسوله ﷺ، يقول لهم: بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله ﷺ، فإن الله يغفر للتائبين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ يقول: ولم يزل الله ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها.

س: من المخلفون الذي عناهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾؟

ج: المخلفون هنا هم الذين تخلفوا عن عمد وعن قصدٍ عن رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا إلى الحديبية، يريدون بيت الله الحرام للعمرة.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بـ«المغانم» المذكورة في الآية الكريمة؟

ج: قال كثيرون من أهل العلم: إنها غنائم خيبر، وقد اختصَّ الله عزَّ وجلَّ لها أهل الحديبية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- يريدون أن يغيروا حكم الله الذي حكم به ووعد الله الذي وعد به أهل الإيمان من أهل الحديبية، فقد وعد أهل الحديبية مغانم يأخذونها، وكانت مغانم خيبر خاصة لهم، لا يشركهم فيها غيرهم، فطلب أهل النفاق أن يتبعوا رسول الله ﷺ في مسيره إلى خيبر حتى يشاركوه الغنيمة ولم يكن الله أباح لهم ذلك، فهذا قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سيقول يا محمد المخلفون في أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ﴾ إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضًا من غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية؛

إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الحديبية وعن الخروج معك إليها ويريدون الغنيمة السهلة اليسيرة غنيمة خيبر لن تتبعونا إلى خيبر ولن تشاركونا في غنيمتها فإن الله عزَّ وجلَّ قضى بأن غنيمة خيبر لأهل الحديبية فقط.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المخلفين عن المسير معك يا محمد: لن تتبعونا إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم لقتالهم ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول: هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا إليكم، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر؛ لأن غنيمتها لغيركم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: أن نشرككم في المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة.

س: وضح معنى قول أهل النفاق: ﴿بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أن أهل النفاق قالوا لأهل الإيمان لما رفض أهل الإيمان أن يصطحبوهم معهم لخيبر - إنكم لا تحبون الخير لنا بل تتمنون زوال النعم عنا، وتتمنون أن تستأثروا بغنيمة خيبر وحدكم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- ليس الأمر كما قال أهل النفاق لما منعتموهم الخروج معكم فقالوا لكم بل تحسدوننا، وإنما الصحيح أنهم لا يعقلون أمر الله عزَّ وجلَّ ولا يفهمون الحكمة التي من أجلها منعوا من اصطحابكم، فإنهم لا يفهمون إلا أمر الدنيا، أما أمر الدين فلا يفقهونه ولا يعقلونه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وأصحابه: ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب من أنكم إنما تمنعونهم من اتباعكم حسدًا منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنمًا، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وعليهم من أمر الدين إلا قليلًا يسيرًا، ولو عقلوا ذلك ما قالوا لرسول الله والمؤمنين به، وقد أخبروهم عن الله تعالى ذكره أنه حرمهم غنائم خيبر، إنما تمنعوننا من صحبتكم إليها؛ لأنكم تحسدوننا.

❁ ❁ ❁

س: من هؤلاء القوم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم فارس.

الثاني: أنهم فارس والروم.

الثالث: أنهم أهل هوازن، الذين حاربوا المؤمنين يوم حنين.

الرابع: هوازن وثقيف.

الخامس: بنو حنيفة (قوم مسيلمة الكذاب).

السادس: أن هذه الآية لم تأت بعد.

السابع: أنهم التُّرك، واستدل له بقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صغار العيون.. كأن وجوههم المجان المطرقة»**[1].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المخلفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال، ونجدة في الحروب، ولم يوضح لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعني بذلك هوازن، ولا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم، ولا أعيان بأعيانهم، وجائز أن يكون عني بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عني بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح من أن يقال كما قال الله جل ثناؤه: إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: ستدعون يا من تخلفتم عن القتال مع رسول الله ﷺ، يا أيها الأعراب إلى قوم أقوياء في الحروب لقتالهم أو يعلنوا عن إسلامهم بدون قتال منكم لهم.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- فإن تطيعوا أيها الأعراب رسولكم ﷺ إذا دعاكم لقتال هؤلاء القوم الأشداء، يؤتكم الله أجرًا حسنًا وهو الجنة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ يقول تعالى ذكره، فإن تطيعوا الله في إجابتكم إياه إذا دعاكم إلى قتال هؤلاء القوم الأولي البأس الشديد، فتجيبوا إلى

---

(١) انظر البخاري (٢٩٢٩)، ومسلم (٢٩١٢).

قتالهم والجهاد مع المؤمنين ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ﴾ يقول: يعطكم الله على إجابتكم إياه إلى حربهم الجنة، وهي الأجر الحسن.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: وإن تتخلفوا يا معشر الأعراب يا من تخلفتم عن رسول الله ﷺ؛ إذ خرج من مكة يعذبكم عذابًا أليمًا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يقول: وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته وتخالفوا أمره، فتتركوا قتال الأولي البأس الشديد إذا دعيتم إلى قتالهم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يقول: كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسول الله ﷺ إلى مكة، من قبل أن تدعوا إلى قتال أولي البأس الشديد ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ يعني: وجيعًا، وذلك عذاب النار على عصيانكم إياه، وترككم جهادهم وقتالهم مع المؤمنين.

❁ ❁ ❁

س: في الآية الكريمة فتح باب للاستدراك، وضح ذلك.

ج: ذلك -والله أعلم- أن هؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فتح لهم باب الجهاد مرة أخرى، فإن كنتم صادقين يا معشر من تخلف عن رسول الله ﷺ في أعذاركم التي اعتذرتم بها عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، فها أنتم هؤلاء ستدعون إلى الجهاد مرة أخرى جهاد قوم أولي بأس شديد، فانظروا في أمركم إن أطعتم آتاكم الله أجرًا حسنًا، وإن أعرضتم كما أعرضتم مِن قبل عذَّبكم الله عذابًا أليمًا.

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾؟

ج: لا أعلم لها سبب نزول صحيح، والله أعلم.

بيان الحرج المرفوع عن الأعمى والمريض والأعرج

❁ ❁ ❁

س: ما الشيء الذي إذا فعله الأعمى والأعرج والمريض لم يكن عليه فيه حرج؟

ج: المراد هاهنا -والله أعلم- تخلفهم عن القتال مع رسول الله ﷺ ومع أهل الإيمان، وذلك لكون هذه الأعذار (العمى، والعَرَج والمرض تعوقهم عن القتال والحركة والكرِّ والفرِّ والإقبال والإدبار).

هذا، ومن أهل العلم من ذكر في مثل هذا الموطن من آية سورة النور أن الحرج المرفوع عن الأعمى هو ما يتعلق بالعمى، والحرج المرفوع عن الأعرج إنما هو فيما يتعلق بالعرج، والحرج المرفوع عن المريض إنما هو فيما يتعلق بالمرض.

فمثلًا: التكاليف الشرعية التي تحتاج إلى الإبصار، وكذا الأخطار التي قد تصدر من الأعمى نتيجة عدم الإبصار كأن يصطدم بشيء أو يضع يده في مكان ونحو ذلك، فهذا لا يؤاخذ عليه الأعمى، أما إذا صدرت من الأعمى بذاءات وشتائم، واغتياب للمسلمين والمسلمات، فإنه يؤاخذ على تلك البذاءات والاعتداءات والاغتياب، وكذا الأعرج يرفع عنه الحرج فيما يتعلق بحركة الأرجل من الصلاة قائمًا مثلًا ومن شهود المعارج ونحو ذلك لكن لا يرفع عنه الحرج إذا أطلق بصره بالنظر المحرم أو أطلق لسانه بالقول المحرم أو أطلق يده بالفعل المحرم.

وكذا المريض يرفع عنه الحرج فيما يتعلق بنوع مرضه، والله تعالى أعلم.

لكن على كل حال، ولأن السياق - سياق الآية التي نحن بصددها - متعلقٌ بلوم المتخلفين عن القتال، فإن رفع الحرج المذكور في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾ الآية، إنما هو هاهنا في التخلف عن القتال، والله تعالى أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ليس على الأعمى منكم أيها الناس ضيق، ولا على الأعرج ضيق، ولا على المريض ضيق أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين، وشهود الحرب معهم إذا هم لقوا عدوَّهم، للعلل التي بهم، والأسباب التي تمنعهم من شهودها.

❀ ❀ ❀

س: ما المراد بالطاعة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾؟

ج: الطاعة عامة، فطاعة الله ورسوله في كل أمرٍ واجتناب كل نهي يترتب عليها الأجر المذكور، والتخلف عنها يترتب عليه العذاب المذكور.

ولقائل أن يقول: إن المراد هنا طاعة مخصوصة وهي الطاعة للأمر بالقتال، وهذا بلا شك داخل في الطاعة العامة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول تعالى ذكره: ومن يطع الله ورسوله فيجيب إلى حرب أعداء الله من أهل الشرك، وإلى القتال مع المؤمنين ابتغاء وجه الله إذا دعي إلى ذلك، يدخله الله يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يقول: ومن يعص الله ورسوله، فيتخلف عن قتال أهل الشرك بالله إذا دُعي إليه، ولم يستجب لدعاء الله ورسوله يعذبه عذابًا موجعًا، وذلك عذاب جهنم يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

س: هل الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد هي المذكورة في الآية الكريمة (العمى والعرج والمرض) أم أن هناك أعذارًا أُخر؟

ج: هذه الأعذار المذكورة في الآية الكريمة هي غالب الأعذار وإلا فثمَّ أعذارٌ أُخر كعدم وجود النفقة والسلاح، وحاجة الوالدين أو أحدهما إلى ولدهما، وذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ وفي حال كون الجهاد على الكفاية وغير ذلك، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

[الفتح: ١٨-٢١]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلسَّكِينَةَ - أَثَٰبَهُمۡ - عَزِيزًا - حَكِيمًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾	الطمأنينة - الثبات - الصبر والوقار - حُسن البصيرة
﴿أَثَٰبَهُمۡ﴾	جازاهم
﴿عَزِيزًا﴾	ذو عزةٍ وذو غلبة في انتقامه
﴿حَكِيمًا﴾	حكيمًا في كل شيء يفعله وفي تدبيره وتصريفه الأمور على الوجه الذي يريد

❁ ❁ ❁

س: ما سبب هذه البيعة، بيعة الرضوان عند الحديبية؟

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى في بيان سبب ذلك:

وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول الله ﷺ كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملإ من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظن أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، وكان الذين بايعوه هذه البيعة فيما ذكر في قول بعضهم: ألفًا وأربعمائة، وفي قول بعضهم: ألفًا وخمسمائة، وفي قول بعضهم: ألفًا وثلاثمائة.

❁ ❁ ❁

س: ما الحديبية هذه؟

ج: الحديبية في الأصل بئر ثم نُسب إليه المكان، ففي الصحيح من حديث البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية: كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها ثم

دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا[١].

❀ ❀ ❀

س: اذكر بعض الوارد في فضل من بايعوا تحت الشجرة عند الحديبية.

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»[٢].

وما أخرجه مسلم من حديث أم مبشر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحدٌ الذين بايعوا تحتها»[٣].

وعند مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن عبدًا لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله: ليدخلن حاطبٌ النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدرًا والحديبية»[٤].

❀ ❀ ❀

س: كم كان عدد الصحابة الذين شهدوا الحديبية؟

ج: أكثر الأقوال على أنهم كانوا ألفًا وأربعمائة. وهنالك أقوال دلت على أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة وأُخرى على أنهم كانوا ألفًا وثلاثمائة، والأكثرون على الأول.

ولعل الروايات التي رويت وأفادت أنهم كانوا ألف وثلاثمائة أو ألفًا وخمسمائة كانت على التقريب، والله أعلم.

هذه، وقد وردت الروايات بأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، وبأنهم كانوا ألفًا وخمسمائة، وبأنهم كانوا ألفًا وثلاثمائة في الصحيحين[٥] وغيرهما، وورد غير ذلك أيضًا.

---

(١) البخاري (حديث ٤١٥٠).

(٢) البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (في طرق حديث ١٨٥٦).

(٣) مسلم (٢٤٩٦).

(٤) مسلم (٢٤٩٥).

(٥) انظر البخاري (٤١٥٣، ٤١٥٤، ٤١٥٥، ٤١٥٠، ٤١٥١، ٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٦)، (١٨٥٧)، (١٨٥٩).

والأظهر أنهم كانوا في هذه الحيز ما بين ألفٍ وثلاثمائة إلى ألفٍ وخمسمائة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: على أي شيء بايع الصحابة رضي الله عنهم نبيهم محمدًا ﷺ؟

ج: ورد في الصحيح ما يفيد أن بعض الصحابة بايع على عدم الفرار، وبعضهم بايع على الموت.

فعند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: لم نبايع رسول الله ﷺ على الموت إنما بايعناه على أن لا نفر[1].

وعند البخاري[2] من طريق يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت.

والجمع ممكن بأن يُقال: إن بعضهم بايع على الموت وبعضهم بايع على عدم الفرار، ولا يفهم من كونهم بايعوا على الموت أنهم لا بد وأن يموتوا، إنما المفهوم الصبر على القتال وعدم الفرار وإن أدى ذلك إلى الموت، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: هل هذه الشجرة موجودة لا زالت؟

ج: الظاهر، والله تعالى أعلم، أن معالم هذه الشجرة قد أُزيلت واختفت منذ زمن الصحابة ولم يقفوا لها على أثرٍ. وهذا، والله أعلم، فيه رحمة من الله عزَّ وجلَّ بعباده حتى لا يُغالي في الشجرة أحدٌ ولا يقع في الشرك والبدع والخرافات بسببها أحدٌ.

أخرج البخاري[3] بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله.

وأخرج البخاري[4] كذلك من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لقد رأيت

---

(١) مسلم في طرق حديث (١٨٥٦).

(٢) البخاري (٤١٦٩).

(٣) البخاري (٢٩٥٨).

(٤) البخاري (٤١٦٢).

الشجرة ثم أُنسيتها بعد فلم أعرفها.

وأخرج البخاري[١] من طريق طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًّا فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان؛ فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيدٌ: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها. فقال سعيد: إن أصحاب محمدٍ ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم؟ فأنتم أعلم!

❀ ❀ ❀

س: اذكر بعض الصحابة الكرام الذين شهدوا الحديبية مع رسول الله ﷺ وبايعوه هنالك.

ج: هم عددٌ كبير يصعب حصرهم فسبق أنهم حول الألف وأربعمائة وعلى كلٍّ فمنهم أبو بكر وعمر وعليٌّ رضي الله عنهم، أما عثمان فلم يكن هنالك، وذلك لأن النبي ﷺ كان قد أرسله إلى أهل مكة برسالة.

ومنهم البراء بن عازب وأبو جندل وزيد بن خالد وأبو قتادة وجابر وحاطب بن أبي بلتعة وثابت بن الضحاك وكعب بن عجرة وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر، وعائذ بن عمر والأحاديث بذلك في الصحيح وغيره، وثم أقوام آخرون كثير.

❀ ❀ ❀

س: هل كل من شهد الحديبية بايع رسول الله ﷺ؟

ج: ورد عند مسلم[٢] في صحيحه من طريق أبي الزبير سمع جابرًا يُسأل كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعُمر آخذٌ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرةٌ فبايعناه غير جَدِّ بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره.

---

(١) البخاري حديث (٤١٦٣).

(٢) مسلم في طرق حديث (١٨٥٦).

س: كيف الرد على الطاعنين في عثمان رضي الله عنه لكونه لم يبايع تحت الشجرة؟

ج: الرد على ذلك كامنٌ في أن عثمان رضي الله عنه إنما تخلَّف لعذرٍ، وهو ذهابه إلى مكة مُبلِّغًا عن رسول الله ﷺ أمره لأهل مكة.

أخرج البخاري[1] بسنده إلى عثمان بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قومًا جلوسًا، فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه هل تعلم أن عثمان فرَّ يوم أحد؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم. قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان». فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان». فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

❁ ❁ ❁

س: متى كانت قصة الحديبية؟

ج: كانت - على رأي الجمهور - سنة ستٍّ من الهجرة في شهر ذي القعدة.

ودلَّ على أنها كانت في ذي القعدة ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمر كلهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته عمرة من الحديبية في ذي القعدة وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته»[2].

---

(١) البخاري (٣٦٩٨).

(٢) البخاري (٤١٤٨)، ومسلم (١٢٥٣).

أما كونها كانت في سنة ستٍّ فهذا رأي كثيرين من أهل العلم كما نقله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1] إذ قال: قال نافع: كانت سنة ستٍ في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

❁ ❁ ❁

بعض الوارد في صلح الحديبية

س: اذكر شيئًا من الوارد في صلح الحديبية؟

ج: من ذلك ما أخرجه البخاري[2] من طريق الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرًا لقريش وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس حل حل فألحت فقالوا خلأت القصواء فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت قال فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله مازال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٣٥) فصل في قصة الحديبية.

(٢) البخاري (٢٧٣١)، (٢٧٣٢).

شاؤوا أمدتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمعوا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره». فقال بديل: سأبلغهم ما تقول: فانطلق حتى أتى قريشًا قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولًا فإن شئتم نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم: لا حاجة بنا أن تخبرنا عنه بشيء وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته قال: سمعته يقول: كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي ﷺ فقال عروة بن مسعود: أي قوم ألستم بالولد؟ قالوا: بلى قال: أو لست بالوالد؟ قالوا: بلى قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آتيه قالوا: ائته فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهًا وإني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ فقالوا المغيرة بن شعبة فقال: أي غدر ألست أسعى في غدرتك وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعنيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم والله لقد وفدت على

الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده فإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: **«هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»**. فبعثت له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له: مكرز ابن حفص فقال: دعوني آتيه فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: **«هذا مكرز وهو رجل فاجر»**. فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: **«لقد سهل لكم من أمركم»**. قال معمر قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينكم كتابًا فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال النبي ﷺ: **«اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»**. فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنا نكتب فقال المسلمون: والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ: **«اكتب باسمك اللهم»**. ثم قال: **«هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»**. فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ: **«والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله»**. قال الزهري وذلك لقوله: **«لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»**. فقال النبي ﷺ: **«على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»**. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد

خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**». قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدًا قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**». قال: ما أنا بمجيزه لك قال: «**بلى فافعل**». قال ما أنا بفاعل قال مكرز: بل قد أجزناه لك قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله قال: عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: «**بلى**». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**». قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**». قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام**». قال: قلت: لا قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا قال: بلى قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق؟ قلت: أليس كان يحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنك آتيه العام؟ قلت: لا قال: فإنك آتيه ومطوف به قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**». قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ - حتى بلغ - ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما: معاوية بن أبي سفيان، والأخرى: صفوان بن أمية ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه

رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ: «**لقد رأى هذا الرجل ذعرًا**». فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم قال النبي ﷺ: «**ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد**». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل فمن آتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ - حتى بلغ - ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾. وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت.

وفي الصحيح[1] **من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال:** كتب علي بن أبي طالب الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا تكتب رسول الله فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، فقال النبي ﷺ لعلي: «**امحه**»، فقال: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه النبي ﷺ بيده. قال: وكان فيما اشترطوا، أن يدخلوا مكة فيقيموا بها ثلاثًا. ولا يدخلها بسلاح، إلا جلبان السلاح قلت لأبي إسحاق: وما جلبان السلاح؟ قال: القراب وما فيه.

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضًا:

عن البراء قال: لما أحصر النبي ﷺ عند البيت، صالحه أهل مكة على أن

---

(١) مسلم (١٧٨٣)، وانظر البخاري (٢٦٩٨).

يدخلها فيقيم بها ثلاثًا ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح السيف وقرابه ولا يخرج بأحد معه من أهلها. ولا يمنع أحدًا يمكث بها ممن كان معه. قال لعلي: «اكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فأمر عليًّا أن يمحاها. فقال علي: لا. والله! لا أمحاها. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها وكتب: «ابن عبد الله» فأقام بها ثلاثة أيام فلما أن كان يوم الثالث قالوا لعلي: هذا آخر يوم من شرط صاحبك. فأمره فليخرج فأخبره بذلك. فقال: «نعم» فخرج. وقال ابن جناب في روايته: (مكان تابعناك) بايعناك.

وعند مسلم[١] من حديث أنس رضي الله عنه: أن قريشًا صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل ابن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ». قال سهيل: أما باسم الله فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم، فقال: « اكتب من محمد رسول الله ». قالوا: لو علمنا أنك رسول الله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: « اكتب من محمد بن عبد الله ». فاشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا ».

وعند مسلم[٢] من طريق أبي وائل قال: قام سهل بن حنيف يوم صفين فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالًا لقاتلنا وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين فجاء عمر بن الخطاب فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: « بلى ». قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: « بلى ». قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: « يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا ». قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظًا فأتى أبا بكر

---

(١) مسلم (١٧٨٤).

(٢) مسلم (١٧٨٥).

فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم، فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا. قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال يا رسول الله: أو فتح هو؟ قال: « نعم ». فطابت نفسه ورجع.

وعند مسلم[1] أيضًا من طريق قتادة: أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح: ١-٥] مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة. وقد نحر الهدي بالحديبية. فقال: «لقد أُنزلت علي آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعًا».

❁ ❁ ❁

س: ما الذي في قلوب الصحابة المبايعين لرسول الله ﷺ المذكور في قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن ذلك يتمثل في الصدق الذي أضمروه في نفوسهم لنصرة نبيهم ﷺ وعزمهم الأكيد على نصرته وعلى الوفاء بما وعدوا به وبايعوا عليه، وعلى الصبر على نصرته صلوات الله وسلامه عليه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: فأنزل الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم الله له.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالمغانم الكثيرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾؟

---

(١) مسلم (١٧٨٦).

ج: قال بعض أهل العلم: إنها مغانم خيبر فقد غنم المسلمون غنيمة عظيمة منها.

وقال آخرون: إنها عموم المغانم التي غنمها المسلمون بعد صلح الحديبية.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يقول تعالى ذكره: وأثاب الله هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم، وإنزاله السكينة عليهم، وإثابته إياهم فتحًا قريبًا، معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر، فإن الله جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بـ(الفتح القريب) المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بذلك فتح خيبر فقد فتحها الله على المؤمنين بعد ذلك، وكانت خيبر ذات أموالٍ كثيرة وعقار.

وقد صح عن ابن أبي ليلى وقتادة القولُ بأن الفتح القريب فتح خيبر[١].

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالفتح القريب فتح مكة.

وقال آخرون: إن المراد بالفتح كل الفتوحات التي فتحت بعد هذه البيعة بيعة الرضوان، فيدخل في ذلك فتح خيبر وفتح مكة وسائر الفتوحات التي فتح الله عزَّ وجلَّ على نبيه محمد ﷺ وعلى المسلمين.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾.

❁ ❁ ❁

---

(١) الأسانيد قد صحت بذلك عند الطبري وغيره.

س: الله سبحانه وتعالى يثيب على ما في القلوب من خيرٍ ونيةٍ صالحةٍ وإيمانٍ بجميل الثواب. دلِّل على ذلك؟

ج: نعم، فإن الله سبحانه وتعالى يثيب على ما في القلوب من صالح النوايا والخير والإيمان بجميل الثواب، فها هم أصحاب رسول الله ﷺ المبايعين له يوم الحديبية قد أخبر الله سبحانه وتعالى برضاه عنهم لِما علمه في قلوبهم من الخير، إذ الله قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

فانظر إلى هذا الخير المتوالي والمتواصل والعطاء الجزيل ما سببه؟!! إنه ما قد استقر في قلوب الصحابة من الخير والإيمان.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فماذا كان؟ ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، وأيضًا: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾، وكذلك: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

وكذلك مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى يثيب على ما في القلوب قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

والأدلة في هذا الباب كثيرة جدًّا، وقد تقدمت في غير هذا الموطن.

❀ ❀ ❀

بعض المستفاد من صلح الحديبية

س: اذكر بعض الفوائد الفقهية المستنبطة من قصة الحديبية؟

ج: ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في «زاد المعاد» كمًّا كبيرًا من هذه الفوائد والحكم المستفادة منها، فقال[1]:

فصل

في بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية

فمنها: اعتمار النبي ﷺ في أشهر الحج، فإنه خرج إليها في ذي القعدة.

ومنها: أن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضلُ، كما أن الإحرام بالحج كذلك.

---

(١) زاد المعاد (جـ٣/ ٢٤٦-٢٦٠).

فإنه أحرم بهما من ذي الحُليفة، وبينها وبين المدينة ميلٌ أو نحوه، وأما حديث: «من أحرم بعمرة من بيت المقدس، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، وفي لفظ: «كانت كفارة لما قبلها من الذنوب»[١]، فحديث لا يثبت، وقد اضطرب فيه إسنادًا ومتنًا اضطرابًا شديدًا.

ومنها: أن سَوْقَ الهدي مسنونٌ في العمرة المفرَدَة، كما هو مسنون في القران.

ومنها: أن إشعَارَ الهدي سُنَّة لا مُثلَةٌ منهي عنها.

ومنها: استحباب مغايظة أعداء الله، فإن النبي ﷺ أهدى في جملة هديه جملًا لأبي جهل في أنفه برَةٌ من فضةٍ يَغيظ به المشركين، وقد قال تعالى في صفة النبي ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ومنها: أن أميرَ الجيش ينبغي له أن يبعثَ العيونَ أمامه نحوَ العدو.

ومنها: أن الاستعَانَة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزةٌ عند الحاجة؛ لأن عينه الخزاعي كَانَ كافرًا إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو، وأخذه أخبارهم.

ومنها: استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه، استخراجًا لوجه الرأي، واستطابةً لنفوسهم، وأمنًا لعَتبهم، وتعرفًا لمصلحةٍ يختصّ بعلمها بعضهم دونَ بعض، وامتثالًا لأمر الرب في قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد مَدَحَ سبحانه وتعالى عباده بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

ومنها: جواز سبي زراري المشركينَ إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: ردُّ الكَلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلَفٍ، فإنهم لما قالوا: خلأت

(١) ضعيف، ومختلف في سنده، أخرجه أبو داود (١٧٤١).

القَصواء، - يعنِي: حَرَنَت وألحت-، فلَم تَسر، والخِلاء في الإبل - بكسر الخاء والمد-، نظير الحران في الخيل، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خلقهَا وطبعها، رده عليهم، وقال: «ما خَلأَت ومَا ذَاكَ لَهَا بخُلق»، ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها، وأن الذي حَبَسَ الفيلَ عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها، وما جرى بعده.

ومنها: أن تسمية ما يلابسه الرجل من مراكبه ونحوها سُنَّة.

ومنها: جواز الحَلف، بل استحبابه على الخبر الدينِي الذي يريد تأكيده، وقد حُفِظَ عن النبِي ﷺ الحلف في أكثر من ثَمَانينَ موضعًا، وأمره الله تعالى بالحَلف على تصديق ما أخبر به في ثلاثة مواضعَ: في سورة «يونس»، و «سبأ»، و «التغابن».

ومنها: أن المشركين، وأهلَ البدَع والفجور، والبغاة والظلَمة، إذا طَلَبوا أمرًا يعَظمونَ فيه حرمةً من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه وأعطوه، وأُعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كُفرهم وبَغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكلّ من التمس المعاونةَ على محبوب لله تعالى مُرْضٍ له، أُجيبَ إلى ذلك كائنًا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ لله أعظم منه.

وهذا من أدق المواضع وأصعبهَا، وأشقهَا على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق، وقال عمر ما قال، حتى عَملَ له أعمالًا بعده، والصديق تلقاه بالرضا والتسليم، حتى كان قلبه فيه على قلب رسول الله ﷺ، وأجاب عمرُ عما سُئِلَ عنه من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ، وذلك يدل على أن الصديق رضي الله عنه أفضل الصحابة وأكملهم، وأعرفهم بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأعلمهم بدينه، وأقومهم بمحابّه، وأشدّهم موافقةً له، ولذلك لم يسأل عمر عما عَرَضَ له إلا رسولَ الله ﷺ وصديقَه خاصة دونَ سائر أصحابه.

ومنها: أن النبِي ﷺ عَدَلَ ذاتَ اليمين إلى الحديبية. قال الشافعي: بعضهَا من الحلّ، وبعضها من الحَرَم.

وروى الإمام أحمد في هذه القصة أن النبِي ﷺ كان يصلي في الحرم، وهو

مضطرب في الحلّ[١] . وفي هذا كالدّلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يختصّ بها المسجد الذي هو مكان الطواف، وأن قوله: «صَلاةٌ فِي المَسجد الحَرَام أَفضَل من مائة صَلاةٍ فِي مَسجدي»[٢] ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[التوبة: ٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[الإسراء: ١] ، وكان الإسراء من بيت أم هانئ.

ومنها: أن من نزل قريبًا من مكة، فإنه ينبغي له أن ينْزل في الحلّ، ويصلي في الحَرم، وكذلك كان ابن عمر يصنع.

ومنها: جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العَدو إذا رأى المصلحةَ للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلكَ على أن يكون ابتداء الطلب منهم.

وفي قيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، ولم يكن عادته أن يقام على رأسه، وهو قاعد، سنةٌ يقتدى بِها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا من هذا النوع الذي ذمه النبي ﷺ بقوله: «مَن أَحَب أَن يَتَمَثلَ لَه الرجَال قيَامًا؛ فَليَتبَوأ مَقعَدَه من النار»[٣] ، كما أن الفخرَ والخيَلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره، وفي بعث البُدن في وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار.

وفي قول النبي ﷺ للمغيرة: «أما الإسلامَ فَأقبَل، وَأَما المَال فَلَست منه في شيء»، دليل على أن مال المشرك المعاهدَ معصوم، وأنه لا يملك، بل يرد عليه، فإن المغيرةَ كان قد صحبهم على الأمان، ثم غدر بهم، وأخذ أموالهم، فلم يتعرض النبي ﷺ لأموالهم، ولا ذبّ عنها، ولا ضمنها لهم؛ لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

وفي قول الصديق لعروة: امصص بَظرَ اللات، دليلٌ على جواز التصريح باسم

---

(١) صحيح أخرجه أحمد (٤/ ٣٢٥).

(٢) صحيح أخرجه ابن حبان (١٦٢٠).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٦)، وأحمد (٤/ ٩١).

العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي ﷺ أن يصرح لمن ادعى دعوى الجاهلية بِهَنِ أبيه، ويقال له: اعضض أير أبيك، ولا يكنى له، فلكل مقام مقال.

ومنها: احتمال قلة أدب رسول الكفار، وجهله وجفوته، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة، ولم يقابل النبيُّ ﷺ عروةَ على أخذه بلحيته وقت خطابه، وإن كانت تلك عادَة العرب، لكن الوقارَ والتعظيمَ خلاف ذلك.

وكذلك لم يقابل رسول الله ﷺ رَسولي مسيلمةَ حين قالا: نشهد أنه رسول الله وقال: «لَولا أن الرّسلَ لا تُقتَل لَقَتَلتكمَا»[1].

ومنها: طهارة النّخَامَة، سواءٌ كانت من رأسٍ أو صدر.

ومنها: طهارة الماء المستعمل.

ومنها: استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطيرَة المَكروهَة؛ لقوله لما جاء سهيل: «سَهلَ أَمركم».

ومنها: أن المشهودَ عليه إذا عرفَ باسمه واسم أبيه، أغنى ذلك عن ذكر الجَد؛ لأن النبي ﷺ لم يزد على محمد بن عبد الله، وقَنعَ من سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة، واشتراط ذكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العَداء بن خالد منه ﷺ الغلامَ فكتب له: «هذا مَا اشتَرَى العَداء بن خَالد بن هَوذَة»[2]. فذكر جده، فهو زيادة بيان تَدلّ على أنه جائز لا بأس به، ولا تَدلّ على اشتراطه، ولما لم يكن في الشهرة بحيث يكتفى باسمه واسم أبيه ذكر جده، فيشترط ذكر الجد عند الاشتراك في الاسم واسم الأب، وعند عدم الاشتراك، اكتفي بذكر الاسم واسم الأب والله أعلم.

ومنها: أن مصالحةَ المشركين ببعض ما فيه ضَيمٌ على المسلمينَ جائزةٌ للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما.

ومنها: أن من حَلَفَ على فعل شيء، أو نَذَره، أو وَعَدَ غيرَه به ولم يعين وقتًا، لا

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٢٧٦١)، وأحمد (٤/ ٤٨٧)، والحاكم (٢٦٣٢) (٤٣٧٧) من طريقين عن ابن إسحاق عن سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه مرفوعًا به.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (١٢١٦)، وابن ماجه (٢٢٥١)، وغيرهما.

بلفظه، ولا بنيته، لم يكن على الفور، بل على التراخي.

ومنها: أن الحلاقَ نسكٌ، وأنه أفضل من التقصير، وأنه نسكٌ في العمرة، كما هو نسكٌ في الحج، وأنه نسكٌ في عمرة المحصور، كما هو نسك في عمرة غيره.

ومنها: أن المحصَرَ ينحر هديَه حيث أُحصرَ من الحلّ أو الحرَم؛ وأنه لا يجب عليه أن يواعدَ من ينحره في الحرم إذا لم يَصل إليه، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضعَ الذي نحر فيه الهدي، كان من الحل لا من الحرم؛ لأن الحَرَمَ كله محل الهدي.

ومنها: أن المحصَرَ لا يجب عليه القضاء؛ لأنه ﷺ أمرَهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحدًا منهم بالقضاء، والعمرَة من العام القابل لم تكن واجبةً، ولا قضاءً عن عمرة الإحصار، فإنهم كانوا في عمرة الإحصار ألفًا وأربعمائة، وكانوا في عمرة القضيةَ دون ذلك، وإنما سُمِّيت عمرةَ القضية والقضاء؛ لأنها العمرة التِي قاضاهم عليها، فأُضيفت العمرة إلى مصدر فعله.

ومنها: أن الأمر المطلقَ على الفور وإلا لم يَغضَب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بأنهم كانوا يَرجون النسخ، فأخَّروا متأولين لذلك، وهذا الاعتذار أولى أن يعتذر عنه، وهو باطل، فإنه ﷺ لو فَهِمَ منهم ذلك، لم يشتَد غضبه لتأخير أمره، ويقول: «مَا لي لا أَغضَب، وأَنَا آمر بالأَمر فلا أتبع»، وإنما كان تأخيرهم من السعي المغفور لا المشكور، وقد رضي الله عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنة.

ومنها: أن الأصل مشارَكَة أمته له في الأحكام، إلا ما خصه الدليل، ولذلك قالت أمّ سلمة: «اخرج ولا تكلم أحدًا حتى تَحلقَ رأسك وتنحر هديك»، وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداءً بفعله، ولم يمتثلوه حين أمرهم به؟! قيل: هذا هو السبب الذي لأجله ظن من ظن أنهم أخروا الامتثال طمعًا في النسخ، فلما فعلَ النبيّ ﷺ ذلك، عَلموا حينئذٍ أنه حكم مستَقرٌّ غير منسوخ، وقد تقدم فساد هذا

الظن، ولكن لما تغيظَ عليهم، وخرج ولم يكلمهم، وأراهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم، وأن اتباعهم له وطاعتَهم توجب اقتداءهم به، بادروا حينئذٍ إلى الاقتداء به وامتثال أمره.

ومنها: جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم إلى المسلمين، وألا يرد مَن ذهب من المسلمين إليهم، هذا في غير النساء، وأما النساء، فلا يجوز اشتراط رَدهن إلى الكفار، وهذا موضع النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيلَ إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب.

ومنها: أن خروجَ البضع من ملك الزوج متقوم، ولذلك أوجبَ الله سبحانه رد المهر على من هاجرت امرأته، وحيل بينَه وبينها، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم رد مهور من هاجر إليهم من أزواجهم وأخبر أن ذلك حكمه الذي حكم به بينهم، ثم لم ينسخه شيءٌ، وفي إيجابه رد ما أعطى الأزواج من ذلك دليلٌ على تقوّمه بالمسمى، لا بمهر المثل.

ومنها: أن رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلمًا إلى غير بلد الإمام، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام، لا يجب عليه ردّه بدون الطلب، فإن النبي ﷺ لم يرد أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لما جاؤوا في طلبه، مكنهم من أخذه ولم يكرهه على الرجوع.

ومنها: أن المعاهدين إذا تسلموه وتمكنوا منه فقتل أحدًا منهم لم يضمنه بديةٍ ولا قَوَدٍ، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه في ذلك حكمَ قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم، فإن أبا بصيرٍ قتل أحد الرجلين المعاهدَين بذي الحُلَيْفَة، وهي من حكم المدينة، ولكن كان قد تسلمَّوه، وفُصِلَ عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهدينَ إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم، وغنمَت أموالهم، ولم يَتَحَيزوا إلى الإمام، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم، ومنعهم منهم، وسواءٌ دخلوا في عَقد الإمام، وعهده، ودينه، أو لم يدخلوا، والعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين، لم يكن عهدًا بين أبي بصير وأصحابه وبينهم. وعلى هذا فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم

عهد، جاز لملك آخر من ملوك المسلمين أن يَغزوَهم، ويغنمَ أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفتى به شيخ الإسلام في نصارى مَلَطيَةَ وسبيهم، مستدلًّا بقصة أبِي بصير مع المشركين.

فصل: في الإشارة إلى بعض الحِكم التِي تضمنتها هذه الهدنة

وهي أكبر وأجَلّ من أن يحيط بِها إلا الله الذي أحكم أسبابَها فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده.

فمنها: أنَّها كانت مقَدمةً بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسولَه وجندَه، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومؤذنًا بين يديه. وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام. التِي يقضيها قدرًا وشرعًا، أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات، تُؤذِنُ بها، وتدلّ عليها.

ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناسَ أمِنَ بعضهم بعضًا، واختلطَ المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرةً آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل. ولهذا سماه الله ﴿فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاءً عظيمًا، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية.

وحقيقة الأمر: أن الفتح، في اللغة: فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مغلقًا حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صدّ رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا وهضمًا للمسلمين، وفي الباطن عزًّا وفتحًا ونصرًا، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءَه من الفتح العظيم، والعزِّ، والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط، التِي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[البقرة: ٢١٦].

وَربما كَانَ مَكروه النّفوس إلى ... محبوبِهَا سَببًا مَا مثله سَبَب

فكان يَدخل على تلك الشروط دخولَ واثق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقبَة له،

وأن تلك الشروطَ واحتمالها هو عَيْنُ النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون، ونصبوه لحربهم، وهم لا يشعرون، فذلّوا من حيث طلبوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعز رسول الله ﷺ وعساكِرُ الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضيم له وفيه، فدار الدور وانعكس الأمر، وانقلب العزّ بالباطل ذلًّا بحقٍّ، وانقلبت الكَسرة لله عزًّا بالله، وظهرت حكمة الله وآياته، وتصديق وعده، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سببه - سبحانه - للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان، والانقياد على ما أحبّوا وكرهوا. وما حصل لهم في ذلك من الرضا بقضاء الله، وتصديق موعوده، وانتظار ما وُعِدُوا به، وشهود مِنَّة الله ونعمَته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم، أحوج ما كانوا إليها في تلك الحال التي تَزَعزَع لها الجبال، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم، وقويت به نفوسهم، وازدادوا به إيمانًا.

ومنها: أنه - سبحانه - جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سببًا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولإتمام نَعمته عليه، ولهدايته الصراطَ المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به مع ما فيه من الضيم، وإعطاء ما سألوه، كان من الأسباب التي نال بِها الرسول وأصحابه ذلك، ولهذا ذكره الله سبحانه جَزَاءً وغاية، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى، وفتحه.

وتأمل كيف وصفَ - سبحانه - النصرَ بأنه عزيزٌ في هذا الموطن، ثم ذكر إنزالَ السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوب، وقَلَقَت أشد القلق، فهي أحوج ما كانت إلى السكينة، فازدادوا بِها إيمانًا إلى إيمانهم، ثم ذكر سبحانه بيعَتهم لرسوله، وأكدها بكونها بيعةً له سبحانه، وأن يَده تعالى كانت فوقَ أيديهم إذ كانت يد رسول الله ﷺ كذلك، وهو رسوله ونبيّه، فالعقد معه عقدٌ مع مرسله، وبيعته بيعته، فمن بايعه، فكأنما بايع الله، ويد الله فوقَ يده، وإذا كان الحجر الأسود يمينَ الله في الأرض[1]، فمن صافحه وقبله، فكأنما صافح الله، وقبل يمينه،

---

(١) الحديث الوارد في هذا موضوع وانظره في العلل المتناهية لابن الجوزي (٢/ ٥٧٥ ح ٩٤٤)، وكشف =

فيد رسول الله ﷺ أولى بهذا من الحجر الأسود، ثم أخبر أن ناكثَ هـذه البيعـة إنما يعود نكثه على نفسه، وأن للموَفي بِها أجرًا عظيمًا، فكلّ مؤمن قد بايع الله على لـسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكث وموفٍ.

ثم ذكرَ حالَ من تخلفَ عنه من الأعراب، وظنهم أسـوأ الظـن بـالله، أنـه يخـذل رسولَه وأولياءه، وجندَه، ويظفر بهم عدوهم، فلـن ينقلبـوا إلى أهلـيهم وذلـك مـن جهلهم بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هوَ أهـل أن يعاملَـه به ربّه ومولاه.

ثم أخبر سبحانه عن رضـاه عـن المـؤمنين بـدخولهم تحـت البيعـة لرسـوله، وأنـه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذٍ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد، والطاعة، وإيثـار الله ورسوله على ما سواه، فأنزل الله السكينةَ والطّمَأنينة، والرضـا في قلـوبهم، وأثـابهم على الرضا بحكمه، والصبر لأمره فتحًـا قريبًـا، ومغـانمَ كثـيرة يأخـذونها، وكـان أول الفتح والمغانم فتحَ خَيبَرَ، ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر.

ووعدهم سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عجل لهم هـذه الغنيمـة، وفيها قولان:

أحدهما: أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم.

والثاني: أنّها فتح خيبر وغنائمها.

ثم قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، فقيل: أيدي أهل مكة أن يقـاتلوهم، وقيل: أيدي اليهود حين همّوا بأن يغتالوا مَن بالمدينة بعد خـروج رسـول الله ﷺ بمـن معه من الصحابة منها. وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسَـد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هذه الفعلة التِي فعلها بكم، وهي كفّ أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنهم حينئذٍ كان أهل مكة ومن حولها، وأهـل خيـبر ومَـن حولها، وأسدٌ وغَطفَان، وجمهور قبائل العرب أعداءً لهـم، وهـم بيـنَهم كالـشامَة، فلـم

= الخفاء (١/ ٤١٧ ح ١١٠٩).

يَصلوا إليهم بسوء، فمن آيات الله سبحانه كفّ أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم، وشدة عداوتهم، وتولي حراستهم، وحفظهم في مشهدهم ومغيبهم.

وقيل: هي فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين، وعلامة على ما بعدها من الفتوح، فإن الله سبحانه وعدهم مغانم كثيرة، وفتوحًا عظيمة، فعجل لهم فتحَ خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاءً لصبرهم ورضاهم يومَ الحديبية وشكرانًا، ولهذا خص بها وبغنائمها مَن شهد الحديبية، ثم قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، فجمع لهم إلى النصر والظفَر والغنائم الهدايةَ، فجعلهم مهديين منصورين غانمين، ثم وعدهم مغانمَ كثيرة وفتوحًا أخرى، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هي مكة، وقيل: هي فارس والروم، وقيل: الفتوح التِي بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءَه، لولى الكفار الأدبارَ غيرَ منصورين، وأن هذه سنته في عباده قبلَهم، ولا تبديلَ لسُنته.

فإن قيل: فقد قاتلوهم يوم أُحد، وانتصروا عليهم، ولم يولّوا الأدبار.

قيل: هذا وعد معلق بشرط مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يومَ أُحد بفَشَلهم المنافي للصبر، وتنازعهم، وعصيانهم المنافي للتقوى، فصرفهم عن عدوهم، ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه.

ثم ذكر سبحانه؛ أنه هو الذي كفَّ أيدي بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم، لما لَه في ذلك من الحكم البالغة التِي منها: أنه كان فيهم رجالٌ ونساء قد آمنوا، وهم يكتمون إيمانَهم، لم يعلم بهم المسلمون، فلو سلطكم عليهم؛ لأصبتم أولئك بمعرة الجيش، وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به، وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم؛ لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم، لعذّب أعداءه عذابًا أليمًا في الدنيا، إما بالقتل والأسر، وإما بغيره، ولكن دفع عنهم هذا العذابَ لوجود هؤلاء المؤمنين بَينَ أظهرهم، كما كان يدفع عنهم عذابَ الاستئصال، ورسوله بين أظهرهم.

ثم أخبر سبحانه، عما جعله الكفار في قلوبهم من حَمية الجاهلية التِي مصدرها الجهل والظّلم، التِي لأجلها صدّوا رسولَه وعبَاده عن بيته، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يقرّوا لمحمد بأنه رسول الله ﷺ مع تحققهم صدقه، وتيقنهم صحةَ رسالته بالبراهين التِي شاهدوها وسمعوا بِها في مدة عشرين سنة، وأضاف هذَا الجَعلَ إليهم وإن كان بقضائه وقدره، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التِي هي بقدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه، أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حَمية الجاهلية، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم، ثم ألزم عبادَه المؤمنين كلمة التقوى، وهي جنس يَعمّ كل كلمةٍ يتقى الله بها، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص، وقد فُسِّرَت ببسم الله الرحمن الرحيم، وهي الكلمة التِي أبت قريش أن تلتزمها، فألزمَها الله أولياءَه وحزبه، وإنما حَرَمَها أعداءَه صيانة لها عن غير كفئها، وألزمها من هو أحقّ بِها وأهلها، فوضعها في موضعها، ولم يضيعها بوضعها في غير أهلها، وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه.

ثم أخبر سبحانه، أنه صدَقَ رسولَه رؤياه في دخولهم المسجدَ آمنين، وأنه سيكون ولا بُدَّ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام، والله سبحانه عَلمَ من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والربّ تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه، فقدم بين يدي ذلك فتحًا قريبًا، توطئة له وتمهيدًا.

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض، ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبشارة لهم وتثبيتٌ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن ينجزه، فلا تظنّوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يومَ الحديبية نصرة لعدوه، ولا تخليًا عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحق، ووعده أن يظهرَه على كل دينٍ سواه؟!

ثم ذكر سبحانه، رسولَه وحزبَه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون، طالبو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هديَهم وسيرتَهم، وعدلهم وعلمهم، ورحمتَهم وزهدَهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صَحبوا المسيحَ بأفضلَ من هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرفَ بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضة تصفهم بضدِّ ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

❁ ❁ ❁

س: ما هذه المغانم الكثيرة التي قال الله عنها: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال، منها:

أنها جميع المغانم التي غنمها المسلمون بعد صلح الحديبية.

ومنها: أنها جميع المغانم التي غنمها المسلمون بعد خيبر.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالغنيمة التي عجّلها الله إذ قال: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنها غنائم خيبر.

الثاني: أنها الخير الذي حلَّ بالمسلمين في صلح الحديبية وعقب صلح الحديبية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ مع بيان المراد بالناس الذين كفَّ الله أيديهم عن أهل الإسلام.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله حفظكم وسلمكم من الشرور ومنع الناس من أن ينالونكم بسوءٍ أو مكروه.

أما المراد بالناس فمن أهل العلم من قال: هم اليهود - يهود خيبر - كف الله أيديهم ومنع الله شرورهم عن أهل المدينة لما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه منها إلى الحديبية، فكان بالإمكان أن يتسلط هؤلاء اليهود الأشرار على نساء المسلمين بالمدينة وعلى ذراري المسلمين بالمدينة فيقتلونهم أو يأسرونهم ولكن الله سلَّم وحفظ؛ وهذا قول قتادة وغيره.

ومن أهل العلم من قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ حفظكم يا أهل الإسلام ممن أرادكم بسوءٍ من أهل الشرك وذلك يوم الحديبية.

واختار الطبري رحمه الله تعالى قول قتادة في هذا المقال فقال: والذي قاله قتادة في ذلك عندي أشبه بتأويل الآية، وذلك أن كف الله أيدي المشركين من أهل مكة عن أهل الحديبية قد ذكره الله بعد هذه الآية في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، فعلم بذلك أن الكف الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ غير الكف الذي ذكر الله بعد هذه الآية في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وتكون هذه الكرامات وتلك الانتصارات والفتوحات دلالة للمؤمنين على أن الذي يحفظ هو الله والذي ينصر هو الله، والذي يستحق أن يُعبد ويوحد هو الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وليكون كفه تعالى ذكره أيديهم عن عيالهم آية وعبرة للمؤمنين به فيعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم، ويتقوا الله في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحفظ وحسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: وكف أيدي الناس عنكم وحفظكم في أنفسكم وعيالكم وليكن في ذلك دلالة على حفظ الله لكم ونصره لكم فتقدموا شكرًا لربكم فيهديكم ربكم صراطًا مستقيمًا أي: يسددكم ويوفقكم لسلوك الطريق السوي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ذلكم الطريق الذي ينتهي بكم إلى الجنة بإذن الله.

هذا، وقد أورد الطبري من طريق معمر عن قتادة قال: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وذلك آية للمؤمنين، كفُّ أيدي الناس عن عيالهم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ يقول: ويسددكم أيها المؤمنون طريقًا واضحًا، لا اعوجاج فيه، فيبينه لكم، وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم، فتتوكلوا عليه في جميعها، ليحوطكم حياطته إياكم في مسيركم إلى مكة مع رسول الله ﷺ في أنفسكم وأهليكم وأموالكم، فقد رأيتم أثر فعل الله بكم؛ إذ وثقتم في مسيركم هذا.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾.

ج: المعنى: ووعدكم الله عزَّ وجلَّ فتح بلدة أخرى وإعطائكم غنيمة أُخرى لم تقدروا أنتم الآن على تحصيلها ولكن الله عزَّ وجلَّ أحاط بها لكم ووعدكم بها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولــــه: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: وغنيمة أخرى وفتحًا آخر معينًا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله علـيكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

س: ما هذه الغنيمة الأخرى أو البلدة الأخرى التي لم يقدروا عليهـا وقـد أحـاط الله بها؟

ج: لأهل العلم أقوال في ذلك:

أحدها: أنها خيبر، وهذه قول من قال إن قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المراد بها ما كان في صلح الحديبية من خير، فعليه قالوا: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ هي خيبر.

الثاني: أنها الفتوحات التي جاءت بعد خيبر كفارس والروم.

الثالث: أن المراد فتح مكة، وهذا اختيار الطبري بعد أن نقله عن قتادة، فقال:

وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله أخبـر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، أنه محيط بقرية لم يقـدروا عليهـا، ومعقول أنه لا يقال لقوم لم يقـدروا عـلى هـذه المدينـة، إلا أن يكونـوا قـد راموهـا فتعذرت عليهم، فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان معلومًا أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبـل نـزول هـذه الآية عليه خيبر لحرب، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشًا ولا سرية، علم أن المعنـي بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ غيرها، وأنها هي التي قد عالجها وراموهـا، فتعـذرت فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر الله تعالى ذكره نبيه ﷺ والمؤمنين أنـه أحـاط بهـا وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم، وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء ذا قدرة، لا يتعذر عليه شيء شاءه.



قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

[الفتح: ٢٢-٢٦]

س: اذكر معنى ما يلي:
﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ - وَلِيّٗا - نَصِيرٗا - سُنَّةَ ٱللَّهِ - خَلَتۡ - تَبۡدِيلٗا - أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ - وَصَدُّوكُمۡ - وَٱلۡهَدۡيَ - مَعۡكُوفًا - أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ - تَطَـُٔوهُمۡ - مَّعَرَّةُۢ - تَزَيَّلُواْ - ٱلۡحَمِيَّةَ - حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ - سَكِينَتَهُۥ - وَأَلۡزَمَهُمۡ - كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾	لانصرفوا فارّين وظهورهم لكم وأعجازهم أمامكم
﴿وَلِيّٗا﴾	شخصًا يتولاهم وينصرهم
﴿نَصِيرٗا﴾	من ينصرهم عليكم
﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾	السنة هي الطريقة المسلوكة المتبعة (والمراد ما يصنعه الله
﴿خَلَتۡ﴾	مضت
﴿تَبۡدِيلٗا﴾	تغييرًا - تحويلًا
﴿أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾	مكنكم منهم -نصركم عليهم- جعل لكم الظفر والغلبة عليهم
﴿وَصَدُّوكُمۡ﴾	منعوكم
﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾	الأنعام التي تهدى لله عزَّ وجلَّ (في الحج وغيره)
﴿مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾	ممنوعًا أن يصل إلى المكان الذي يُنحر فيه، وذلك هو الحرم
﴿تَطَـُٔوهُمۡ﴾	تقتلوهم - تؤذونهم
﴿مَّعَرَّةُۢ﴾	إثمٌ - غرم الدِّية - الغرامات الناشئة عن الديات - عارٌ (تعيرون بهم فيقولون قتلوا إخوانهم)
﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾	لو انفصلوا وتميزوا
﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾	العصبية

﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾	عصبية الجاهلية
﴿سَكِينَتَهُ﴾	الصبر والإيمان والوقار
﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾	جعلهم يلتزمون بها ويتمسكون بها
﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾	الكلمة التي يتقى بها من النار وهي لا إله إلا الله

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ولو بدأت الحرب بينكم وبين أهل الكفر يا أهل الإيمان وبدأ القتال لانصرف أهل الكفر منهزمين فارين هاربين، فبعد أن كانوا يواجهونكم وجهًا لوجه انصرفوا هاربين، ظهورهم لكم بعد أن كانت وجوههم أمامكم، هربوا يبحثون عن وليٍّ يتولاهم ويحفظهم منكم أو نصيرٍ ينصرهم عليكم فلا يجدون حينئذٍ وليًّا يتولاهم ويحفظهم ويمنعهم منكم ولا نصيرًا ينصرهم عليكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أهل بيعة الرضوان: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله أيها المؤمنون بمكة ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ يقول: لانهزموا عنكم، فولوكم أعجازهم، وكذلك يفعل المنهزم من قرنه في الحرب ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ يقول: ثم لا يجد هؤلاء الكفار المنهزمون عنكم، المولوكم الأدبار، وليًّا يواليهم على حربكم، ولا نصيرًا ينصرهم عليكم؛ لأن الله تعالى ذكره معكم، ولن يغلب حزب الله ناصره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ يقول تعالى مبشرًا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارًّا مدبرًا لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أن هذا الذي يُنْزِلُهُ الله بأهل الكفر من الهزيمة ومن جعلهم يولون الأدبار وينصرفون منهزمين، هذا شأن الله في الأمم الكافرة المتقدمة كلما قاتلوا المؤمنين ولوا الأدبار وانصرفوا هاربين، وهذا أمر لا يتغير ولا يتبدل فهي عادة مطردة وشأن مستمرٌّ، يُفعل هذا دومًا بأهل الكفر ولن تجد لهذا تغييرًا ولا تبديلًا ولا تحويلًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ ﴾ يقول تعالى ذكره: لو قاتلكم هؤلاء الكفار من قريش، لخذلهم الله حتى يهزمهم عنكم خذلانه أمثالهم من أهل الكفر به، الذين قاتلوا أولياءه من الأمم الذين مضوا قبلهم. وأخرج قوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ نصبًا من غير لفظه، وذلك أن في قوله: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ معنى سننت فيهم الهزيمة والخذلان، فلذلك قيل: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ مصدرًا من معنى الكلام لا من لفظه، وقد يجوز أن تكون تفسيرًا لما قبلها من الكلام.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنَّها في خلقه تغييرًا، بل ذلك دائم للإحسان جزاءه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال.

قال الحافظ ابن كثير:

ثم قال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدِهم، وكثرة المشركين وعُدَدِهم.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ سبب نزول؟

ج: نعم، قد صح لها سبب نزول.

أخرج مسلم[1] في صحيحه من حديث أنس بن مالك، أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم، متسلحين يريدون غِرَّة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سِلْمًا، فاستحياهم، فأنزل الله عز و جل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

❋ ❋ ❋

س: ما المراد ببطن مكة؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنها مكة نفسها.

الثاني: أنها الحديبية، قالوا: لأن بعضها مضاف إلى الحرم.

❋ ❋ ❋

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ج: يذكر الله -سبحانه وتعالى- مِنَّته على المؤمنين، وكذا قدرته على الجميع فيقول سبحانه مُذكرًا أهل الإيمان لعلهم يشكرون: وهو الذي حفظكم من عدوِّكم يا أهل الإيمان وسلمكم منهم، ومنعهم من الوصول إليكم بسوء ومكروه، ومنع أيديهم من التمكن منكم وإلحاق الأذى بكم، وذلك ببطن مكة - من ناحية جبل التنعيم، فقد توجهوا للنيل منكم ولقتلكم ولكن الله سلمكم وحفظكم.

وكذا منعكم من قتلهم ومن إلحاق الأذى بهم بعد أن مكنكم الله منهم، وفي ذلك فضل من الله عليكم يا أهل الإيمان قد لا تشعرون به، فلعل قتلهم كان يحمل شرًّا أو يُفسد صلحًا نافعًا للمسلمين، وفيه أيضًا فضلٌ من الله على هؤلاء الذين كفَّ

(١) مسلم (١٨٠٨).

الله أيديكم عنهم لعلهم يتوبون أو يُسلمون.

وكل ذلك يجري ويحدث والله عزَّ وجلَّ به بصيرٌ، وبه عليمٌ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لرسوله ﷺ: والذين بايعوا بيعة الرضوان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ يعني: أن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ، بالحديبية يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى، فخلى عنهم رسول الله ﷺ، ومن عليهم ولم يقتلهم، فقال الله للمؤمنين: وهو الذي كفَّ أيدي هؤلاء المشركين عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة، من بعد أن أظفركم عليهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾: هذا امتنانٌ من الله على عباده المؤمنين حين كفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلًّا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحًا فيه خيرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أن هؤلاء أهل الشرك من أهل مكة هم الكفار حقًّا، فهم الذين منعوكم في دخول المسجد الحرام، وكذا فهاهو الهدي الذي تتقربون إلى الله عزَّ وجلَّ بنحره في البلد الحرام قد مُنع من الوصول إلى محل نحره وذبحه، فهو محبوسٌ ممنوع من الوصول إلى محل نحره وذبحه، ولم يكن هذا من عادتهم حتى في الجاهلية، لم يكن من عادة الكفار منع من أراد الحج أو العمرة، ومنع من أراد الوصول بهديه إلى الحرم كي ينحر هديه هنالك، ولكن حملتهم الأنفة والعصبية الجاهلية وحمية الجاهلية على منع المسلمين من الوصول بهديهم إلى

الحرم، وكان هذا عام الحديبية.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هؤلاء المشركون من قريش هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدوكم أيها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام، وصدوا الهدي معكوفا: يقول: محبوسًا عن أن يبلغ محله. فموضع ﴿أَن﴾ نصب لتعلقه إن شئت بمعكوف، وإن شئت بـ(صدوا). وكان بعض نحويي البصرة يقول في ذلك: وصدوا الهدي معكوفًا كراهية أن يبلغ محلّه.

وعني بقوله تعالى ذكره: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أن يبلغ محل نحره، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلّ نحره، وكان رسول الله ﷺ ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بدنة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومَنْ مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وأنتم أحقُّ به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهديُ سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة[1] قال:

قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾: أي محبوسًا ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ وأقبل نبي الله ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة، ومعهم الهدي، حتى إذا كانوا بالحديبية، صدهم المشركون، فصالحهم نبي الله ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك، ثم يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاث ليالٍ، ولا يدخلها إلا بسلاح الراكب، ولا يخرج بأحد من أهلها، فنحروا الهدي، وحلقوا، وقصروا، حتى إذا كان من العام المقبل، أقبل نبي الله ﷺ وأصحابه حتى

(١) وهذا كما هو واضح تفسيرٌ من قتادة للآية وإلا فقتادة تابعي لم يدرك رسول الله ﷺ، وخبره عن رسول الله وعن نزول الآيات داخل في المراسيل.

دخلوا مكة معتمرين في ذي القعدة، فأقام بها ثلاث ليالٍ، وكان المشركون قد فجروا عليه حين ردوه، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردوه فيه، فأنزل الله ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ولولا وجود رجال من أهل الإيمان كانوا مستضعفين، فلم يستطيعوا الخروج من مكة فبقوا في أوساط أهل الشرك، وكذا نساءٌ مؤمنات متواجدات في مكة لم يستطعن الهجرة، فإذا أذنا لكم بدخول مكة والقتال لأصبتم بخيلكم ووطأتم بأرجلكم وفرسانكم هؤلاء الرجال المؤمنين وكذا النسوة المؤمنات، فحينئذٍ أصابتكم بذلك معرةٌ، يعني: إثمٌ وذنب، وكذا دية القتل الخطأ، وذلك لكونكم قتلتم إخوانكم المؤمنين وأخواتكم المؤمنات، لولا هذا لأبحنا لكم ولأذنَّا لكم بالقتال، ولكننا -للعلة المذكورة، وهي خشية أن تقتلوا إخوانكم المؤمنين وأخواتكم المؤمنات- لم نسلطكم على أهل الكفر لتواجد إخوانكم وأخواتكم في أوساطهم، وكذا أرجأنا وأخرنا قتل هؤلاء الكفار لعل تائبًا منهم أن يتوب ومهتديًا منهم أن يهتدي وكافرًا منهم أن يسلم وإلا فلو تميَّز أهل الإيمان وانفصلوا عن أهل الكفر لأنزلنا بالذين كفروا عذابنا ولأحللنا بهم بطشتنا ولأريناهم بأسنا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ يقول تعالى ذكره: ولولا رجال من أهل الإيمان ونساء منهم أيها المؤمنون بالله أن تطئوهم بخيلكم ورجلكم لم تعلموهم بمكة، وقد حبسهم المشركون بها عنكم، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم.

وقال أيضًا:

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يقول: ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها، وحذف جواب لولا استغناء بدلالة الكلام عليه.

وقال كذلك:

وقوله: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ يقول: لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل.

قال السمعاني في تفسيره:

وقوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ أي: سبَّة، ويقال: عيب وملامة، ومعناه: أن الكفار يعيبونكم، ويقولون: إنهم يقتلون أهل دينهم. ويقال في المعرة: هي لزوم الدية عند القتل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكُنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوامًا لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: إثم وغرامة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلًا ذريعًا.

❀ ❀ ❀

س: الله سبحانه وتعالى يدفع العذاب أحيانًا على الكفار بسبب المؤمنين، وأحيانًا يصرف السوء عن مؤمن بسبب رجل كافر، وضح ذلك!

ج: إيضاحه أن الله عزَّ وجلَّ صرف العذاب عن أهل مكة ولم يسلط عليهم

المؤمنين بسبب وجود بعض أهل الإيمان في أوساطهم، وإلا فربُّنا قد قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

وفي المقابل قال رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

والخبر بذلك الأخير في البخاري وغيره[1]، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله - ﷺ - فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار». فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شديدًا، فأصابته جراحة فقيل: يا رسول الله، الذى قلت: إنه من أهل النار فإنه قد قاتل اليوم قتالًا شديدًا وقد مات. فقال النبي ﷺ: «إلى النار». قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدًا. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال «الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله». ثم أمر بلالًا، فنادى بالناس « إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ».

❀ ❀ ❀

س: لو تترس كفار بمسلمين هل يُقتل الكفار وإن أصيب المسلمون أو قتلوا أم لا؟

ج: هذه المسألة مبناها على المصلحة الأعظم، وكذا مبناها على قدر المفاسد، فإن كانت المصلحة الأعظم لعموم المسلمين تتحقق بقتل الكفار ولو تترسوا بالمسلمين، قتل الكفار، وإنْ أُصيب المسلمون أو قتلوا فالمسألة بحسبها وعلى حسب تقديرات العلماء والمسئولين عن شئون القتال لذلك، والله أعلم.

وأنقل هنا قول القرطبي وما نقله عن غيره من العلماء إذ قال:

هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أن قومًا من المشركين في حصن من حصونهم حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى في

---

(١) البخاري (٣٠٦٢).

أيديهم أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعت مالكًا وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رميه وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدًا من المسلمين فعليه الدية والكفارة فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة وذلك أنهم إذا علموا، فليس لهم أن يرموا فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلهم فإن لم يعلموا، فلهم أن يرموا وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تباعة قال ابن العربي: وقد قال جماعة إن معناه لو تزيلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال وهذا ضعيف؛ لأن من في الصلب أو في البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرة وهو سبحانه قد صرح، فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ﴾ وذلك لا ينطلق على من في بطن المرأة وصلب الرجال وإنما ينطلق على مثل: الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وأبي جندل بن سهيل وكذلك قال مالك: وقد حاصرنا مدينة الروم، فحبس عنهم الماء، فكانوا ينزلون الأسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدر أحد على رميهم بالنبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا وقد جوَّز أبو حنيفة وأصحابه و الثوري الرمي في حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم ولو تترس كفار بولد مسلم رمي المشرك وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دية فيه ولا كفارة وقال الثوري: فيه كفارة ولا دية وقال الشافعي بقولنا: وهذا ظاهر فإن التوصل إلى المباح المحظور لا يجوز سيما بروح المسلم فلا قول إلا ما قاله مالك رضي الله عنه والله أعلم.

قلت: قد يجوز الترس ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعية فمعنى كونها ضرورية أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة ومعنى كونها قطعية: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعًا.

قال علماؤنا: وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعًا فإما بأيدي العدو، فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوِّ على كل المسلمين، وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه؛ لأنه تلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالحمية الجاهلية التي تقلدها الكفار وذكر الله شأنهم إذ قال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾؟

ج: هي عصبيتهم لكفرهم وضلالهم وإبائهم وامتناعهم عن قبول الحق حمية لجاهليتهم وتعصبًا لها، وكان ذلك متمثلًا في امتناع كبيرهم سهيل بن عمرو من الإقرار بكلمة بسم الله الرحمن الرحيم، وقوله: لا ندري ما الرحمن وما ندري ما الرحيم؟ وكذا امتناعه عن الإقرار بأن محمدًا رسول الله، وكذا منعه لرسول الله ﷺ من دخول مكة عامه هذا.

وذلك على ما تقدم في الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري وغيره والذي أوردته بطوله فيما تقدم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ والمشركين: بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب فيه: محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك.

❁ ❁ ❁

س: هل لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ تعلق بما قبله؟

ج: نعم، قد ذكر بعض أهل العلم ذلك فقالوا: المعنى: لعذبنا الذين كفروا منهم عذابًا أليمًا لما جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: لما تعصب أهل الكفر لكفرهم وغضبوا وأصروا على أن لا تكتب كلمة محمد رسول الله وأصروا أيضًا على كتابة باسمك اللهم، ألزم الله عزَّ وجلَّ نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه كلمة التقوى، فجعلهم ملتزمين بها ومستمسكين بها، وهي لا إله إلا الله، وأنزل عليهم الصبر والإيمان والحلم والسكينة، فانتهى الأمر بحمد الله إلى خيرٍ، وآل الأمر إلى كل جميلٍ ومحمود.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره، فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين؛ إذ حمي الذين كفروا حمية الجاهلية، ومنعوهم من الطواف بالبيت، وأبوا أن يكتبوا في الكتاب بينه وبينهم بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يقال: ألزمهم قول لا إله إلا الله التي يتقون بها النار، وأليم العذاب.

س: ما المراد بكلمة التقوى؟

ج: هي الكلمة التي تُتقى بها النار، ويُتقى بها العذاب، وهي كلمة لا إله إلا الله.

وقال بعض أهل العلم: إنها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقال آخرون: إنها لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقال غيرهم: إنها لا إله إلا الله، والله أكبر.

وقيل غير ذلك، فمنهم من قال: بسم الله الرحمن الرحيم، ومنهم من قال: إنها الإخلاص، وكل هذا صحيح، وبينه تلازمٌ، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أن الله عزَّ وجلَّ أنزل السكينة، وهي الصبر والوقار والإيمان على المؤمنين وجعلهم أشد تمسكًا والتزامًا بكلمة التقوى من غيرهم، وكانوا أهلًا للتمسك بكلمة التقوى وأهلًا لكل خيرٍ، وأهلًا لنزول السكينة عليهم، والله سبحانه وتعالى أعلم بكل شيءٍ، واعلم بأنهم كانوا يستحقون التفضيل عليهم من الله بأن يُلزمهم الله كلمة التقوى، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ يقول تعالى ذكره: وكان رسول الله ﷺ: والمؤمنون أحق بكلمة التقوى من المشركين وأهلها: يقول: وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون أهل كلمة التقوى دون المشركين.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره: ولم يزل الله بكل شيء ذا علم، لا يخفى عليه شيء هو كائن، ولعلمه أيها الناس بما يحدث من دخولكم مكة وبها رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذن لكم بدخولكم مكة في سفرتكم هذه.



قال الله تعالى:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

[الفتح: ٢٧-٢٩]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿صَدَقَ - بِٱلْهُدَىٰ - وَدِينِ ٱلْحَقِّ - لِيُظْهِرَهُۥ - ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ - وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ - شَهِيدًا - أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ - رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ - يَبْتَغُونَ - فَضْلًا - وَرِضْوَٰنًا - سِيمَاهُمْ - شَطْـَٔهُۥ - فَـَٔازَرَهُۥ - فَٱسْتَغْلَظَ - فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿صَدَقَ﴾	حقَّق
﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾	البيان الواضح الذي يُهتدى به إلى الحق، (والعلم النافع)
﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾	الدين الصحيح (دين الإسلام)
﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾	لينصره - ليُعليه
﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾	الأديان الباطلة كلها
﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾	الله يكفي عما سواه
﴿شَهِيدًا﴾	شاهدًا
﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾	غلاظ على الكفار - غليظة قلوبهم عليهم
﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾	لينون - رقيقة قلوبهم - يتراحمون فيما بينهم - يعطف بعضهم على بعض ويحنو بعضهم على بعض وتلين قلوبهم لإخوانهم
﴿يَبْتَغُونَ﴾	يطلبون - يلتمسون
﴿فَضْلًا﴾	تفضلًا من الله عليهم (برحمته لهم ورزقه لهم وعونه لهم ونصره لهم)
﴿وَرِضْوَٰنًا﴾	رضًا من الله عنهم
﴿سِيمَاهُمْ﴾	علاماتهم في وجوههم

﴿شَطْـَٔهُۥ﴾	نباته - النباتات الصغيرة - أفراخه
﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾	فقوَّاه وأعانه
﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾	أصبح غليظًا
﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾	تقوَّى

❁ ❁ ❁

س: ما هذه الرؤيا التي قال الله عزَّ وجلَّ في شأنها: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾؟

ج: حاصل هذه أن الله عزَّ وجلَّ أرى نبيه محمدًا ﷺ رؤيا في منامه، حاصلها أنه وأصحابه سيدخلون المسجد الحرام معتمرين، منهم من يحلق شعره للتحلل من عُمرته، ومنهم من يُقصر آمنين مطمئنين، لا يخافون عدوهم ولا يخشونه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصرًا بعضهم رأسه، ومحلقًا بعضهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان رسول الله ﷺ قد أُرِي في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية، لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا» قال: لا قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

❁ ❁ ❁

س: ما وجه قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؟

ج: ذلك علمه الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ كي يعلمه النبي ﷺ، كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[الكهف: ٢٣-٢٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبي ﷺ في منامه خوطب في منامه بما جرت به العادة، فأخبر الله عن رسوله أنه قال ولهذا استثنى، تأدب بأدب الله تعالى؛ حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[الكهف: ٢٣-٢٤]، وقيل: خاطب الله العباد بما يحب أن يقولوه كما قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وقيل: استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون قاله ثعلب وقيل: كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى قاله الحسين بن الفضل وقيل: الاستثناء من ﴿ءَامِنِينَ﴾ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة وقيل: معنى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إن أمركم الله بالدخول وقيل: أي إن سهل الله وقيل: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي كما شاء الله وقال أبو عبيدة: ﴿إِن﴾ بمعنى: «إذ» أي إذ شاء الله كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨] أي: إذ كنتم وفيه بعد لأن «إذ» في الماضي من الفعل و«إذا» في المستقبل وهذا الدخول في المستقبل فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلقه بشرط المشيئة وذلك عام الحديبية فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتد عليهم وصالحهم ورجع، ثم أذن الله في العام المقبل، فأنزل الله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ وإنما قيل له في المنام: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام فليس هنا شكٌّ كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك والله تعالى لا يشك و﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ تحقيق فكيف يكون شك ﴿إِن﴾ بمعنى «إذا».

قال السمعاني في تفسيره:

ما معنى قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ والله تعالى هو المخبر، وما يخبر عنه كائن لا محالة، والاستثناء إنما يدخل على شيء يجوز أن يكون، ويجوز ألا يكون؟

والجواب من وجوه: أحدها: أن معنى قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إذا شاء الله.

والوجه الثاني: أن الآية على التقديم والتأخير، ومعناه: لتدخلن المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين، لا تخافون إن شاء الله.

والوجه الثالث: أنه كان مع النبي ﷺ قوم عند نزول هذه الآية، منهم من غاب، ومنهم من مات قبل أن يحصل الموعود، فالاستثناء إنما وقع على هذا أنه يدخل بعضهم أو جميعهم.

والوجه الرابع: وهو الأولى أن الله تعالى قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هاهنا على ما أحب ورضي وأمر به عباده، فإنه أمرهم أن يستثنوا فيما يخبرون به من الأمور المستقبلة، ويدونه على ما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، وهذا أمر له ولجميع الأمة، فقال تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وإن علم وقوع الفعل ليقتدي به المؤمنون، ولا يتركوا هذه الكلمة فيما يخبرون به من الأمور التي لم يعلموا وقوعها. قال الأزهري: وكأنه قال: لما قلت إن شاء الله فيما علمت وقوعه، فلأن تقولوا إن شاء الله فيما لم تعلموا وقوعه أولى.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- منكم من حلق رأسه بعد أداء عمرته أو حجته، ومنكم من قصَّر شعره.

❁ ❁ ❁

س: أيهما أفضل الحلق أم التقصير (بعد أداء العمرة أو الحج)؟

ج: على الإجمال فالحلق أفضل، وذلك لأن النبي ﷺ دعا للمحلقين ثلاثًا، وللمقصرين مرة واحدة.

أما إذا كانت العمرة التي سيتحلل منها عمرة التمتع للحج فالأولى فيها أن يقصر الشخص عقبها ويترك الحلق إلى الحج.

❁ ❁ ❁

س: هل ثبت أن النبي ﷺ قصَّر شعره في بعض عمراته التي اعتمرها غير عمرة الحج؟

ج: نعم، قد ثبت ذلك ففي الصحيح من حديث معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قصَّر شعره عقب بعض عمراته.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾.

ج: المعنى هاهنا -والله أعلم- أن الله عزَّ وجلَّ علم ما لم يعلمه المؤمنون، وكان مما علمه الله عزَّ وجلَّ ولم يعلمه المؤمنون أمر الرجال المستضعفين من أهل الإيمان الذين هم بمكة وكذا النسوة المؤمنات فإن أهل الإيمان كانوا سيطؤونهم ويقتلونهم بغير علم.

وكان مما علمه الله ولم يعلمه المؤمنون أن أقوامًا من أهل الشرك سيسلمون في هذه الفترة وتلك الهدنة التي بين رسول الله ﷺ وبين المشركين.

وكان مما علمه الله ولم يعلمه المؤمنون أن خيبر ستفتح بعد هذا الصلح.

إلى غير ذلك مما علمه الله ولم يعلمه أهل الإيمان، والله أعلم.

هذا، وقد قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ يقول تعالى ذكره: فعلم الله جل ثناؤه ما لم تعلموا، وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين، الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها في ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرجل، فأصابتهم منهم معرة بغير علم، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ أي: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالفتح القريب الذي قال الله عنه: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم إنه صلح الحديبية، فقد كان فتحًا.

وقال آخرون من أهل العلم: إنه فتح خيبر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه جعل لرسوله والذين كانوا معه من أهل بيعة الرضوان فتحًا قريبًا من دون دخولهم المسجد الحرام، ودون تصديقه رؤيا رسول الله ﷺ وكان صلح الحديبية وفتح خيبر دون ذلك، ولم يخصص الله تعالى ذكره خبره ذلك عن فتح من ذلك دون فتح، بل عمَّ ذلك، وذلك كله فتح جعله الله من دون ذلك.

والصواب أن يعمَّه كما عمه، فيقال: جعل الله من دون تصديقه رؤيا رسول الله ﷺ بدخوله وأصحابه المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين، لا يخافون المشركين صلح الحديبية وفتح خيبر.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله عزَّ وجلَّ هو الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى، وهو البيان الواضح المتمثل في الكتاب العزيز والسنة المباركة، المتمثل في العلم النافع، وكذا أرسله بالدين الحق، وهو دين الإسلام وما فيه من الشرائع ليظهره أي: ليغلبه، وليجعله غالبًا للأديان الباطلة والملل الفاسدة كلها، وإن رغمت أنوف المشركين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ بالبيان الواضح، ودين الحق، وهو الإسلام؛ الذي أرسله داعيا خلقه إليه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يقول: ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه،

وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذٍ تبطل الأديان كلها، غير دين الله الذي بعث به محمدًا ﷺ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ يقول جلَّ ثناؤه لنبيه ﷺ: أشهدك يا محمد ربك على نفسه، أنه سيظهر الدين الذي بعثك به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ يقول: وحسبك به شاهدًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى، مبشرًا للمؤمنين بنُصرة الرسول -صلوات الله عليه- على عدوِّه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حقٌّ وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم ومليين ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: أنه رسوله، وهو ناصره.

❁ ❁ ❁

بعض أوصاف أصحاب رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل والأمثال المضروبة لهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

ج: هذه شهادة من الله عزَّ وجلَّ لنبيه محمد ﷺ بالرسالة وإخبارٌ بذلك ووصف لأصحابه الذين آمنوا به وصدقوه، فإنهم أشداء على الكفار أي: غلاظ على الكفار غير رحماء بهم، ولكنهم - أي: أصحاب النبي ﷺ - رحماء فيما بينهم يعطف بعضهم على بعض، ويحنو بعضهم على بعض ويتألم بعضهم لألم بعض، ورقيقةٌ قلوب بعضهم على بعض.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره:

محمد رسول الله وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾، غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ يقول: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم.

❀ ❀ ❀

س: اذكر من الأدلة ما يفيد أن المسلمين ينبغي أن يشتدوا على الكفار إذا لم يؤمنوا.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى في وصف أصحاب نبيه ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣]، وكذا عموم الأوامر الواردة بقتالهم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

❀ ❀ ❀

س: لماذا هذه الشدةُ على الكفار؟

ج: هذه الشدة عليهم امتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ، ثم لعلهم يرتدعون ويقلعون عن كفرهم فيُسلمون.

قال تعالى: ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ﴾ [الممتحنة: ٧].

وقال النبي ﷺ: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل».

❀ ❀ ❀

س: اذكر بعض الأدلة التي تحث على التراحم بين أهل الإيمان وتُبين أن ذلك من أوصافهم.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [محمد: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر: ٨٨] والمؤمنون لرسولهم تبع.

وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى في شأن أهل الإيمان: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي الحديث: «وأهل الجنة ثلاثة: رجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- ترى بعضهم راكعًا وبعضهم ساجدًا، هذه غالب أحوالهم، وأيضًا تراهم أحيانًا رُكعًا وأحيانًا سُجدًا، يلتمسون بهذه الصلاة، وبهذا الركوع وذاك السجود تفضلًا من الله عليهم بأن يكرمهم في الآخرة ويؤتيهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيهم عذاب النار، ويتفضل عليهم بجنته ورضاه عنهم.

أورد الطبري بإسنادٍ حسنٍ:

عن قتادة: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ألقى الله في قلوبهم الرحمة، بعضهم لبعض ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يقول: تراهم ركعًا أحيانًا لله في صلاتهم سجدًا أحيانًا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: يلتمسون بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار ورحمة بعضهم بعضًا، فضلًا من الله، وذلك رحمته إياهم، بأن يتفضل عليهم، فيدخلهم جنته ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ يقول: وأن يرضى عنهم ربهم.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بهذه السيما التي في الوجوه؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنها علامات يجعلها الله يوم القيامة في وجوه أهل الإيمان الذين كانوا يسجدون له في الدنيا، فيعرفون بها يوم القيامة، أي: أن علامات سجودهم تبدو في وجوههم يوم القيامة. ومن العلماء من قال: إن ذلك نورٌ وبياضٌ في الوجوه يوم القيامة، ومنهم من قال: إنها نضرةٌ في الوجوه يوم القيامة.

القول الثاني: أن المراد بذلك علامات الإسلام، وسمتُ الإسلام، وأثر الإسلام يبدو على الوجوه ويظهر عليها، ويظهر عليها كذلك أثر الخشوع لله عزَّ وجلَّ.

فيُعرف المسلم بسمته وهيئته ومنظره وطريقته في الدنيا، فيُرى على المؤمنين سمت الإسلام الحسن في دنياهم.

القول الثالث: أنه أثر العبادة يبدو على وجوههم في الدنيا، أثر قيام الليل، أثر السهر والتعب والنصب لله عزَّ وجلَّ كالصُّفرة التي تكون في الوجوه من السهر والعبادة.

القول الرابع: أنها العلامات التي تكون في الجباه من أثر السجود على الأرض.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يخصَّ ذلك على وقت دون وقت. وإذ كان ذلك كذلك، فذلك على كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهديه وزهده وسمته، وآثار أداء فرائضه وتطوعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به، وذلك الغرة في الوجه والتحجيل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء، وبياض الوجوه من أثر السجود.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾.

ج: هذا وصفٌ لأصحاب رسول الله ﷺ ومثلهم الذي ذُكر في التوراة، إنهم فيما بينهم متراحمون، رقيقةٌ قلوب بعضهم لبعض لينون هينون فيما بينهم، وفي ذات الوقت أشداء غلاظ على أهل الكفر، فهذا حالهم مع البشر؛ لينٌ مع أهل الإيمان، شدة مع أهل الكفر والطغيان.

أما حالهم مع الله عزَّ وجلَّ فمنه صلاتهم، فهم متقلبون بين الركوع والسجود، أحيانًا تراهم ركعًا، وأحيانًا تراهم سجدًا، يلتمسون بذلك فضل الله عزَّ وجلَّ وجنته، وكذا يلتمسون بركوعهم وسجودهم رضوان الله عزَّ وجلَّ عليهم، وقد ظهر على

وجوههم أثر السجود والطاعة لله عزَّ وجلَّ، فهذا هو معنى المثل المضروب لهم في التوراة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: هل الوقف عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؟ أم أن الوقف عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾؟

وكإيضاح للسؤال: هل المثل المذكور في قوله تعالى: ﴿.. وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ..﴾ إلى قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ مثل ضُرب في التوراة فقط لأصحاب النبي ﷺ أم أنه ضُرب لهم في التوراة والإنجيل؟

ج: الظاهر -والله أعلم- أن الوقف عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فيكون هنالك مثلٌ ضرب لهم في التوراة، ومثل آخر ضُرب لهم في الإنجيل، وإن كان القول الآخر، قد قال به بعض أهل العلم، قالوا: إن المثلين كلاهما ضُرب لأهل الإيمان في التوراة والإنجيل، وقد حكاه الطبري عن بعض أهل العلم، لكنه اختار القول الأول الذي قدمته، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ..﴾ إلى آخر الآية.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- والمثل المضروب لأصحاب محمد ﷺ في الإنجيل وهو الكتاب المنزل على عيسى عليه السلام كبذور الزروع (حبوب) وضعت في الأرض، بذرها الزُّراع، بذور قليلة، بذرة هاهنا، وبذرة هاهنا، فنمت هذه البذور والحبات وخرج نباتها في أول أمره ضعيفًا، نبتةٌ هاهنا ونبتةٌ هاهنا، ثم نما هذا النبت وترعرع وأمدته جذوره بغذائه ومائه، فاشتد عوده وتقوى وحمل ثمرته، فالحبة أنبتت سنابل، فأصبحت الحبة حبات وتكاثر عددها وازداد.

فقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ أي: كبذور زرع، وحبات زرع.

﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أنبت نباته.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوَّاه، أي: أن بذرة الزرع قوته بما تمده من غذاءٍ وماءٍ.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ فأصبح ساق النبات شيئًا فشيئًا قويًّا غليظًا، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أصبحت الساق قوية تتحمل ما عليها من الثمر والسنابل، فقوي واشتد، يعجب هذا الثمر وذاك النبات الكثير المتنامي الزراع الذين زرعوه ووضعوا بذرته في الأرض، وهكذا كان حال أصحاب محمد ﷺ في أول أمرهم كانوا قليلين مستضعفين فنما عددهم وازداد، واشتد ساعدهم وقوي أمرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

فعل الله ذلك بهم - أي بأصحاب محمد ﷺ - كثَّرهم وقواهم ليغيظ الكفار.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرَّخ فهو يشطئ إشطاء، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدؤوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ يقول تعالى ذكره: يعجب هذا الزرع الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه وحسن نباته، وبلوغه وانتهائه الذين زرعوه ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ يقول: فكذلك مثل محمد ﷺ وأصحابه، واجتماع عددهم حتى كثروا ونموا، وغلظ أمرهم كهذا الزرع الذي وصف جل ثناؤه صفته، ثم قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ فدل ذلك على متروك من الكلام، وهو أن الله تعالى فعل ذلك بمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»:

قرأ هذا الحرف ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر: ﴿شَطَأَهُۥ﴾ بفتح الطاء، والباقون من السبعة بسكون الطاء.

وقرأ عامة السبعة غير ابن ذكوان: ﴿فَـَازَرَهُۥ﴾ بألف بعد الهمزة.

وقرأه ابن ذكوان عن عامر: (فَأَزَرَهُ) بلا ألف بعد الهمزة مجردًا.

وقرأ عامة السبعة غير قنبل: ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ بواو ساكنة بعد السين.

وقرأه قنبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بدلًا من الواو وعنه ضم الهمزة بعد السين بعدها واو ساكنة.

وهذه الآية الكريمة قد بيَّن الله فيها أنه ضرب المثل في الإنجيل للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم كالزرع يظهر في أول نباته رقيقًا ضعيفًا متفرقًا، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكذلك النبي ﷺ وأصحابه كانوا في أول الإسلام في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا.

وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه فنبت في جوانبه، وقوله: ﴿فَـَازَرَهُۥ﴾ على قراءة الجمهور من المؤازرة، بمعنى: المعاونة والتقوية، وقال بعض العلماء: ﴿فَـَازَرَهُۥ﴾ أي: ساواه في الطول، وبكل واحد من المعنيين فسر قول امرئ القيس:

بمحنية قد آزر الضال نبتها ... مجر جيوش غانمين وخيب

وأما على قراءة ابن ذكوان: (فَأَزَرَهُ) بلا ألف، فالمعنى شد أزره أي: قواه.

ومنه قوله تعالى عن موسى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ الآية [٢٩-٣١]، وقوله: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: صار ذلك الزرع غليظًا بعد أن كان رقيقًا، وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: استتمَّ وتكامل ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: على قصبه.

وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم يكونون في مبدإ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون. جاء موضحًا في آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ الآية [الأنفال:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

س: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ يستدل به على عدم اليأس من رحمة الله. وضح ذلك.

ج: إيضاحه أنه إذا كان الصحابة -رضوان الله عليهم- قد صدرت منهم أمور وعدهم الله بمغفرتها، فغيرهم من باب أولى أن تصدر منه مثل تلك الأمور.

فجدير بنا أن نؤمن ونعمل الصالحات ونستغفر الله من ذنوبنا، ونسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا وأن يستر عُيوبنا. اللهم آمين.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض فضائل أصحاب رسول الله ﷺ بصفة عامة.

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم[1] من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا، «ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمن».

ومن حديث ابن مسعود[2] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

وما أخرجه مسلم[3] من حديث أبي بردة قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا فقال: «ما زلتم هاهنا» قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: «أحسنتم - أو - أصبتم»، قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: « النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم، أتى السماء ما توعد وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت، أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي، أتى أمتي ما يوعدون ».

(١) البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣).

(٣) مسلم (٢٥٣١).

وما أخرجه البخاري ومسلم[١] من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: « يأتي على الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله ﷺ فيقولون: نعم. فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ: فيقولون: نعم. فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم ».

وما أخرجه البخاري ومسلم[٢] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ».

وعند الإمام أحمد[٣] بسندٍ حسن موقوفًا على عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ.

❁ ❁ ❁

---

(١) البخاري (٣٦٤٩)، ومسلم (٢٥٣٢).

(٢) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٣) أحمد (١/ ٣٧٩).

سورة الحجرات

قال الله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

[الحجرات: ١-٥]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿لَا تُقَدِّمُوا - بَيْنَ يَدَيِ - لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ - تَحْبَطَ - لَا تَشْعُرُونَ - يَغُضُّونَ - امْتَحَنَ - الْحُجُرَاتِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾	لا تقدموا قولًا - لا تتقدموا برأي
﴿بَيْنَ يَدَيِ﴾	قبل - أمام
﴿لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾	لا تنادوه بصوتٍ عالٍ مرتفع
﴿تَحْبَطَ﴾	تبطل - يذهب ثوابها
﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾	لا تدرون
﴿يَغُضُّونَ﴾	يخفضون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ فغض البصر: كفُّه عن النظر. وقيل: معناها أيضًا: يكفُّون، قال الشاعر: فغض الطرف إنك من نميرٍ فلا كعبًا بلغت ولا كلابا
﴿امْتَحَنَ﴾	صفَّى - نقَّى - أخلص - اختبر - أصلح - طهَّر
﴿الْحُجُرَاتِ﴾	جمع حُجرة، وهي غرف أزواج النبي ﷺ

❁ ❁ ❁

آداب حملتها سورة الحجرات

س: هذه السورة الكريمة -سورة الحجرات- حملت جملةً من الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها الشخص، اذكرها على وجه الإجمال.

ج: نعم، حملت هذه السورة الكريمة جملة من الآداب، منها ما يلي:

أدب مع الله عزَّ وجلَّ، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١].

فلا نقول قولًا حتى نعلم قول الله عزَّ وجلَّ، ولا نسارع في الأشياء بين يديه أو قبله بل نكون له تبعًا، ولا نقضي قضاءً ولا نحكم بحكم حتى نعلم قضاء الله وحكم الله عزَّ وجلَّ، ولا نقترح على ربنا اقتراحًا ولا نتجاوز ما نهانا عنه ولا نتأخر عما أمرنا به.

أدب مع الله عزَّ وجلَّ، في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ نعم فلنتقِ ربنا ونرهبه ونخشى عذابه ونجتنب معاصيه.

أدبٌ مع الله عزَّ وجلَّ، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٦]، فالله أعلم بنا من أنفسنا، فلا ينبغي أن نمن على الله بإيماننا ولا أن نزكي أنفسنا بين يديه، ولا أن نتباهي أمامه بأعمالنا.

أدبٌ مع الله عزَّ وجلَّ، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحجرات: ١٨]، ففيه حثٌ على مراقبة الله في السر والعلن، وتصحيح النيات وابتغاء وجه الله بالأعمال، وإحسان هذه الأعمال.

تذكُّر فضل الله علينا؛ إذ قد هدانا للإيمان وحببه إلينا وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

تذكر فضل الله علينا في هدايته لنا لجميل الأقوال والأعمال والأخلاق، ونهينا عن كل قبيح وذميم.

حثٌّ دائم على مراقبة الله عزَّ وجلَّ وخشيته في السر والعلن؛ إذ هو سبحانه بصير بما نعمل.

أدب مع رسول الله ﷺ: فلا نتقدم بين يديه بأمرٍ، ولا نرفع شيئًا فوق سُننه، ولا نرفع صوتًا فوق صوته، ولا نقدم شرعًا على شرعه صلوات الله وسلامه عليه.

أدب مع رسول الله ﷺ في ندائه كما قال ربنا: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

أدب مع رسول الله ﷺ استُفيد من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، فيلزمنا ذلك بأن نتهم آراءنا دائمًا، ونقدم

قول رسولنا محمد ﷺ في كل وقتٍ وحينٍ فهو - صلوات الله وسلامه عليه - بالمؤمنين رؤوف رحيم.

أدب مع رسول الله ﷺ في ترك المن عليه بإسلامنا، بل يجب علينا أن نثني عليه ونصلي عليه ونسأل ربنا له أعلى الدرجات وأفضل المقامات؛ إذ جعله الله سببًا في هدايتنا صلوات الله وسلامه عليه.

وأدبٌ مع الناس: فعند التخاطب نخاطبهم بجميل الخطاب والطيب من القول، فنستهل الخطاب بما يفتح الله به صدورهم حتى يقبلوا علينا بوجوههم وقلوبهم كما خاطبنا الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحجرات: ١].

أدبٌ مع الناس: فلا نسخر منهم ولا نهزأ بهم، ولا ندعوهم بما يكرهون من الألقاب.

أدبٌ مع الناس: فلا نظن بهم السوء، ولا نتجسس عليهم، ولا نغتاب أحدًا منهم.

أدبٌ مع الناس: في توقير التقي منهم ومعرفة حقه.

أدبٌ مع الناس: في تعليم جاهلهم، والأخذ على يد ظالمهم، ونصرة مظلومهم وترك السخرية منهم، والبعد عن ازدرائهم.

وأدبٌ مع النفس: فلا نزكي أنفسنا، ولا ننزلها منازل ليست هي منازلها كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

أدبٌ مع النفس: في نهيها عن المن.

أدبٌ مع النفس: في توطينها على التثبت من الأخبار، والتأني، وعدم العجلة.

أدبٌ مع النفس: في تدريبها على الخير وحثها على اجتناب الظن السيئ.

أدبٌ مع النفس: في تأهيلها لقول الحق، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ [الحجرات: ٩].

أدبٌ مع النفس: في إزالة الشك عنها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥].

أدبٌ مع النفس: في فعل ما يجلب لها الوقار والاحترام، وفي عدم جلب الذم لها وعدم تحميلها العنت والمشقة، وعدم إيقاعها في الحرج وفيما لا طاقة لها به.

وبالجملة: فالسورة الكريمة تحمل كمًّا هائلًا من الحث على الآداب الجميلة والأخلاق الحميدة، فنسأل الله هدايته وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

ومن آداب التخاطب

س: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ [الحجرات: ١] أدب من آداب التخاطب مع الناس. وضح هذا الأدب.

ج: هذا الأدب مفادُهُ: أن المخاطب يُذكَّر بمناقبه وفضائله بين يدي الخطاب فإذا أردت أن تخاطب شخصًا ما فذكِّره بما فيه وبما في أهله، أو بما في أهل بلده أو بما في قبيلته من خيرٍ وفضل وصلاح، ثم تحدث معه بالذي تُريد، فبذلك ينشرح لك صدره ويُقبل عليك بقلبه، فحينئذٍ يسمع لما تقول ويُنصت لما تلقيه عليه ويُجيبك إلى ما أردته منه بإذن الله.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ من معناه: يا من آمنتم بالله وصدقتم رسوله ﷺ، وأقررتم بالبعث وبالحساب، وأيقنتم بالجنة والنار، وآمنتم أن القرآن من عند الله....

كل هذا داخل في معنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ ثم يأتي التكليف بعد ذلك فيجد آذانًا صاغية وقلوبًا واعية.

ولذلك أمثلة أخرى ونظائر في كتاب الله عزَّ وجلَّ؛ كقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]، فهذا تذكير بصلاح آبائهم، فالمعنى: يا ذرية المؤمنين الصالحين الذين آمنوا بنوح عليه السلام وحملهم الله في الفلك مع نوحٍ عليه السلام، يا ذرية هؤلاء الفضلاء، كونوا شاكرين كآبائكم، وكونوا شاكرين كنوحٍ ﷺ، فإنه كان عبدًا شكورًا.

ونحوه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ [البقرة: ٤٧]، فهذا تذكيرٌ لهم بصلاح أبيهم إسرائيل، فالمعني: كونوا صالحين كأبيكم فإني قد فضلتكم على العالمين.

ونحوه قول قوم مريم لمريم عليها السلام: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ [مريم: ٢٨].

فيذكرونها بصلاح أخيها وأمها وأبيها، فالمعنى: يا أخت الرجل الصالح هارون، قد كان أبوك من الصالحين، ولم تكن أمك من البغايا؛ فحريٌّ بك أن تكوني صالحة كذلك.

ومن هذا التذكير كذلك قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لما ذهب إليه ابن عباس يطلب منه علمًا: «يا بن عم رسول الله، ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟! فيقول ابن عباس هو الآخر: أنا أحق أن آتيك»[١].

ونحوه قول زيد بن ثابت لابن عباس رضي الله عنهما لما أخذ ابن عباس بالركاب لزيد رضي الله عنهما، فقال له زيد: تنح يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

ومن ذلك أيضًا قول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس يوم حنين: «أي عباس، ناد أصحاب السمرة»، فقال عباس - وكان رجلًا صيِّتًا - فقلت بأعلى صوتي: «أين أصحاب السمرة»[٣].

فيذكِّر العباس الأنصار بشيءٍ من فضلهم، وهو بيعتهم تحت الشجرة، فيحملهم هذا التذكير بمآثرهم على الاستجابة لما يأمرهم به والإقبال على ما حثهم عليه.

وكترجمة لهذا في واقعنا: إذا أردت من شخص صدقة للفقراء فلتقل: يا ابن المحسنين، تصدق فأهل بيتك أهل فضل وصلاحٍ وإحسان، فجدك أنشأ مدرسة، وعمك بنى لله بيتًا، وخالك ساهم مساهمة كبيرة في مستشفى، وأبوك لم يترك بابًا من أبواب الخير إلا وله فيه يدٌ طولى.

---

(١) الدارمي (١/ ١٤١-١٤٢) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢/ ١٦٦) وهو صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٥)، والمراد بأصحاب السمرة: الذين بايعوا تحت الشجرة.

وإذا أردت من شخص أن يتعلم فقل له: أنت من أهل بيت علم وفقه فعمك فقيهٌ، وخالك مُفسر، وجدك كان محدثًا، فأقبل على العلم؛ فهو ميراثك الباقي.

وإذا أردت من شخص أن يقاتل أهل الكفر والردة، فقل له: إن أجدادك لهم أمجادٌ، فهم أبطالٌ ومغاوير وشجعان فتقدم فبارز، وقل كلمة الحق ولا تخش في الله لومة لائم.

فمثل هذه الكلمات تكون سببًا في فتح الصدور وانشراحها بإذن الله.

❁ ❁ ❁

النهي عن تقديم الآراء والأهواء على الكتاب والسنة والتحذير من ذلك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

ج: لذلك معانٍ منها ما يلي:

الأول: لا تعجلوا بقضاء أمرٍ من الأمور قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله.

الثاني: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

الثالث: لا تتقدموا بقولٍ أو بفعلٍ ولا تعجلوا به حتى تعلموا قول الله وقول رسول الله ﷺ.

الرابع: لا تقدموا رأيًا حتى تطَّلِعوا على الكتاب والسنة وتعلموا هل فيهما شيء بخصوص الأمر الذي تريدونه أم لا؟

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١].

ج: أما قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فمعناه: خافوا الله وراقبوه واجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية.

وقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ أي: سميع لأقوالكم عليمٌ بمرادكم من هذه الأقوال، وكذلك فهو عليم بنياتكم وبأفعالكم.

❁ ❁ ❁

س: فيمن نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [الحجرات: ١]؟ وما سبب هذا النزول؟ وكذلك فيمن نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ...﴾ [الحجرات: ٢]؟

ج: نزلت هذه وتلك في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

أخرج البخاري[1] من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، حتى انقضت.

وأخرج البخاري[2] أيضًا من طريق ابن أبي مليكة[3] قال: كاد الخيران أن يهلكا- أبو بكر وعمر رضي الله عنهما - لما قدم على النبي ﷺ وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع بن حابس التميمي الحنظلي أخي بني مُجاشع، وأشار الآخرُ بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

قال ابن أبي مليكة قال ابن الزبير: فكان عمر بعدُ - ولم يذكر ذلك عن أبيه - يعني أبا بكر - إذا حدَّث النبي ﷺ بحديث حدثه كأخي السِّرار، لم يُسمعه حتى يستفهمه.

❁ ❁ ❁

---

(١) البخاري (حديث ٤٣٦٧).

(٢) البخاري (٧٣٠٢).

(٣) وهذا صورته صورة المرسل، وقد ورد عند الترمذي (٣٢٦٦) من طريق مؤمل بن إسماعيل: حدثنا نافع بن عمر بن جُميل الجمحي، حدثني ابن أبي مليكة، حدثني عبد الله بن الزبير.. فصرح ابن أبي مليكة بتحديث ابن الزبير له فاتصل السند بذلك، لكن مؤمل في حفظه شيء إلا أن الحديث تشهد له الرواية الأولى التي قدمناها. والله أعلم.

س: اذكر شيئًا من المستفاد من سبب النزول هذا.

ج: يستفاد من سبب النزول هذا: امتثال مزيد الأدب مع رسول الله ﷺ وإيضاح ذلك: أن الآية - كما سلف - نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما هما خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ومع ذلك نزل فيهما الذي نزل، مع أنهما لم يخالفا رسول الله ﷺ في شيء أمر به، وإنما تقدما بقول قبل أن يقول رسول الله ﷺ كلمته، فجاءهم قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾ [الحجرات: ١]، وكذلك جاءهم التهديد بإحباط العمل في قوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ②﴾ [الحجرات: ٢].

فما الظن إذن بمن يخالف أمر الله عزَّ وجلَّ وأمر رسول الله ﷺ وهو عامد متعمد؟!!

❀ ❀ ❀

س: ما مدى صحة ما ورد عن رسول الله ﷺ من أنه قال لمعاذ - حين بعثه إلى اليمن-: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «فإن لم تجد؟»، قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي، فضرب في صدره، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ؟

ج: هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ، وقد أخرجه الترمذي[1] وغيره، وفي إسناده الحارث بن عمرو وهو مجهول وقد أُعل هذا الحديث بالإرسال كذلك.

فقال الترمذي -رحمه الله تعالى- عقب إخراجه: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل.

وقال الدارقطني[2] رحمه الله تعالى: والمرسل أصح.

وانظر كذلك البخاري في التاريخ الكبير[3] ترجمة الحارث بن عمرو.

---

(١) الترمذي (حديث ١٣٢٧).

(٢) الدارقطني في العلل (٦/ ٨٨).

(٣) البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٧٧).

وكذلك فانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة[(١)] للشيخ ناصر رحمه الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وجهان للعلماء اذكرهما.

ج: الوجه الأول الذي ذكره العلماء: أن المنهي عنه هو رفع الصوت المعهود عند الناس؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير، فالمعنى: لا تغلظوا له في الخطاب ولا ترفعوا أصواتكم عنده.

والوجه الثاني: أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط وكلاهما مرادٌ.

والمراد من الآية أيضًا: تعظيم النبي ﷺ وتوقيره وألا ينادوه كما يُنادي بعضهم بعضًا -والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما فائدة إعادة النداء وتكريره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ [الحجرات: ٢]؟

ج: ذكر العلماء في تكرار النداء فوائد منها:

أن في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد؛ كقول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]؛ لأن النداء تنبيه للمنادى؛ ليقبل على استماع الكلام، ويجعل باله منه فإعادته تفيد تجدد ذلك، ومنها: أن لا يتوهم أن المخاطب ثانيًا غير المخاطب أولًا، ومنها: أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود، وليس الثاني تأكيدًا للأول[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) السلسلة الضعيفة (رقم ٨٨١).

(٢) نقلًا من فتح البيان.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

ج: المعنى: لا تنادوه كما يُنادي بعضكم بعضًا وتقولوا: يا محمد يا محمد، ولكن قولوا له قولًا لينًا: يا نبي الله يا رسول الله.

❁ ❁ ❁

س: اذكر آية في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

ج: الآية التي في معناها هي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ففي هذه الآية نهاهم الله سبحانه وتعالى أن ينادوا نبيهم ﷺ كما ينادي بعضهم بعضًا، وأمرهم أن يشرفوه ويعظموه ويدعوه - إذا دعوه - باسم النبوة والرسالة- والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ مقدر محذوف يُفهم من السياق فما هذا المقدر؟

ج: هذا المُقدَّر هو (مخافة) أو (خشية)، فالمعنى: أن تحبط أو خشية أن تحبط، كما يقول القائل: أسند الحائط أن يميل أي: أسند الحائط مخافة أن يميل، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، أي: حتى لا تميد بهم، وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، أي: حتى لا تقولوا.

س: ما حكم صنيع هؤلاء الذين يجتمعون عند قبره ﷺ ويرفعون أصواتهم في صخب ولغط؟

ج: كل هذا لا يجوز ولا يليق، وينبغي أن يؤخذ على أيديهم ويُمنعوا من هذا الصنيع المنكر.

فكل هذا صنيع لم يرد عن أصحاب رسول الله ﷺ، وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه

الله تعالى: وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر[(١)] بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه محترمٌ حيًّا وفي قبره ﷺ دائمًا.

❀ ❀ ❀

س: هل من الممكن أن تكتب على العبد سيئات وهو لا يدري؟

ج: نعم، قد يكون ذلك؛ لقول رسول الله ﷺ: «.. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم»[(٢)].

وعنه ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»[(٣)].

وقد قال تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢].

❀ ❀ ❀

س: هل يمكن أن يصل إحباط الأعمال بالشخص إلى الكفر وهو لا يشعر؟

ج: قال بعض أهل العلم: لا يصل الأمر إلى ذلك، أي: أن الإنسان المسلم لا يكفر وهو لا يشعر، وصحيح أنه قد يرتكب أعمالًا من أعمال الكفر وهو لا يشعر، لكنه لا يخرج من دائرة الإسلام وهو لا يشعر، كما أن الكافر لا يكون مؤمنًا وهو لا يشعر.

❀ ❀ ❀

---

(١) لم أقف على إسناده.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

تأدب الصحابة رضي الله عنهم بعد نزول الآية على رسول الله ﷺ

س: ما موقف عمر وسائر أصحاب رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآيات؟

ج: أما عمر رضي الله عنه فكان لا يكاد يسمع له صوت عند رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآيات، فكان لا يُسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه رسول الله ﷺ[1].

أما سائر الصحابة فكانوا يتحرجون غاية التحرج حتى من الإجابة على الأسئلة التي تطرح عليهم من رسول الله ﷺ مع علمهم بها، فكان عليه الصلاة والسلام يسألهم: «أي يوم هذا؟»[2] وهم يعرفون هذا اليوم وأنه يوم النحر، ولكنهم يتحرجون من الإجابة تأدبًا وظنًّا أنه عليه الصلاة والسلام يريد أن يسميه بغير اسمه فيقولون: «الله ورسوله أعلم».

وكذا في إجابتهم لما سألهم رسول الله ﷺ: «أي شهر هذا؟» وكذا لما سألهم: «أي بلدٍ هذا؟».

وكذلك في حديث ذي اليدين أنه قال لرسول الله ﷺ حين سلم من الركعتين: «أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟»[3] وقد كان في القوم أبو بكر وعمر ووجوه الصحابة فهابوا أن يكلموا رسول الله ﷺ، وتكلَّم هذا الرجل.

قال أبو المظفر السمعاني في تفسيره: لأنه لم يكن يعلم من قدره وعظم حقه ما كانوا يعلمون.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٧)، ومسلم (حديث ١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٢٨)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلىٰ بنا رسول الله ﷺ إحدىٰ صلاتي العشي. إما الظهر وإما العصر فسلم في ركعتين ثم أتىٰ جذعًا في قبلة المسجد فاستند إليها مغضبًا وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يتكلما وخرج سرعان الناس قصرت الصلاة فقام ذو اليدين فقال: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فنظر النبي ﷺ يمينًا وشمالًا، فقال: «ما يقول ذو اليدين؟» قالوا: صدق لم تصل إلا ركعتين، فصلىٰ ركعتين وسلم ثم كبر ثم سجد ثم كبر فرفع ثم كبر وسجد ثم كبر ورفع.

قال: وأخبرت عن عمران بن حصين أنه قال: وسلم.

شيءٌ من فضل ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه

س: صحابي جليلٌ كان رفيع الصوت ظن أن قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢] نزل فيه، اذكر هذا الصحابي وقصته تلك، وشيئًا من فضل هذا الصحابي الجليل.

ج: هذا الصحابي الجليل هو ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه ففي صحيح البخاري[(١)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله، وهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة».

وفي صحيح مسلم[(٢)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢].

إلى آخر الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: «أنا من أهل النار»، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أَشْتَكَى؟» قال: سعد: إنه لجاري وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ؛ فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة».

وعند الطبراني[(٣)] من حديث أنس أيضًا: أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة وقد تحنط ونشر أكفانه فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء وأعتذر مما صنع

---

(١) البخاري (حديث ٤٨٤٦).

(٢) مسلم (حديث ١١٩).

(٣) الطبراني (المعجم الكبير ١٣٠٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣٥)، وإسناده صحيح.

هؤلاء، فقُتل، وكانت له درع فسرقت فرآه رجل فيما يرى النائم فقال: إن درعي في قدر تحت الكانون في مكان كذا وكذا، وأوصاه بوصايا. فطلبوا الدرع فوجدوها وأنفذوا الوصايا.

وعند الترمذي[1] بإسناد حسن: أن النبي ﷺ قال: نِعْمَ الرجل ثابت بن قيس بن شماس.

وفي صحيح مسلم من طريق جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار.

ومما يجدر التنبيه عليه بشأن هذا الصحابي الكريم ثابت بن قيس رضي الله عنه أنه مع كونه من أهل الجنة إلا أنه كان دميم الخلقة لحدٍّ وصلت معه امرأته إلى طلب الخلع منه، وافتدت نفسها بالحديقة التي كان قد أصدقها إياها لما قال لها رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟».

فهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدل على أن الرجل قد يكون دميمًا لكن له مرتبة عليا عند الله سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

❁ ❁ ❁

بعض محبطات الأعمال

س: اذكر بعض محبطات الأعمال.

ج: من محبطات الأعمال ما يلي:

الشرك بالله: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

ويتبع ذلك الرياء:

ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل

(١) الترمذي (حديث ٣٧٩٥).

عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال النبي ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله عزَّ وجلَّ لهم يوم القيامة - إذا جزى الناس بأعمالهم -: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟»[٢].

ومن ذلك المن والأذى:

ومما ورد في المن والرياء وأذى العباد وإحباط ذلك للعمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فهذا مثلٌ في غاية الحسن يبين كيف يذهب المن والأذى والرياء بثواب الأعمال، فشبَّه صاحب العمل بالحجر الذي هو الصفوان، وعمله وصدقته بالتراب الذي ترسب على الحجر والمن والأذى والرياء بالوابل (الذي هو المطر الشديد)، فالوابل الذي هو المطر الشديد ينزل على الحجر بما عليه من تراب فيذهب بالتراب كله، وكذا المن والأذى والرياء يذهبان بثواب الأعمال التي أُتبعت بالأذى أو بالمن أو صاحبها الرياء.

ووجه آخر: أن المنفق الذي ينفق رياءً وسمعة، والمنان الذي يمن بما أعطي، وكذلك من أتبع صدقته بالأذى، كل هؤلاء كرجلٍ ظن أن الحجر الذي عليه تراب تربةً صالحة للبذر فبذر في التراب، وهو لا يظن أنَّ تحته حجر، وظن أنه بذر بذرةً في مكان طيب منبت فلما جاء الوابل ذهب بالبذرة كلها، وكذا يفعل المن والأذى

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى (حديث ٢٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد بسند صحيح لشواهده (٥/ ٤٢٨).

والرياء بثواب الأعمال - والله أعلم.

ومن محبطات الأعمال: ترك صلاة العصر.

قال رسول الله ﷺ: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[(١)].

ومن ذلك التألي على الله: ففي سنن أبي داود بسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل مُتواخيين فكان أحدهما يُذنب والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر. فقال: خَلني وربي أَبُعِثتَ عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك -أو لا يدخلك الجنة- فقبض أرواحهما فاجتمعا عند ربِّ العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمُذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمةٍ أَوْبَقَتْ[(٢)] دنياه وآخرته[(٣)].

وفي صحيح مسلم[(٤)] من حديث جندب: أن رسول الله ﷺ حدَّث أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان وإن الله تعالى قال: «مَنْ ذا الذي يتألى[(٥)] علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك» أو كما قال.

ومن ذلك تقديم الآراء والأهواء على الكتاب والسنة: وذلك لآية الحجرات التي نحن بصددها.

س: يستحب خفض الصوت، عند مخاطبة أهل الفضل، كما أنه يشرع رفع الصوت في بعض المواطن للحاجة، اذكر بعض الوارد في ذلك.

ج: نعم، يُستحب خفض الصوت فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢].

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٥٣) من حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أوبقت: أهلكت.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

(٤) مسلم (حديث ٢٦٢١).

(٥) يتألى: يحلف.

وقال عروة بن مسعود الثقفي يصف صحابة رسول الله ﷺ مع نبيهم عليه الصلاة والسلام فيقول:... وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدُّون إليه النظر تعظيمًا له... الحديث[١].

وقد قال لقمان لولده: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٩]، وكأن هذا كان معهودًا حتى عند أهل الكفر، فقد قال أمية بن خلف - وكان كافرًا - لسعد بن معاذ رضي الله عنه لما رفع سعد صوته على أبي جهل: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي[٢].

أما بالنسبة لرفع الصوت أحيانًا - عند الاحتياج لذلك - فقد ورد ما يشهد له ويؤيده.

فمن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[٣] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: تخلَّف عنا النبي ﷺ في سفرةٍ سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢). وأحيانًا يرفع الصوت لحاجة وقد قدمنا نماذج من ذلك.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٠) من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرَّ بمكة نزل على أمية. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت. فخرج قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف مكة آمنًا وقد أويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا. فقال له سعد - ورفع صوته عليه -: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشدُّ عليك منه: طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي. فقال سعدٌ: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنهم قاتلوك. قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أمَّ صفوان، ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتليَّ. فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة. فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم، فكره أُمية أن يخرج. فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير ثم قال: يا أم صفوان، جهزيني. فقالت له: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا. فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلًا إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٦٠)، ومسلم (حديث ٢٤١).

نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثًا.

وأيضًا فقد نادى العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم حنين بأعلى صوته[١]: أين أصحاب السمرة[٢]؟ يريد بذلك الأنصار.

❀ ❀ ❀

توقير رسول الله ﷺ والثناء عليه والحث على اتباع أمره

س: اذكر بعض الوارد في الحث على توقير رسول الله ﷺ والثناء عليه واتباع أمره.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ..﴾ [النساء: ٦٤].

---

(١) وذلك فيما أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين... الحديث وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس: ناد أصحاب السمرة»، فقال عباس: -وكان رجلًا صيتًا- فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة...

(٢) السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، والمعنى: نادِ أهل بيعة الرضوان.

وقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[النور: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء: ٦٥].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[آل عمران: ٣١].

ومن ذلك: أمر الله تبارك وتعالى بالصلاة عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٦].

والتحذير من إيذائه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾[الأحزاب: ٥٣].

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾[الأحزاب: ٥٧].

* صور توقيره:

ومنه ما ورد في صلح الحديبية ففيه: أن عروة بن مسعود الثقفي قال لأصحابه: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكًا قط يُعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا، والله إن يتنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له.

وقول النبي ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[1].

وكان النبي ﷺ إذا خطب يقول: «.. وخير الهدي هدي محمد ﷺ»[2].

وكان ابن مسعود يقول: «إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٢٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا.

محمد ﷺ..»[١].

وقول النبي ﷺ: «.. فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم..»[٢].

ومن ذلك ما أخرجه البخاري[٣] من حديث أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «ألم يَقُلِ الله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾؟» [الأنفال: ٢٤].

وأخرج البخاري ومسلم[٤] من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان[٥] فالنجاء[٦]، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا[٧] فانطلقوا على مُهلتهم[٨]، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم[٩]، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق».

هذا وقال الشنقيطي رحمه الله في تفسيره «أضواء البيان»:

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٧٧).

(٢) البخاري (حديث ٧٢٨٨)، ومسلم (حديث ١٣٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٤٤٧٤)، وفي رواية البخاري (٤٦٤٧) فدعاني فلم آته حتى صليت، فقال: «ما منعك أن تأتي؟ ألم يقل الله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾» [الأنفال: ٢٤].

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

(٥) «أنا النذير العريان»: قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم، وهو طليعتهم ورقيبهم.

(٦) «فالنجاء» أي: انجوا النجاء، أو اطلبوا النجاء.

(٧) «فأدلجوا» معناه: ساروا من أول الليل. يقال: أدلجت أدلج إدلاجًا كأكرمت أكرم إكرامًا والاسم الدَّلجة، فإن خرجتَ بالليل قلتَ: ادَّلجتُ أدَّلجُ ادّلاجًا، بالتشديد. والاسم: الدُّلجة بضم الدال.

(٨) «على مهلتهم» هكذا هو في جميع نسخ مسلم.

(٩) «اجتاحهم» استأصلهم.

يخاطبة بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر:١] مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ﴾ [البقرة:٣٥]، وقوله: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤﴾ [الصافات:١٠٤]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود:٤٦]، وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ [هود:٤٨]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف:١٤٤]، وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقوله: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً ﴾ [ص:٢٦].

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وقوله: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد:٢]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الفتح:٢٩].

وقد بيَّن تعالى أن توقيره واحترامه ﷺ بغضِّ الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي أخلصها، وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات:٣]. وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [الحجرات:٢] أي لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض.

ومن صور إكرام الله لنبيه محمد وثنائه عليه ودفاعه عنه:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ١-٣].

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ [الطور: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١-٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

فعليه صلوات ربي وأفضل تسليم.

❀ ❀ ❀

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣].

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أنه سبحانه أخلص قلوبهم ونقَّاها وصفَّاها مما بها من شوائب وجعلها محلًّا لحلول التقوى بها وسكونها واستقرارها فيها وينشأ عن ذلك أداء الطاعات واجتناب المعاصي.

ومن معنى قوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: طهرها من كل قبيح.

وأصل الامتحان: الاختبار كما يمتحن الذهب بالنار فيخلص الجيد ويبطل ويذهب الخبيث.

❀ ❀ ❀

س: في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [الحجرات: ٣] دليلٌ على أن أهل الإيمان قد يقعون في معصيةٍ، وضح ذلك وبيِّن المستفاد منه.

ج: نعم يتبين من قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أن أهل الإيمان قد تقع منهم بعض المعاضي، فقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ دليل على أنهم ارتكبوا ذنوبًا يغفرها الله لهم، وقد دلَّت على ذلك نصوص أُخر كقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزمر: ٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفتح: ٥].

أما المستفاد من ذلك: فهو عدم تسرب اليأس والقنوط إلى أهل الإيمان إن صدرت منهم ذنوب، وليس المستفاد التهاون وارتكاب المعاصي؛ فإن الله شديد العقاب، وعذابه هو العذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

❀ ❀ ❀

س: الخلق الحسن الكريم القويم يجلب لصاحبه المغفرة والأجر العظيم، والخلق السيئ الرديء يجلب لصاحبه الإثم، ويذهب بثواب صالح الأعمال، دلِّل

على ذلك.

ج: مما يدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣].

فخفض الصوت والأدب مع رسول الله ﷺ يجلب المغفرة والأجر العظيم.

وكذلك فقد قال النبي ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من خُلُق حسن»[١].

وفي بعض الزيادات في هذا الحديث: «وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»[٢].

وعند أبي داود بإسناد صحيح الشواهد من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[٣].

وعند الترمذي[٤] من حديث جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا».

وفي المقابل فإن التقدم بين يدي الله ورسوله ورفع الصوت فوق صوته ﷺ كل ذلك مؤذنٌ بإحباط الأعمال والذهاب بثوابها كما أفادته الآية الكريمة، ففي الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢].

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالحجرات، وكيف كان النداء من وراء الحجرات؟

ج: أما الحجرات فهي جمع حُجرة والمراد بها: حجرات نساء رسول الله ﷺ أما

---

(١) صحيح، أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» بتحقيقي (حديث ٢٠٤)، والترمذي (٢٠٠٤)، وأبو داود (٧٩٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٦، ٤٥١، ٤٥٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) هي عند الترمذي وغيره ولها شواهد صحيحة.

(٣) أبو داود (حديث ٤٧٩٨)، وأحمد (٦/ ٩٠، ١٣٣، ١٨٧)، وغيرهم وله شواهد، انظر البخاري في الأدب المفرد (٢٨٤).

(٤) الترمذي (حديث ٢٠١٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

النداء من وراء الحجرات، فقد قال الزمخشري في «الكشاف»: والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ، وكانت لكل واحدة منهن حجرة، ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات، متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة، فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالًا لرسول الله ﷺ؛ ولمكان حرمته، والفعل - وإن كان مسندًا إلى جميعهم - فإنه يجوز أن يتولّاه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعًا.

❁ ❁ ❁

س: من هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤]؟

ج: هم جملة الأعراب من بني تميم.

❁ ❁ ❁

س: من القائل: «يا محمد، إن مدحي زين، وإن ذمي شين»؟

ج: هذا القول منسوب إلى الأقرع بن حابس رضي الله عنه، فقد أخرج أحمد[1] في مسنده من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس: أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فقال: يا رسول الله، فلم يجبه رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ألا إن مدحي زين، وإن ذمي شينٌ فقال رسول الله ﷺ - كما حدَّث أبو سلمة: - «ذاك الله عز وجل»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) أحمد في المسند (٣/ ٤٨٨).

(٢) في إسناده ضعف،، ووجه هذا الضعف هو: الانقطاع الذي ذكره بعض أهل العلم بين أبي سلمة بن عبد الرحمن والأقرع بن حابس، وكما في «تعجيل المنفعة».

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

[الحجرات: ٦-٨]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿بِنَبَإٍ - بِجَهَٰلَةٍ - لَعَنِتُّمْ - زَيَّنَهُۥ - ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بِنَبَإٍ﴾	خبر
﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾	بخطأ
﴿لَعَنِتُّمْ﴾	العنت وهو الإثم، والوقوع في الأمر الشاق
﴿زَيَّنَهُۥ﴾	حسَّنه
﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾	المستمسكون بدينهم على صلابةٍ فيه والرشاد: هو الصخر

❁ ❁ ❁

التثبت من الأخبار

س: من شأن المؤمن أن يكون عاقلًا متريثًا متأنيًا في أموره. اذكر من الأدلة ما يوضح هذا المعنى ويحث عليه.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤].

وقول النبي ﷺ: «التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة»[(١)].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»[(٢)].

وها هو رسول الله ﷺ يقول لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١٠)، وفي سنده كلام ولكن والذي بعده يصحان لشواهدهما.

(٢) أخرجه البيهقي (١٠/ ١٠٤)، وكما قدمت فهو والذي قبله فيهما كلام لكن يصحان لشواهدهما.

(٣) أخرجه مسلم (حديث رقم ١٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

ويسأل النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة - لما صدر منه الذي صدر من إرسال رسالة إلى المشركين يخبرهم فيها بأمر رسول الله ﷺ فيقول له النبي ﷺ: «يا حاطب، ما حملك على ما صنعت؟»[١].

فهي -أعني قوله: «ما حملك على ما صنعت؟»- كلمةٌ ينبغي أن تكون شعارًا يرفعه المؤمن إذا فعل أخوه المؤمن شيئًا مشينًا، أو إذا كان قاضيًا يقضي بين العباد!!

وهي كلمة قالها الرسول ﷺ لحاطب لما أرسل رسالة إلى المشركين يخبرهم فيها ببعض أمر رسول الله ﷺ[٢].

وقد ذكر بعض العلماء أن سبب قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤]. هو أن داود عليه السلام قضى للخصم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر.

قال تعالى: ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: ٢١-٢٤].

وإذا جاءك شخص صالح بخبر فهل لك أن تتثبت؟ أم تقبله فورًا؟

الظاهر - والله أعلم - أننا في الأصل نقبله لصلاح هذا الرجل وعدالته، أما إذا كان الخبر مستغربًا، أو كان الرجل قد انفرد بالخبر عن الناس، أو أن الخبر يعارض أشياء ثوابت عندك مدعمة بأدلتها، أو كان الرجل بينه وبين قوم شحناء ونقل خبرًا عنهم، أو إذا كان هذا الصالح متسرعًا في تلقي الأخبار ونشرها. إلى غير ذلك من الأسباب، فلك حينئذٍ أن تتثبت وأن تطلب المزيد من القرائن والأدلة؛ فقد يكون هذا الرجل الصالح هو في نفسه مغفلًا في نقل الأخبار وغير ضابط لها، وقد يكون

(١) صحيح، وسيأتي قريبًا إن شاء الله.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٢٤٧)، ومسلم (حديث ٢٤٩٤) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعًا.

س: فيمن نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [الحجرات: ١]؟ وما سبب هذا النزول؟ وكذلك فيمن نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ...﴾ [الحجرات: ٢]؟

ج: نزلت هذه وتلك في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

أخرج البخاري[١] من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، حتى انقضت.

وأخرج البخاري[٢] أيضًا من طريق ابن أبي مليكة[٣] قال: كاد الخيران أن يهلكا- أبو بكر وعمر رضي الله عنهما - لما قدم على النبي ﷺ وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع بن حابس التميمي الحنظلي أخي بني مُجاشع، وأشار الآخرُ بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

قال ابن أبي مليكة قال ابن الزبير: فكان عمر بعدُ - ولم يذكر ذلك عن أبيه - يعني أبا بكر - إذا حدَّث النبي ﷺ بحديث حدثه كأخي السِّرار، لم يُسمعه حتى يستفهمه.

❀ ❀ ❀

---

(١) البخاري (حديث ٤٣٦٧).

(٢) البخاري (٧٣٠٢).

(٣) وهذا صورته صورة المرسل، وقد ورد عند الترمذي (٣٢٦٦) من طريق مؤمل بن إسماعيل: حدثنا نافع بن عمر بن جُميل الجمحي، حدثني ابن أبي مليكة، حدثني عبد الله بن الزبير.. فصرح ابن أبي مليكة بتحديث ابن الزبير له فاتصل السند بذلك، لكن مؤمل في حفظه شيء إلا أن الحديث تشهد له الرواية الأولىٰ التي قدمناها. والله أعلم.

ورسولنا ﷺ أيضًا لما بلغه عن الأنصار خبرٌ يوم حنين جمعهم وسألهم عن الخبر الذي نُقل عنهم.

وثم جملة وقائع في هذا الباب تفيد ما ذكرناه من أنه قد يكون هناك ما يدعو إلى التثبت من خبر الرجل الصالح أيضًا، إن احتاج الأمر إلى ذلك.

وليس هذا من باب رد خبر الواحد، فخبر الواحد العدل الضابط مقبول بشروطه المعروفة في كتب المصطلح.

وينبغي أن يتثبت الشخص من الأخبار التي تصله عن إخوانه أهل الإيمان.

فالشائعات تنتشر في أوساط أهل الصلاح، شائعات لا أصل لها ولا أساس. تجد من يروجها ويتلقاها عنه آخرون بالبث والنشر والإفشاء.

ألا ترى أن خير القرون وأصحاب رسول الله ﷺ تفشت في كثير منهم تلكم المقولة الخبيثة والفرية العظيمة ألا وهي قذف أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - الطيبة الطاهرة، ورميها بصفوان بن المعطل السلمي، وكان الذي تولى كبر هذه الفرية عبد الله بن أُبي بن سلول وتلقاها عنه صحابة كان في كثير منهم فضل ولهم سوابق خير في الدفاع عن رسول الله ﷺ كمسطح بن أُثاثة الذي شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ وكحسان بن ثابت الذي كان يُنافح ويدافع بشعْرِه عن رسول الله!! وكحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش رضي الله عنها!!

وها هو حديث آخر يوضح كيف أن الصحابيات كن يتحدثن فيما بينهن بأمور لا أصل لها ولا أساس:

فها هي أم حبيبة تعرض على رسول الله ﷺ أختها كي يتزوجها فيتعجب من ذلك رسول الله ﷺ فيقول لها: «أو تحبين ذلك؟» فتقول: لست لك بمخلية (أي: لست بتاركة، ولا مفارقة) ولكن أحب من شاركني في خير أختي، فيقول لها النبي ﷺ: «إنها لا تحل لي» فتقول: فإنا نتحدث يا رسول الله أنك ستنكح زينب ابنة أم سلمة!! فيقول عليه الصلاة والسلام: «بنت أبي سلمة؟!» فتقول أم حبيبة: نعم يا رسول الله.

فيقول عليه الصلاة والسلام: «إنها لو لم تكن ربيبة في حجري ما حلت لي؛ إنها ابنة أخي من الرضاعة أرضعتني وأبا سلمة ثويبة».

وها هو نص الحديث بذلك:

أخرج البخاري[(١)] من حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله، أنكح أختي بنت أبي سفيان، قال: «وتحبين؟» قلتُ: نعم لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: «إن ذلك لا يحل لي» قلت: يا رسول الله، فوالله إنا لنتحدث أنك تريد أن تنكح دُرَّة بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟!» فقلت: نعم، قال: «فوالله لو لم تكن في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن».

فانظر إلى تحدثهن بأحاديث بناء على ظنونهن، أحاديث ليس لها أساس ولا أصل.

وأحيانًا يكون للحديث أساس لكن يتوسع فيه ويزاد عليه ما ليس منه، فإذا رددته إلى أصله تبين لك الصحيح منه من السقيم.

ومن ذلك أن النبي ﷺ آلى من نسائه: «أي: أقسم ألا يدخل عليهن شهرًا» واعتزلهن عليه الصلاة والسلام في مشربةٍ له، فتحدث الناس بذلك، وزادوا فيه: أن النبي ﷺ طلَّق أزواجه. إلى أن جاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستأذن على رسول الله ﷺ وسأله: هل طلقت نساءك يا رسول الله؟ فقال: «لا»، فكبر عمر، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وها هو الحديث بذلك[(٢)]:

أخرج مسلم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد، فإذا الناسُ ينكتون بالحصى ويقولون: طلَّق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، فقال عمر: فقلت: لأعلمن ذلك اليوم قال: فدخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول

(١) البخاري (حديث ٥١٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٤٧٩).

الله ﷺ؟ فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب؟ عليك بعيبتك[١] قال: فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته[٢] في المشربة[٣]. فدخلت فإذا أنا برباح - غلام رسول الله ﷺ - قاعدًا على أسكفة[٤] المشربة، مدلٍّ رجليه[٥] على نقير[٦] من خشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله وينحدر فناديت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ فلم يقل شيئًا ثم قلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليَّ فلم يقل شيئًا، ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرْب عنقها لأضربن عنقها ورفعت صوتي، فأومأ إليّ أن ارقه[٧]، فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجعٌ على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثَّر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظًا[٨] من ناحية الغرفة وإذا أفيق[٩]

---

(١) عليك بعيبتك: المراد عليك بوعظ ابنتك حفصة، قال أهل اللغة: العيبة في كلام العرب: وعاء يجعل الإنسان فيه أفضل ثيابه ونفيس متاعه فشبهت ابنته بها.

(٢) خزانته: الخزانة مكان الخزن، كالمخزن، وما يخزن فيه يسمىٰ خزينة.

(٣) المشربة: قال في «المصباح»: بفتح بالميم والراء الموضع الذي يشرب منه الناس، وبضم الراء وفتحها: الغرفة.

(٤) أسكفة: وهي عتبة الباب السفلىٰ.

(٥) مد رجليه: أي مرسلها.

(٦) نقير: أي علىٰ شيء من خشب نقر وسطه حتىٰ يكون كالدرجة، قال النووي: هذا هو الصحيح الموجود في جميع النسخ، وذكر القاضي أنه بالفاء، بدل النون وهو فقير بمعنىٰ مفقور، مأخوذ من فقار الظهر، وهو جذع فيه درج.

(٧) أن أرقه: أي أشار إلىٰ رباح بالصعود إلىٰ المشربة بواسطة ذلك الجذع المنقور كالسلم. فـ«أن» تفسيرية. و«ارقه» أمر من الرقي. والهاء في آخره للسكت، وفي الكلام حذف تقديره: فرقيت فدخلت.

(٨) قرظًا: القرظ: ورق من السَلَم يدبغ به.

(٩) أفيق: هو الجلد الذي يتم دباغه، وجمعه أَفَق، كأديم وأَدَم، وقد أفق أديمه يأفقه.

معلق، قال: فابتدرت عيناي[١]، قال: «**ما يبكيك يا بن الخطاب؟**»، قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثَّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك، فقال: «**يا بن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟**»، قلت: بلى، قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإذا كنت طلَّقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت -أحمدُ الله- بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

وكانت عائشة رضي الله عنها بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أطلقتَهن؟ قال: «**لا**»، قلت: يا رسول الله، إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزلُ فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: «**نعم، إن شئت**»، فلم أزل أحدِّثه حتى تحسَّر الغضب[٢] عن وجهه وحتى كشر[٣] فضحك وكان من أحسن الناس ثغرًا، ثم نزل نبي الله ونزلت، فنزلت أتشبث[٤] الجذع، ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده، فقلت: يا رسول الله، إنما كنت في الغرفة تسعةً وعشرين، قال: «**إن الشهر يكون تسعًا وعشرين**»، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ

---

(١) فابتدرت عيناي أي: لم أتمالك أن بكيت حتىٰ سالت دموعي.

(٢) تحسر الغضب أي: زال وانكشف.

(٣) كشر أي: أبدىٰ أسنانه تبسمًا ويقال: أيضًا في الغضب.

قال ابن السكيت: كشر وبسم وابتسم وافترّ، كله بمعنىٰ واحد، فإن زاد قيل: قهقه وزهزق وكركر.

(٤) أتشبث أي: مستمسكًا بذلك الجذع، الذي هو كالسلم للغرفة. قاله النووي.

ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣] . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر وأنزل الله عزَّ وجلَّ آية التخيير.

فالشائعات والأراجيف تنتشر في أوساط الناس بصورة سريعة بل في غاية السرعة انتشار النار في الهشيم.

ومن ثم استعملها أهل النفاق للنيل من المؤمنين ولتفتيت وحدتهم وتفريق كلمتهم وتشتيت شملهم، ومن ثم قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

❁ ❁ ❁

سبب نزول الآية الكريمة

﴿ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ... ﴾

وبعض الأحكام المتعلقة بالفسق

س: ما سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ .. ﴾ [الحجرات: ٦].

ج: سبب النزول هو فيما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى(١) بإسناد حسن لشواهده من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه قال: « قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل إلى رسول الله ﷺ رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد

---

(١) أحمد (٤/ ٢٧٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٧٤-٢٧٥)، وله شواهد يُحسن بها، انظر معجم الطبراني الكبير (١٨/ ٦-٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٤-٥٥).

وهذه الطرق، وإن كانت مفاريدها لا تخلو من مقال، لكن يشد بعضها بعضًا.

رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأته فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله - عزَّ وجلَّ - ورسوله فدعا بروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتًا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: « منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ». قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسولَ رسولِ الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله. قال: فنزلت الحجرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ..﴾ [الحجرات: ٦] دليل على ما قرره أهل السنة والجماعة من أن هناك فسقًا دون فسق وضح ذلك. وأيده بمجموعة من الأدلة.

ج: إيضاحه أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ..﴾ [الحجرات: ٦]. قد نزل في رجل مسلم كما تقدم، فدل ذلك على أنه قد يوصف مُسلم بالفسق وقد ورد ما يؤيد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾

[الحجرات: ١١]. فعلى أحد الأقوال: بئس أن يتسمى الرجل المسلم بفاسق بعد أن كان مؤمنًا.

وكذلك في حديث الرسول ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[(١)]، ففيه ما يفرِّق بين الفسق والكفر.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: ٤]، فالقاذف لا يستلزم أن يكون كافرًا.

فهذه نصوص فيها أطلق الفسق على المسلم والكافر.

وثمَّ نصوص أطلق الفسق فيها وأُريد به الكفر، كما في قوله تعالى في شأن قوم فرعون: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: ٥٤]، فقوم فرعون كفار بلا نزاعٍ، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: ٤٦].

وكذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وكما هو معلوم فالخلود في النار لا يكون إلا للكفار؛ وذلك لقوله تعالى في الحديث القدسي: «وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله»[(٢)].

فاستفيد من ذلك كله أن هناك فسقًا بمعنى الكفر، وفسق دون ذلك، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: هل تُقبل شهادة الفاسق؟

ج: الأدلة من كتاب الله عزَّ وجلَّ تدل على أن شهادة الفاسق مردودة.

وبهذا قال كثير من أهل العلم.

فمن هذه الأدلة ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: ٤].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٧٦)، ومسلم (حديث ٦٤) من حدث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم (ص ١٨٤).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ...﴾[الحجرات: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾[الطلاق: ٢].

هذا وقد قال الشنقيطي رحمه الله تعالى[1]: وأما شهادة الفاسق فهي مردودة كما دلت عليه آية النور المذكورة آنفًا.

❁ ❁ ❁

س: هل المسلمون كلهم عدول؟

ج: لا يلزم أن يكون المسلمون كلهم عدولًا؛ فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾[النور: ٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ...﴾[الحجرات: ٦].

والآية نزلت في كل مسلمٍ كما تقدم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الآية دليل على فساد قول من قال: إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحة لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة.

❁ ❁ ❁

س: لماذا يُخصص الفاسق بالتثبت من خبره؟

ج: قال سيد قطب رحمه الله تعالى[2] في تفسيره «الظلال»:

ويخصص الفاسق؛ لأنه مظنة الكذب؛ وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها. فالأصل

---

(١) أضواء البيان.

(٢) هناك بعض المواطن في تفسير «الظلال» عليها جملة من المآخذ، ولكن هذا لا يمنعنا من أخذ ما أصاب فيه مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعفا عنه.

في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، أن تكون أنباؤهم مأخوذًا بها، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق، فتصيب قومًا بظلم عن جهالة وتسرع، فتندم على ارتكاب ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع.

❁ ❁ ❁

س: لماذا لم يأمر الله سبحانه برد خبر الفاسق مطلقًا بل أمر بالتثبت؟

ج: لأن بعض الفساق قد يصدقون.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «التفسير القيم»:

وها هنا فائدة لطيفة: وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه وشهادته جملة وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته.

وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة ولا سيما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة أو مرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا﴾ قراءتان، وضحهما؟

ج: أما القراءة الأولى فهي ﴿فَتَبَيَّنُوٓا﴾ وهي قراءة الأكثرين، أما حمزة والكسائي فقراءتهما: (فتثبتوا).

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ...﴾ [الحجرات: ٧].

ج: هذا، والله أعلم، خبرٌ المراد منه التحذير، أي: فاحذروا أن تقولوا الكذب،

وأن تفتروا الباطل؛ فإن الله يُخبر نبيه ﷺ بأخبـاركم، ويعرفـه أنبـاءكم، ويرشـده إلى الصواب في أموره.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ...﴾ [الحجرات: ٧].

ج: المعنى، والله أعلم، أن رسول الله ﷺ لو يطيع أصحابه في كثير مـن الأمـور التي يختارونها، والآراء التي يتبعونها، ويُمضيها وينفذها كما أرادوا لحلَّ بهم العنت ولنزلت بهم المشقة.

❁ ❁ ❁

س: قد يأتي الأمر في صورة الخبر. اذكر أمثلةً لذلك.

ج: من مجيء الخبـر في صـورة الأمـر قولـه تعـالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧]. فهذا خبر وإعلامٌ للصحابة بأن فيهم رسول الله ﷺ، ولكن المراد فيه: الحث على توقيره وإجلاله وتقديره واحترامه وامتثال أمره والانقياد لسنته.

وكمثال آخر لمجيء الأمر في صورة الخبر قولـه تعـالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، أي: أمنوا أيها الناس من دخل الحرم.

وكمثال ثالث في قوله تعالى في شأن قطاع الطرق التـائبين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤]، أي: فاغفروا لهم فإن الله غفور رحيم.

❁ ❁ ❁

الخير في اتباع سنة رسول الله ﷺ

س: في قوله تعـالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[1] [الحجرات: ٧] حـث علـى

(١) أخـرج الطـبري (٣١٦٩٣) بإسـناد حسـن عـن قتـادة قـال في قولـه تعـالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧].. حتىٰ بلغ ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ هؤلاء أصحاب نبي الله ﷺ لـو أطاعهم نبي الله في كثير مـن الأمر لعنتم، فأنتم والله أسخف رأيًا، وأطيش عقولًا، اتهم رجل رأيه، وانتصح كتاب الله؛ فإن كتاب الله ثقة لمن أخذ به، وانتهىٰ إليه، وإن ما سوىٰ كتاب الله تغرير.

اتباع الكتاب والسنة. وضح ذلك وبيِّن وجه ذلك.

ج: إيضاح ذلك: أن المؤمنين لو تركوا لاختيارهم يختارون لأنفسهم في كثيرٍ من الأحيان ما هو أشق وأصعب، وإن كان ظاهره عندهم السهولة واليسر، واختيارهم هذا إنما هو لقلة علمهم بالأمور ومآلها وإلى ماذا ستنتهي، ولكن رب العزة سبحانه وتعالى يعلم ما لا نعلم، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، وكما قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وها هو الخضر يصنع ما صنع أمام موسى عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، وكل ذلك ظاهره الشر، ولكن كان المآل إلى خيرٍ.

ويقول الخَضِرُ لموسى: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر»[(١)].

فيأمرنا ربنا دائمًا بما فيه خيرٌ لنا في دنيانا وأُخرانا، ويوصى نبيه أن يخبرنا بذلك في سنته، فلو أننا قدمنا آراءنا وأقوالنا على قول الله وقول رسول الله ﷺ لاخترنا لأنفسنا الأشق والأعسر، فمن ثمَّ لزمنا أن نطرح آراءنا وأقوالنا، ونقدم قول الله وقول رسوله ﷺ؛ لما في اتباعهما من الخير والرحمة بنا؛ فربنا سبحانه أرحم بنا من أنفسنا، ونبينا ﷺ حريص علينا وبنا رؤوف رحيم.

هذا، وإن كان قوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحجرات: ٧] موجه لأصحاب النبي ﷺ الذين هم خير القرون وخير أمة أخرجت للناس، فنحن من باب أولى، فلا يسعنا إذن إلا السمع والطاعة لخالقنا ومولانا، ثم الامتثال لأمر نبينا محمد ﷺ.

وها هي جملة من الأمثلة تدل على أن رسول الله ﷺ لو أطاعنا في كثير من الأمر لنزل بنا العنت ولحلّت بنا المشقة.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

مسألة الوصال في السفر

فقد نهى النبي ﷺ أصحابه عن الوصال في السفر فقالوا: إنك تواصل وأبوا إلا أن يواصلوا فواصل بهم فشق ذلك عليهم، ثم واصل بهم كالمنكل لهم، ثم نهاهم عن الوصال فانتهوا، وها هو الحديث بذلك:

أخرج البخاري ومسلم[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، فقال رجل من المسلمين: فإنك يا رسول الله تواصل! قال رسول الله ﷺ: «وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني». فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم يومًا، ثم رأوا الهلال. فقال: «**لو تأخر الهلال لزدتكم**» كالمنكل لهم حين أبوا أن ينتهوا.

ويوم الطائف كذلك لما حاصرها رسول الله ﷺ وشاء الله أن لا تفتح أمر النبي ﷺ أصحابه بالانصراف أمر إرشاد فأبوا فقاتلوا من الغد فقتل فريق وجُرح آخر، فأمر بالانصراف فانصرفوا، وها هو الحديث بذلك:

أخرج البخاري ومسلم[٢] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف. فلم ينل منهم شيئًا[٣]؛ فقال: «**إنا قافلون**[٤]، إن شاء

---

(١) البخاري (حديث ٦٨٥١)، ومسلم (حديث ١١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (حديث ١٧٧٨).

(٣) قال محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه على «مسلم»: قوله: «فلم ينل منهم شيئًا» أي: لم يصبهم بشيء من موجبات الفتح لمناعة حصنهم. وكانوا، كما ذكره ابن حجر، قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة.

(٤) فقال: «**إنا قافلون**»: أي: نحن راجعون إلى المدينة. فثقل عليهم ذلك. فقالوا: نرجع غير فاتحين! فقال لهم ﷺ: «**اغدوا على القتال**». أي: سيروا أول النهار لأجل القتال. فغدوا فلم يفتح عليهم وأصيبوا بالجراح؛ لأن أهل الحصن رموا عليهم من أعلى السور، فكانوا ينالون منهم بسهامهم، ولا تصل سهام المسلمين إليهم. وذكر في الفتح: أنهم رموا على المسلمين سكك الحديد المحماة. فلما رأوا ذلك تبين لهم تصويب الرجوع فلما أعاد ﷺ، عليهم القول بالرجوع أعجبهم حينئذ.

وقال الإمام النووي رحمه الله: معنى الحديث أنه ﷺ قصد الشفقة على أصحابه والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره، وشدة الكفار الذين فيه، وتقويتهم بحصنهم. مع أنه ﷺ علم أو رجا أنه سيفتحه بعد هذا، بلا مشقة كما جرى، فلما رأى حرص أصحابه على المقام والجهاد أقام وجدَّ في القتال، فلما أصابتهم الجراح=

الله». قال أصحابه: نرجع ولم نفتتحه! فقال لهم رسول الله ﷺ: «اغدوا على القتال»، فغدوا عليه فأصابهم جراح، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غدًا». قال: فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله ﷺ.

وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما لما قال له رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر»، وقال: إني أطيق أكثر من ذلك، فآل به الأمر إلى أن قال له: «اقرأه في سبع ولا تزد عن ذلك»، وقال له في شأن الصيام آخر ما قال: «صم صوم داود صم يومًا وأفطر يومًا»، ففي آخر عمره (أعني: عُمر عبد الله بن عمرو بن العاص) كان يقول: ياليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وما ذاك إلا لكونه قد شق عليه في آخر عمره طول الصيام وكثرة القراءة، وها هو الحديث بذلك[1].

أخرج البخاري ومسلم[2] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال - والسياق لمسلم -: أخبر رسول الله ﷺ أنه يقول: لأقومن الليل ولأصومن النهار، ما عشت. فقال رسول الله ﷺ: «أنت الذي تقول ذلك؟»، فقلت له: قد قلته، يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «فإنك تستطيع ذلك. فصم وأفطر، ونم وقم. وصم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر». قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك. قال: «صم يومًا وأفطر يومين». قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله. قال: «صم يومًا وأفطر يومًا. وذلك صيام داود -عليه السلام- وهو أعدل الصيام». قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك. قال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك».

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ من أهلي ومالي.

= رجع إلىٰ ما كان قصده أولًا من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا من المشقة الظاهرة. ولعلهم نظروا فعلموا أن رأي النبي ﷺ أبرك وأنفع وأحمد عاقبة وأصوب من رأيهم، فوافقوا علىٰ الرحيل وفرحوا، فضحك النبي ﷺ تعجبًا من سرعة تغير رأيهم.

(١، ٢) البخاري (١٩٧٩) مختصرًا، ومسلم مطولًا (١١٥٩) واللفظ له.

في بعض ألفاظ الحديث عند مسلم: وقال لي النبي ﷺ: «إنك لا تدري لعل يطول بك عُمر».

ويقول الله سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

فالصحابة اختاروا الذي هو أدنى، وهو العير، ولكن الله اختار لهم النفير وهو الأفضل والأعلى والأكمل[1].

وقد قبل رسول الله ﷺ وأصحابه الفدية من أُسارى بدر، فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[2] [الأنفال: ٦٨].

وقد ينهى رسول الله ﷺ عن أمرٍ ويستثقل هذا النهي فريق من الناس لكنه لو رأى أبعاد هذا النهي لاطمأن إلى ذلك واستراح.

فمثلًا نهى رسول الله ﷺ عن مصافحة النساء[3]، فقد يستثقل ذلك بعض

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند تفسير الآية المذكورة من سورة الأنفال إن أردت تفصيلًا.

(٢) وذلك فيما أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ففيه قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»، فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة؟ أرى أن تأخذ منهم فدية؛ فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا. والله يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنَّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنِّي من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا برسول الله ﷺ وأبي بكر قاعدان يبكيان. قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]. فأحل الله الغنيمة لهم.

(٣) وهذه بعض الأدلة على ذلك:

أخرج البخاري (مع الفتح ٨/ ٦٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك».

وعند مالك في الموطإ (ص٩٨٢) من حديث أميمة بنت رقيقة: أن رسول الله ﷺ قال: «إني لا أصافح النساء».

وأخرج الطبراني (المعجم الكبير ٢٠/ ٢١١) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يُطعَنَ في رأس أحدكم بمخيط من حديد خيرٌ له من أن يمس امرأة لا تحل له»، وإسناده حسن.

الناس، ولكنه لو رأى بعد ذلك مثلًا أن مصافحة رجل أجنبي لامرأة جاره آلت بهما إلى الوقوع في الزنا، فيحمد حينئذٍ حديث رسول الله ﷺ؛ إذ قد حفظ له رسول الله ﷺ عرضه.

ونحو ذلك في النهي عن الخلوة بالأجنبية[1]، فقد يستثقل البعض حديث

(١) أخرج البخاري (مع الفتح ٩/ ٣٣٠)، ومسلم (١٦/٥) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**»[1] فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو[2]؟ قال: «**الحمو الموت**».

وأخرج البخاري في صحيحه (الفتح ٩/ ٣٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم**».

---

(١) قال النووي رحمه الله (١٦/٥): في هذا الحديث والأحاديث بعده تحريم الخلوة بالأجنبية وإباحة الخلوة بمحارمها، وهذان الأمران مجمع عليهما.

(٢) أخرج مسلم (١٧/٥) بسنده الصحيح إلى الليث بن سعد أنه قال: الحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج؛ ابن العم ونحوه.

قال النووي رحمه الله: اتفق أهل اللغة على أن الأحماء أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم، والأختان: أقارب زوجة الرجل، والأصهار يقع على النوعين.

أما قوله ﷺ: «**الحمو الموت**» (فمعناه: أن الخوف منه أكثر من غيره والشر منه والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن يُنكر عليه بخلاف الأجنبي. والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت، وإنما المراد: الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم، وعادة الناس المساهلة فيه ويخلو بامرأة أخيه، فهذا هو الموت، وهو أولى بالمنع من الأجنبي لما ذكرناه، فهذا الذي ذكرته هو صواب معنى الحديث، والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أقوالًا في الحمو (انظر «الفتح» ٩/ ٣٣١). وذكر في معنى قوله: «**الحمو الموت**» عدة أقوال فقال: قيل: المراد أن الخلوة بالحمو قد تؤدي إلى هلاك الدين إن وقعت المعصية، أو إلى الموت إن وقعت المعصية ووجب الرجم، أو إلى هلاك المرأة بفراق زوجها إذا حملته الغيرة على تطليقها أشار إلى ذلك كله القرطبي، وقال الطبري: المعنى أن خلوة الرجل بامرأة أخيه أو ابن أخيه تنزل منزلة الموت، والعرب تصف الشيء المكروه بالموت. قال ابن الأعرابي: هي كلمة تقولها العرب مثلًا كما تقول: الأسد الموت أي: لقاؤه فيه الموت، والمعنى: احذروه كما تحذرون الموت...، وذكر الحافظ أقوالًا ثم قال: وقال القرطبي في «المفهم»: المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة أي: فهو محرم معلوم التحريم، وإنما بالغ في الزجر عنه وشُبِّهَ بالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة لإلفهم بذلك حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة، فخرج هذا مخرج قول العرب: الأسد الموت، والحرب الموت، أي: لقاؤه يفضي إلى الموت، وكذلك دخوله على المرأة قد يفضي إلى موت الدين أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج أو إلى الرجم إن وقعت الفاحشة... إلخ.

رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء»، فقال رجل: أفرأيت الحمو يا رسول الله؟ قال: «الحمو الموت».

فيقول القائل: لماذا أمنع أخي من الدخول على زوجتي، ثم يُفاجأ بأن شخصًا ما قد ارتكب الفاحشة مع زوجة أخيه، فحينئذٍ يُوقن بحديث رسول الله ﷺ ويطمئن له[1].

❀ ❀ ❀

س: ما وجه الربط بين قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ...﴾ [الحجرات: ٧] وما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]؟

ج: وجه الربط أن يقال: إن من مقتضيات الإيمان الذي حببه الله إلى قلوبكم ألا يقع منكم إلا الأعمال الصالحة وترك التسرع في الأخبار.

ومن العلماء من قال: إن هؤلاء المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]. غير المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فتح القدير»: والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان وتوجبه محبته التي جعلها الله في قلوبهم، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

---

(١) وأخرج الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٨) بسند صحيح[1] من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خطب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال: «استوصوا بأصحابي خيرًا ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يَفشُو الكذبُ حتىٰ إن الرجل ليبتدئ بالشهادة قبل أن يُسألها. فمن أراد منكم بَحبحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد، لا يخلُونَّ رجلٌ بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن».

---

(١) وإن شئت أن تنظر تخريجه بتوسع فانظر «المنتخب لعبد بن حميد» بتحقيقي.

المهتدي من هداه الله

س: المهتدي للإيمان والطاعة من هداه الله، والزائغ من أزاغه الله. دلِّل على هذا الأصل.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾[الحجرات: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[يونس: ٩٩].

وأيضًا فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[يونس: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾[السجدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[القصص: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ويقول أهل الإيمان يوم القيامة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ...﴾[الأعراف: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٦].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾

[الرعد: ٣١].

وفي الحديث القدسي: «كلكم ضال إلَّا من هديته»[(١)].

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا»[(٢)].

وكذلك الإضلال:

قال الله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[إبراهيم: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾[الكهف: ١٧].

وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾[هود: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾[الشورى: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦﴾[الزمر: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾[الجاثية: ٢٣].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في هذا الباب، فإذا علم الشخص هذا اطمأن قلبه وطلب من الله الإيمان والهداية، وأدى ما أوجبه الله عليه تجاه الناس، ودعا لهم بالتوفيق والهداية، وأخذ بيد ضالهم وعلَّم جاهلهم وخفض جناحه لأهل الإيمان، ولكن مع ذلك لا تذهب نفسه حسرات على من انتكس منهم، ولا تتقطع

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ - فيما يروي عن الله تبارك وتعالىٰ - أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلَّا من هديته فاستهدوني أهدكم...». الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (حديث ١٨٠٣)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما مرفوعًا.

نفسه على من أصر على الكفر والعناد، فأمر الهداية مرده إلى الله سبحانه وتعالى كما قدمنا.

وها هو رسول الله ﷺ يبذل قصارى جهده مع عمه أبي طالب ويقول له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله سبحانه وتعالى»، ويكررها عليه رسول الله ﷺ[1] ويأبى عمه إلا الكفر عياذًا بالله.

ورسول الله ﷺ عاقل حكيم رشيد سديد في قوله وفعله؛ لكن مع ذلك أمر الهداية ليس له، إنما إلى الله سبحانه وتعالى.

وها هو نوح عليه الصلاة والسلام يُنادي ولده: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ [هود: ٤٢]، فلا يُجدي نداءُ نوحٍ مع هذا الولد الشقي، فيقول ولده: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: ٤٣]، ويحول الموج بينهما فيكون هذا الولد الشقي من المغرقين، وممن ماتوا على الكفر عياذًا بالله.

وتأخذ نوح الشفقة على ولده فينادي: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود: ٤٥]، فيقول الله له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: ٤٦].

وكذلك لم يستطع نوحٌ عليه السلام لزوجته هدايةً وتوفيقًا، قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: ١٠].

---

(١) أخرج البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (حديث ٢٤)، من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليها، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال: قال رسول الله ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وها هو لوط ﷺ لم يستطع لزوجته هداية ولا توفيقًا، بل قدر الله عزَّ وجلَّ عليها أنها من الغابرين.

وهذا هو إبراهيم الخليل ﷺ يبذل ما في وسعه مع أبيه ويدعوه ويُناديه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم: ٤٢-٤٥]، فلا تُجدي مع هذا الغوي نصائح ولده الرشيد، فيقول لولده: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: ٤٦].

والله هو الذي يشرح الصدور للإسلام:

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

هو سبحانه الذي يثبِّت على الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»[1].

ويقول أهل الإيمان: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

وهذا هو الخليل إبراهيم ﷺ رغم توحيده وإمامته في التوحيد يقول: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠].

وها هو شعيب عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٢)، من حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه مرفوعًا.

س: وضح المراد بالكفر والفسوق والعصيان.

ج: أما الكفر المراد هنا فهو: الكفر بالله، وأما الفسوق: فالمراد به هنا كما ذكره كثير من العلماء: الكذب[1]، وأما العصيان فهو: المخالفة وفعل ما نهى الله عنه ورسوله، وتضييع ما أمر الله به ورسوله ﷺ.

❁ ❁ ❁

الالتفات في الخطاب

س: في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧] تحول (أو التفات) في الخطاب. وضح ذلك واذكر أمثلة أخرى له.

ج: إيضاحه: أن الخطاب كان للحاضرين في قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ ثم انتقل إلى الخبر والغائب في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾.

ونظائر ذلك متعددة، فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ..﴾ [يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢].

❁ ❁ ❁

س: ما وجه ختام قوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات: ٨]؟

ج: وجه ذلك: حتى لا يعترض معترض فيقول: لماذا حبب الله الإيمان إلى فلان وكرَّهه إلى فلان؟ فيجاب: بأن الله عليم بالمحسن منكم الذي يستحق الإحسان إليه والتفضل عليه بالهداية فيهديه الله، وعليم كذلك بمن يستحق الغواية فيُغوى.

---

(١) وقد تقدم تعريف الفسق بما فيه كفاية، وذكرنا هناك أيضًا أن الفسق: الخروج عن الطاعة.

حكيم في كل شيء، وفي تدبيره لأمور الخلق وتوجيههم إلى ما يشاء من قضائه. مثل هذا الختام يطمئن المؤمن أيما اطمئنان، ويجيبه على كل تساؤل قد يرد على ذهنه: لماذا هدى الله فلانًا وأضل فلانًا؟!

وكذلك في سائر الأبواب، ففي باب الرزق يقول تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى: ٢٧] فختام الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ يجيب على تساؤل قد يرد وهو: لماذا رزق الله فلانًا ولم يرزق فلانًا؟ فيجد الجواب: ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وفي باب الرزق بالأولاد، يقول تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ [الشورى: ٤٩- ٥٠]، ثم يختم الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ فإن سأل سائلٌ: لماذا رزق فلان بالولد ولم أرزق فيجد الجواب: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.



قال الله تعالى:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠ ﴾

[الحجرات: ٩-١٠]

س: اذكر معنى هذه الكلمات:

﴿بَغَتْ - تَفِيٓءَ - فَآءَتْ - وَأَقْسِطُوٓاْ - ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بَغَتْ﴾	اعتدت - تطاولت - ظلمت - رفضت حكم الله
﴿تَفِيٓءَ﴾	ترجع
﴿فَآءَتْ﴾	رجعت
﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾	اعدلوا
﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾	العادلين في أحكامهم، القاضين بين الناس بالقسط

❁ ❁ ❁

س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩].

ج: سبب نزول هذه الآية الكريمة ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال[1]: قيل للنبي ﷺ: «لو أتيت عبد الله بن أُبي؟ قال: فانطلق إليه، وركب حمارًا، وانطلق المسلمون، وهي أرض سبخة[2]. فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فو الله! لقد آذاني نتنُ حمارك. قال: فقال رجل من الأنصار: والله! لحمار رسول الله ﷺ أطيبُ ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجل من قومه. قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه. قال: فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدي وبالنعال. قال: فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٦٩١)، ومسلم (حديث ١٧٩٩).

(٢) الأرض السبخة: هي الأرض التي لا تنبت لملوحتها.

س: على من تطلق الطائفة؟

ج: الطائفة تطلق هنا على الواحد والجمع والاثنين، فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. قاله القرطبي.

❁ ❁ ❁

س: لماذا قيل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ولم يقل: اقتتلتا؟

ج: قيل: ذلك باعتبار كل فردٍ من أفراد الطائفتين، فكل طائفة هي مجموعة أفراد، ونحوه قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[الحج: ١٩]، والضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ.

❁ ❁ ❁

س: اذكر حديثًا في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟...﴾ [الحجرات: ٩].

ج: في معنى ذلك حديث رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «تأخذ فوق يديه»[١]، وفي رواية: «تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»[٢].

❁ ❁ ❁

س: من المُخاطب بقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ [الحجرات: ٩]؟

ج: المخاطب عند جمهور العلماء - بذلك هو إمام المسلمين.

أخرج الطبري[٣] بإسناد صحيح عن ابن زيد قال: في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟...﴾ إلى آخر الآية، قال: هذا أمر من الله، أمر به الولاة كهيئة ما تكون العصبة بين الناس، وأمرهم أن يصلحوا بينهما، فإن أبوْا قاتل الفئة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله، فإذا رجعت أصلحوا بينهما، وأخبروهم أن المؤمنين إخوة، فأصلحوا بين أخويكم، قال: ولا يقاتل الفئة الباغية إلا الإمام.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٤).

(٢) أخرجها البخاري (حديث ٦٩٥٢).

(٣) الطبري أثر (٣١٦٩٨).

بحث سريع في قتال الفئة الباغية

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

ج: قال الشوكاني[١] رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمعنى: إنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ويدعوهم إلى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم وتؤدِّي ما يجب عليها للأخرى.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] ردٌّ على الخوارج وضح ذلك؟ وهل يخرج المؤمن من الإيمان بمعصية؟

ج: وجه هذا: أن الخوارج يرون تكفير المتقاتلين ويستدلون بحديث النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٢]، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٣]، فيحملون مثل هذه الأحاديث على ظاهرها[٤]، ووجه الرد عليهم: أن الله سبحانه وتعالى سمى الطائفتين مؤمنين، بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ فلم يخرجهم من دائرة الإيمان لاقتتالهم، وكذلك قال تعالى في آيات القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فلم يخرج القاتل من الأخوة الإيمانية، وكذلك قال النبي

(١) فتح القدير جـ٥ ص٦٣.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٧٠٧٨)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ١٩٤ ط. المعرفة).

ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[١]، فسماهم النبي ﷺ مسلمين.

فدل ذلك على أن المؤمن لا يخرج من الإيمان بمعصية وإن عَظُمَت، كما دل على ذلك أيضًا قول النبي ﷺ في شأن الحسن بن علي رضي الله عنهما: «ابني هذا سيدٌ، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين»[٢]، فأصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد حروبٍ طويلة ووقائع مهولة، والشاهد من ذلك: أنهما مازالتا مسلمتين مع اقتتالهما.

❁ ❁ ❁

س: أي الطائفتين كانت على الحق، طائفة عليّ أم طائفة معاوية رضي الله عنهما؟

ج: طائفة عليٍّ رضي الله عنه هي التي كانت على الحق، وذلك لأمرين:

أولهما: قول النبي ﷺ في شأن عمار رضي الله عنه: «تقتله الفئة الباغية»[٣]، ومن المعلوم أن عمارًا رضي الله عنه كان يُقاتل في صفوف عليٍّ رضي الله عنه وقد قتلته فئة معاوية رضي الله عنه.

الثاني: قول رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فُرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق»[٤]، وقد مرقت الخوارج فقاتلهم عليٌّ رضي الله عنه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣١)، ومسلم (حديث ٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٦) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرج البخاري (٤٤٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية».
وأخرج مسلم (٢٩١٦) من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية».
ولهذا الحديث عدة طرق عن رسول الله ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم (ص ٧٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا، وله لفظ آخر عند مسلم أيضًا (٧٤٦): «يكون في أمتي فرقتان، فيخرج من بينهما مارقةٌ يلي قتلهم أولاهم بالحق».
قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٦١٩): وفي هذا وفي قوله ﷺ: «تقتل عمارًا الفئة الباغية» دلالة واضحة على أن عليًا ومن معه كانوا على الحق، وأن من قاتلهم كانوا مخطئين في تأويلهم والله أعلم.
قلت: وينضم إلى هذا ما ورد من كمٍّ غزير من أحاديث في فضل عليّ رضي الله عنه منها: «لأعطين الراية اليوم رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فأعطاها عليًا، وحديث: «ومن كنت مولاه فعلي مولاه»، وقول النبي ﷺ لعلي: «اذهب فإن الله تعالى سيثبت لسانك ويهدي قلبك». إلى غير ذلك من الأحاديث.

وقال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانًا»[١].

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[٤].

وقال ﷺ: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[٥].

وقال ﷺ في شأن الغِيبة: «ذكرك أخاك بما يكره»[٦].

وقال عليه الصلاة والسلام في شأن الضرائر: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صفحتها»[٧].

وقال عليه الصلاة والسلام في شأن الخدم: «إخوانكم خولكم»[٨].

وفي البيوع قال ﷺ: «لا يبع الرجل على بيع أخيه»[٩].

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٠٦٤)، ومسلم (حديث ٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٢)، ومسلم (حديث ٢٥٨٠) من حديث ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة».

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (حديث ٢٥٥٩) من حديث أنس ﵁ مرفوعًا.

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٥٦) بإسناد فيه ضعف، ولكن له شاهد عند مسلم (مع النووي ٥/ ٤٨٣) بلفظ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقىٰ أخاك بوجه طلق».

(٥) أخرجه مسلم (حديث ٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن يسر علىٰ معسر؛ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

(٧) البخاري (٥١٥٢)، ومسلم (مع النووي ٣/ ٥٦٥) من حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعًا.

(٨) البخاري (حديث ٣٠) من حديث أبي ذرٍّ ﵁ مرفوعًا.

(٩) البخاري (حديث ٢١٣٩)، ومسلم (حديث ١٤١٢) من حديث ابن عمر ﵄ مرفوعًا.

وقال ﷺ: «أرأيت إن منع الله الثمرة بم تستحل مال أخيك؟!»[١].

وفي الخطبة قال عليه الصلاة والسلام: «ولا يخطب على خطبة أخيه»[٢].

بل وفي المشاكل والشجار قال ﷺ: «إذا قاتل أحدكم أخاه فلا يلطمن الوجه»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح»[٤].

وكان النبي ﷺ دائم التذكير بهذا الأصل في أقواله وأقضيته بين المؤمنين كما أسلفنا، ومن ذلك أيضًا:

قوله ﷺ: «فمن قضيت له بحق أخيه بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار..»[٥].

وقوله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟! قال: «تأخذ فوق يديه»[٦].

وقوله ﷺ في شأن ضالة الغنم: «لك أو لأخيك أو للذئب»[٧].

وقوله ﷺ في التحلل من المظالم: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه..»[٨].

وقوله ﷺ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم..»[٩].

---

(١) البخاري (٢١٩٨)، ومسلم (حديث ١٥٥٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) البخاري (حديث ٥١٤٢)، ومسلم (ص١١٥٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٣) مسلم (مع النووي ٥/ ٤٧١) كتاب البر والصلة من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٤) البخاري (حديث ٧٠٧٢)، ومسلم (٧/ ٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله؛ فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها».

(٦) البخاري (حديث ٢٤٤٤)، وفي رواية: «تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»، (البخاري ٢٩٥٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

وعند مسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.. فذكر حديثًا عن رسول الله ﷺ وفيه: «ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا لينصره».

(٧) البخاري (حديث ٢٤٢٧)، ومسلم (حديث ١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه مرفوعًا.

(٨) البخاري (حديث ٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٩) البخاري (حديث ٦٧٨١) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعًا.

وجاءت جملة نصوص أُخر في هذا المعنى أيضًا:

قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»(١).

قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٢).

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(٣).

وفي رواية ثالثة: «المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله».

وجاءت أيضًا نصوص الكتاب العزيز تؤكد أن المؤمنين نفس واحدة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ...﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا تلمزوا إخوانكم.

وقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، أي: بإخوانهم.

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

قال بعض أهل العلم: على إخوانكم.

فأثبتت هذه النصوص الأخوة بين المؤمنين، ولهذه الأخوة مستلزمات منها كما أسلفنا: أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه(٤)، فكما يحب لنفسه الربح يحب

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) هذه الروايات عند مسلم (حديث ٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) هذه الروايات عند مسلم (حديث ٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) وانظر إلىٰ هذه الخصلة النبيلة من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وحاول واجتهد أن تكون كذلك مع إخوانك ومع المسلمين.

أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد صحيح، عن ابن بريدة الأسلمي قال: شتم رجل ابن عباس، فقال ابن عباس: إنك لتشتمني وفي ثلاث خصال: إني لآتي علىٰ الآية من كتاب الله عز وجل فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم منها، وإني لأسمع بالحكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح وما لي به سائمة. أخرجه الطبراني «المعجم الكبير» (١٠٦٢١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢١-٣٢٢).

لأخيه الربح، وكما يحب أن يُستر عليه، فليحب كذلك أن يستر على أخيه، وكما يدعو لنفسه يدعو لأخيه، وإذا رأى أن يشتد على أخيه، فيشتد على أخيه من أجل مصلحة أخيه ويأخذ على يديه إن رآه يظلم الناس إلى غير ذلك من مستلزمات الأخوة والتوفيق بالله وهو المستعان.

وذلك أيضًا - والله أعلم - كي يتعاطف الناس فيما بينهم فيرحم كبيرهم صغيرهم، ويحنو قويهم على ضعيفهم، ويُعطي غنيهم من ماله لفقيرهم. ويعلم عالمهم جاهلهم، ويرشد المهتدي منهم ضالهم.

وذلك أيضًا لترك التباهي والتفاخر والتعالي فالأصل واحد، وهو آدم عليه السلام وقد خلق من تراب.

ومنها: نبذ العصبيات للقبائل والعشائر والبلدان والمهن والصنائع والألوان والأجناس وغير ذلك من أنواع العصبيات[1].

❁ ❁ ❁

س: ما مدى صحة هذا الحديث وعن تفسير أية آية من سورة الحجرات يرد: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»؟

ج: الحديث أخرجه أحمد[2].

ويرد عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] طريقةٌ مُثلى من طرق التوجيه والإرشاد وضحها، مع تدعيمها بمزيد من الأدلة.

ج: إيضاح ذلك: أن الله عزَّ وجلَّ بيَّن أخوة المؤمنين، ثم رتَّب على هذه الأخوة مستلزماتها، ومنها: الإصلاح بين الإخوة هؤلاء، ونحو هذه الطريقة طريقة تقرير المخاطب بأصول وقواعد، ثم البناء على هذه الأصول والقواعد بعد إقراره، وهي

(١) إلا ما كان منها لله وفي الله سبحانه وتعالى.

(٢) أحمد (٥/ ٣٤٠)، وإسناده ضعيف، ففيه مصعب بن ثابت، وهو ضعيف.

طريقة لها أصلها وأدلتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأفعال العقلاء.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال النبي ﷺ للمشركين في بداية دعوته آخذًا منهم الاعتراف والإقرار بصدقه: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[(١)].

وانظر إلى مقالة الرسول ﷺ للأنصار لما أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يُعط الأنصار شيئًا فكأنهم وجدوا (أي: حزنوا)؛ إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا، فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، ثم قال لهم: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم»... الحديث[(٢)].

وأخرج الإمام أحمد[(٣)] في مسنده من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: «ادنه» فدنا منه قريبًا، قال: فجلس قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك يا رسول الله. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه

(١) البخاري (حديث ٤٧٧٠)، ومسلم (حديث ٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) البخاري (حديث ٤٣٣٠)، ومسلم (حديث ١٠٦١).

(٣) أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٦) بإسناد صحيح.

وحصن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

وها هو عليه السلام يقرر اليهود[١] - قبل إخبارهم بإسلام عبد الله بن سلام - بسيادة عبد الله بن سلام وفضل عبد الله بن سلام.

قال عليه الصلاة والسلام لليهود: «**فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟**» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «**أفرأيتك إن أسلم؟**» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: «**يا ابن سلام، اخرج عليهم**»، فخرج، فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ[٢].

وها هو عروة بن مسعود الثقفي يقول للمشركين قبيل صلح الحديبية قبل أن يشير عليهم بما يراه، وقد كان منهم آنذاك، يقول لهم: ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آتيه.. الحديث[٣].

فانظر إلى استهلاله للحديث، وإلى ذكر مآثره أمامهم حتى ينفي عن نفسه تهمة الخيانة لهم.. ثم حثه لهم على قبول خطة الصلح؛ فحقًّا إنه فقه تعامل، فقه تخاطب مع الناس، يؤتيه الله من يشاء من عباده.

فهي طريقة سلكها العقلاء والتمسها الفضلاء للوصول إلى المراد بالتي هي أحسن.

❁ ❁ ❁

الحثُّ على الإصلاح بين الناس

س: اذكر بعض الوارد في الحث على الإصلاح بين الناس والحث على العدل وبيان شيء من فضل ذلك.

---

(١) لكن التوفيق من عند الله.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) البخاري (حديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان.

ج: من ذلك ما يلي:

الحثُّ على الإصلاح في ثلاثة مواطن في هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١].

أما الأحاديث عن رسول الله ﷺ فمنها ما يلي:

قول النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم[1] في صحيحه: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزَّ وجلَّ - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا».

وأخرج البخاري ومسلم[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل[3] بين الناس صدقة».

وانظر كيف اقترن الوصف بالسيادة مع الإصلاح بين المسلمين؟!

---

(١) مسلم (حديث ١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) البخاري (حديث ٢٧٠٧)، ومسلم (١٠٠٩).

(٣) المراد بالعدل هنا: الإصلاح، وقيل: الإصلاح بالعدل.

وذلك فيما ذكره[١] النبي ﷺ في شأن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال ﷺ: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وفي سنن أبي داود وغيرها بإسنادٍ صحيح من حديث أبي الدرداء[٢] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»[٣].

وقد رخص رسول الله ﷺ للمصلح بين الناس في نوعٍ من الكذب من أجل الإصلاح.

أخرج البخاري ومسلم[٤] من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا».

وقد كان النبي ﷺ يسعى للإصلاح بين الناس جاهدًا في ذلك:

ففي «الصحيح»[٥] من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن ناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناسٍ من أصحابه يُصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأت النبي ﷺ، فأذن بلال بالصلاة ولم يأت النبي ﷺ، فجاء إلى أبي بكر فقال: إن النبي ﷺ حُبس وقد حضرت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس... الحديث.

وفي «صحيح البخاري»[٦] من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم».

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٩).

(٢) أبو داود (٤٩١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (حديث ٣٩١)، والترمذي (٢٥٠٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٦/ ٤٤٤).

(٣) الحالقة: هي الذنب الكبير والمصيبة الكبرىٰ التي تستأصل الدين كما يستأصل الموسىٰ الشعر.

(٤) البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

(٥) البخاري (حديث ٢٦٩٠).

(٦) البخاري (حديث ٢٦٩٣).

س: هل هناك فرقٌ بين الصلح والحكم؟

ج: نعم، هناك فرق في كثير من الأحيان بين الصلح والحكم، فيُتجوز في الصلح فيما لا يتجوَّز فيه في الحكم.

فمن الأول مثلًا: ما ورد من حديث كعب بن مالك[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه تقاضى ابن أبي حدرد دينًا كان له عليه في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته فنادى: «يا كعب» قال: لبيك يا رسول الله، قال: «ضع من دَينك هذا» - وأومأ إليه أي: الشطر - قال: لقد فعلت يا رسول الله، قال: «قم فاقضه».

فهنا حثَّ النبي ﷺ كعب بن مالك على وضع النصف من ماله الذي له عند ابن حدرد، وهو نوع من أنواع الإصلاح. أما القضاء فيستلزم أن يستوفى كعبٌ حقه كاملًا.

وفي الصحيح أيضًا من حديث عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج[٢] الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح[٣] الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فغضب الأنصاري فقال: أن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر»[٤]، فقال الزبير: والله أني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

فهنا أشار عليهما النبي ﷺ بأمرٍ لهما فيه سعة على سبيل الإصلاح بينهما، فلما أبى الأنصاري ذلك استوفى النبي ﷺ للزبير حقه كاملًا، فأمره أن يسقي حتى تمتلئ

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواطن من صحيحه.

(٢) شراج: هو مسيل الماء، أما الحرة: فهي موضع بمدينة رسول الله ﷺ.

(٣) سرح الماء: أي: أطلق الماء، قال الحافظ في «الفتح»: وإنما قال له ذلك؛ لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري، فيحبسه لإكمال سقي أرضه، ثم يرسله إلىٰ أرض جاره، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك فامتنع.

(٤) في رواية للبخاري: واستوعىٰ له حقه.

أرضه بالماء (حتى يرجع الماء إلى الجدر)، ثم يرسله إلى الأنصاري.

وقد بوَّب البخاري لهذا الحديث بباب: إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حُكم عليه بالحكم البين.

وكنحو ذلك الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

جاء في البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها قالت في هذه الآية: الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمتكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حِلٍّ، فنزلت هذه الآية في ذلك[١].

❁ ❁ ❁

س: بوَّب الإمام البخاري رحمه الله تعالى بباب: «إذا اصطلحوا على جور فالصلح مردود»، فمتى يتنزل هذا المعنى؟

ج: من مواطن تنزيل هذا: إذا اصطلحوا على شيءٍ يسقط حدًّا من حدود الله تبارك وتعالى بعد وجوب هذا الحد، وذلك كالذي أخرجه ومسلم[٢] من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: إن رجلًا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله[٣]. فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه[٤]: نعم! فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي. فقال رسول الله ﷺ: «قل»، قال: إن ابني كان عسيفًا[٥] على هذا[٦] فزنى بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٢٧، ٦٨٢٨)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

(٣) (أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله) معنىٰ أنشدك: أسألك رافعًا نشيدي، وهو صوتي. وقوله: بكتاب الله: أي: بما تضمنه كتاب الله.

(٤) (وهو أفقه منه) قال العلماء: يجوز أنه أراد أنه بالإضافة أكثر فقهًا منه. ويحتمل أن المراد: أفقه منه في القضية؛ لوصفه إياها علىٰ وجهها. ويحتمل أنه لأدبه واستئذانه في الكلام وحذره من الوقوع في النهي في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بخلاف الأول في قوله: أنشدك الله؛ فإنه من جفاء الأعراب.

(٥) «عسيفًا»: العسيف وهو الأجير. وجمعه: عسفاء، كأجير وأجراء، وفقيه وفقهاء.

(٦) «علىٰ هذا»: يشير إلىٰ خصمه، وهو زوج مزنية ابنه وكان الرجل استخدمه فيما تحتاج إليه امرأته من الأمور=

الرجم، فافتديت[١] منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله. الوليدة والغنم ردٌّ**[٢]**، وعلى ابنك جلد مائة، وتغريب عام، واغد، يا أنيس**[٣] **إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها**».

قال: فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت.

❁ ❁ ❁

الاستئناف في الأحكام

س: هل يجوز الاستئناف في الصلح والأحكام؟

ج: نعم، يجوز الاستئناف في الصلح والأحكام:

دلَّ على ذلك ما أخرجه البخاري[٤] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ففيه: أن النبي ﷺ قال: «**كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: آتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى**». قال أبو

= فكان ذلك سببًا لما وقع له معها.

(١) «فافتديت»: أي: أنقذت ابني منه بفداء مائة شاة ووليدة، أي: جارية، وكأنه زعم أن الرجم حقٌّ لزوج المزني بها، فأعطاه ما أعطاه.

(٢) «الوليدة والغنم رد» أي: مردودة. ومعناه: يجب ردها إليك. وفي هذا أن الصلح الفاسد يرد، وأن أخذ المال فيه باطل يجب رده، وأن الحدود لا تقبل الفداء.

(٣) «**واغد يا أنيس**» قال الإمام النووي رضي الله تعالىٰ عنه: واعلم أن بعث أنيس محمول عند العلماء من أصحابنا وغيرهم علىٰ إعلام المرأة بأن هذا الرجل قذفها بابنه، فيعرفها بأن لها عنده حد القذف فتطالب به أو تعفو عنه، إلا أن تعترف بالزنىٰ فلا يجب عليه حد القذف بل يجب عليها حد الزنىٰ، وهو الرجم؛ لأنها كانت محصنة، فذهب إليها أنيس، فاعترفت بالزنىٰ، فأمر النبي ﷺ برجمها، فرُجمت. ولا بد من هذا التأويل؛ لأن ظاهره أنه بُعث لإقامة حد الزنىٰ. وهذا غير مراد؛ لأن حد الزنىٰ لا يحتاط له بالتجسس والتفتيش عنهم، بل لو أقر به الزاني استحب أن يلقن الرجوع. نقلًا عن محمد فؤاد رحمه الله.

(٤) البخاري (حديث ٣٤٢٧).

هريرة: والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذٍ، ومنا نقول إلا المدية.

كما دلت على ذلك أيضًا قصة العسيف المتقدمة.

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات: ١٠].

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى ذكره: وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه واجتناب معاصيه؛ ليرحمكم ربكم فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته.



قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾

[الحجرات: ١١-١٣]

س: اذكر معنى ما يلي:
﴿لَا يَسْخَرْ - وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ - وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَٰبِ - بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ - لَا يَغْتَب﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَا يَسْخَرْ﴾	لا يهزأ
﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾	لا تعيبوا إخوانكم - لا تطعنوا في إخوانكم
﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَٰبِ﴾	لا تتداعوا، لا تتنادوا بالأوصاف المكروهة
﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾	بئس أن يُدعى الرجل بـ(الفاسق) بعد أن آمن. بئس أن يُقال للرجل: يا نصراني أو يا يهودي بعدما أسلم
﴿لَا يَغْتَب﴾	لا يذكر أحدكم أخاه في غيابه بما يكره

❁ ❁ ❁

س: السخرية من المؤمنين هي سبيل أهل الإجرام فلا ينبغي أن نشاركهم هذا السبيل اذكر ما يدل على ذلك.

ج: نعم، فالسخرية من أهل الإيمان هي سبيل أهل الإجرام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى في شأن الساخرين من نوح عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[1] [هود: ٣٨].

فجدير بالمؤمن أن يجتنب سبيل المجرمين، وجدير به أن يترك السخرية من

(١) وقد أوردت شيئًا من ذلك في تفسير جزء عم «سورة المطففين» فارجع إليه إن شئت.

المؤمنين؛ فإن الجزاء من جنس العمل، وكما قال تعالى في شأن أهل الإيمان مع الكفار الساخرين منهم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾ [المطففين: ٣٤-٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: ٣٨].

❀ ❀ ❀

س: اذكر بعض الأحاديث الواردة في النهي عن السخرية من الناس.

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه مسلم[١] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال. الكِبر: بطر الحق[٢]، وغمط الناس[٣]».

وقال النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه...»[٤].

ولما قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: حسبُك من صفية هكذا (تعني أنها قصيرة) قال لها النبي ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»[٥].

وأخرج البخاري ومسلم[٦] من حديث المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة[٧]. وعليه برد وعلى غلامه مثله. فقلنا: يا أبا ذر، لو جمعت بينهما كانت

---

(١) مسلم (حديث ٩١).

(٢) بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا.

(٣) غمط الناس: احتقارهم.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (حديث ٢٥٨٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٠٢) بسند صحيح.

(٦) البخاري (حديث ٣٠)، ومسلم (حديث ١٦٦١).

(٧) «بالرَّبذة»: هو موضع بالبادية، بينه وبين المدينة ثلاث مراحل. وهو في شمال المدينة سكنه أبو ذر رضي الله تعالىٰ عنه، وبه كانت وفاته ودفن فيه. قاله النووي.

حلة!(١) قال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ. قال: «يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية»(٢) قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه(٣). قال: «يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية. هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتوهم فأعينوهم».

ومنها حديث عبد الله بن زمعة(٤) رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس.

ومن ذلك عمومات كقوله ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(٥)، وقوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»(٦)، ونحو ذلك من الأحاديث.

❀ ❀ ❀

س: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات: ١١] خيرًا منهم في ماذا؟

ج: خيرًا منهم في المعتقد وسلامة النيات، وخيرًا منهم في العمل الصالح، وبالجملة: خيرًا منهم عند الله سبحانه وتعالى.

❀ ❀ ❀

س: المسخور منه قد يكون خيرًا من الساخر. وضح ذلك، واذكر من الأدلة ما يتجلى به هذا المعنى.

ج: نعم، المسخور منه قد يكون خيرًا من الساخر، فقد يكون الممرض في

---

(١) «لو جمعت بينهما كانت حلة»: إنما قال ذلك؛ لأن الحلة عند العرب ثوبان ولا تطلق على ثوب واحد.

(٢) «إنك امرؤ فيك جاهلية»: أي: هذا التعبير من أخلاق الجاهلية، ففيك خلق من أخلاقهم.

(٣) «من سب الرجال سبوا أباه وأمه» معنى هذا: الاعتذار عن سبه أمَّ ذلك الإنسان.

يعني: أنه سبني، ومن سبَّ إنسانًا سب ذلك الإنسان أبا السابّ وأمه، فأنكر عليه النبيّ ﷺ، وقال: هذا من أخلاق الجاهلية، وإنما يباح للمسبوب أن يسب السابّ نفسه بقدر ما سبه، ولا يتعرض لأبيه ولا لأمه.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٤٣)، وفي رواية: ثم وعظهم في الضرطة فقال: «لِمَ يضحك أحدهم مما يخرج منه؟!».

(٥) صحيح، وقد تقدم.

(٦) أخرجه البخاري (٧٠٨٧)، ومسلم (١٦٧٩).

مستشفى خيرٌ من طبيبها ومديرها، وقد يكون العامل في شركة أفضل من رئيسها ومديرها، وقد تكون الخادمة خيرًا من المخدومة وأقرب إلى الله منها، وقد يكون الفقير خيرًا عند الله من الغني، وقد يكون الدميم خيرًا من الوسيم الجميل، إلى غير ذلك، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي الصحيحين[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...» فذكر الحديث وفيه: «وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة[٢] وشارة[٣] حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها فجعل يرتضع».

قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها.

قال: «ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث[٤]، فقالت: حلقى![٥] مرَّ برجل حسن الهيئة فقلتُ: اللهم! اجعل ابني مثله. فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها[٦]، قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها: زنيت، ولم

---

(١) البخاري (حديث ٣٤٦٦)، ومسلم (حديث ٢٥٥٠).

(٢) الفارهة: النشيطة القوية.

(٣) الشارة هي: الهيئة واللباس.

(٤) «تراجعا الحديث: معناه: أقبلت على الرضيع تحدثه، وكانت أولًا لا تراه أهلًا للكلام، فلما تكرر منه الكلام علمت أنه أهل له فسألته وراجعته.

(٥) حلقى: أي: أصابه الله تعالى بوجع في حلقه.

(٦) مثلها: أي: سالمًا من المعاصي كما هي سالمة.

تزن، وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها».

ولما رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن لنفسه فضلاً على غيره من أقاربه قال له النبي ﷺ: «هل تنصرون إلا بضعفائكم؟»[١].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[البقرة: ٢١٢].

وانظر إلى هذا الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ الذي يضع الأمور في نصابها والحقائق في مواضعها والذي يفيد ما أفادته الآية الكريمة.

سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم لله»[٢].

وأخرج البخاري[٣] من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟»، فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مرَّ رجل، فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟»، فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حريٌّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا».

قلت: وهذا محمول على أن هذا الفقير خيرٌ في دينه من هذا الرجل الذي هو من أشراف الناس.

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤].

وفي صحيح مسلم[٥] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رب

---

(١) البخاري (حديث ٢٨٩٦).

(٢) البخاري (حديث ٣٣٨٣)، ومسلم (حديث ٢٣٧٨).

(٣) البخاري (حديث ٦٤٤٧).

(٤) مسلم (ص١٩٨٧).

(٥) مسلم (٢١٩١).

أشعث[١] مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[٢].

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض صور السخرية التي تكون بين الناس؟

ج: للسخرية صور متعددة كأن يسخر الغني من الفقير لفقره، وكأن يسخر الجميل من الدميم لدمامته، وكأن يسخر ذو المنصب والجاه من الوضيع لوضاعته، وكأن يسخر مسلم عُوفي من الذنب أو الفضيحة ممن أذنب وكشف ستره، كما ذكر ذلك ابن زيد، فعند الطبري بإسناد صحيح[٣] عن ابن زيد أنه قال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، قال: ربما عثر على المرء عند خطيئته عسى أن يكون خيرًا منهم، وإن كان ظهر على عثرته هذه، وسترت أنت على عثرتك، لعلَّ هذه التي ظهرت خير له في الآخرة عند الله، وهذه التي سترت أنت عليها شرّ لك، ما يدريك لعله ما يغفر لك، قال: فنهى الرجل عن ذلك، قال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، وقال في النساء مثل ذلك.

وقال الطبري رحمه الله تعالى:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله عمّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك.

❁ ❁ ❁

س: هل النساء يدخلن في القوم؟

ج: نعم، يدخل النساء في القوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، ونوح ﷺ أرسل إلى الرجال والنساء معًا.

---

(١) أما الأشعث فهو متلبد الشعر، مغبره، الذي لا يدهنه ولا يكثر غسله، ومعنىٰ مدفوع بالأبواب: أنه لا يؤذن له، بل يحجب ويطرد؛ لحقارته عند الناس.

(٢) معنىٰ قوله: «لو أقسم علىٰ الله لأبره» أي: لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله تعالىٰ بإبراره لأبره، وقيل: لو دعاه لأجابه.

(٣) الطبري (٣١٧١٢).

س: ذكر ثم أن النساء يدخلن في القوم فلم قيل: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: ١١]؟

ج: قيل: ذلك لأن السخرية في النساء أكثر منها في الرجال؛ وذلك لنقصان عقلهن ودينهن كما جاء عن رسول الله ﷺ فعطف الخاص، وهو (النساء) على العام وهو (القوم) للتأكيد على هذا المعنى؛ وتحذير النساء من السخرية من بعضهن البعض.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أفرد النساء بالذكر؛ لأن السخرية منهن أكثر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ فشمل الجميع.

❊ ❊ ❊

س: اذكر مزيدًا من الأمثلة لعطف الخاص على العام؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ..﴾ [النساء: ١٦٣]، فإبراهيم وإسماعيل و.. من النبيين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ ..﴾ [الأحزاب: ٧]، فالمذكورون من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام داخلون في عموم النبيين.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨]، فالرمان من الفاكهة.

❊ ❊ ❊

س: قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، فكيف يلمز الشخص نفسه؟

ج: المراد بقوله تعالى: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ في هذا المقام: إخوانكم، وقال تعالى: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأن المؤمنين فيما بينهم - فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمرهم وطلب صلاحهم ومحبتهم للخير - كالجسد الواحد، فمن لمز أخاه فقد لمز نفسه، ومن عاب إخوانه فقد عاب نفسه.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ دلالة على أخوة المؤمنين وأنهم كالجسد الواحد؛ لذلك عبر بالنفس عن الآخرين، وقد قال تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. أي: أموال إخوانكم.

وقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤمنون كرجلٍ واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[(٢)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[(٣)].

وثَمَّ وجه آخر من وجوه التأويل، وهو أن مَن سبَّ الناس سبوه، ومن لعنهم لعنوه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وكما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه»[(٤)].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمَّة فتأمل عيَّابًا فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب.

وقال ﷺ: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجِذع في عينه».

وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

المرء إن كان عاقلًا ورعًا ... أشغله عن عيوبه وَرَعه

كما السقيم المريض يشغله ... عن وجع الناس كلهم وَجَعه

---

(١) (٢) أخرجهما مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي رواية عند مسلم أيضًا من حديث النعمان كذلك مرفوعًا: «المسلمون كرجلٍ واحد إن اشتكىٰ عينه اشتكىٰ كله وإن اشتكىٰ رأسه اشتكىٰ كله».

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) أخرجه مسلم (حديث ٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

وقال آخر:

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا ... فيهتك الله سترًا عن مساويكا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا ... ولا تعب أحدًا منهم بما فيكا

❁ ❁ ❁

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾

س: هل صح لهذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ سبب نزول؟

ج: أخرج الترمذي[1] وأبو داود وغيرهما بإسناد صحيح عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيُدعى ببعضها فعسى أن يكره قال: فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالألقاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؟ وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

ج: المراد بالألقاب: هنا الألقاب التي كانوا يتداعون بها في الجاهلية فقد كان الرجل منه له اسم أو اسمان أو أكثر من الأسماء المكروهة، فكانوا يتداعون بها، كما قال أبو سفيان في شأن رسول الله ﷺ: لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة[2].

ووجه آخر: أن المراد النهي عن تعيير الرجل بالذنب بعد إقلاعه عنه وتوبته منه، وكمن يقول للنصراني عند إسلامه: فعل النصراني في كذا وكذا.. ونحو ذلك.

ووجه ثالث: أن الشخص يقول للآخر: يا فاسق - يا منافق - يا كافر - يا

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
وأخرجه أيضًا أبو داود (٤٩٦٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٦٦)، وابن ماجه (٣٧٤١).
وأخرجه أحمد (٤/ ٦٩) من طريق أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري، عن عمومة له. وقد اختلف العلماء في صحبة أبي جبيرة إلا أن سياق الحديث يفيد إثبات صحبته، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (حديث رقم ٧).
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (فتح الباري ١/ ٤٠): وابن أبي كبشة: أحد أجداده، وعادة العرب إذا انتقصت نسبت إلى جدٍ غامض.

يهودي - يا نصراني، فكل هذا يدخل فيما نهى الله عنه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والذي هو أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب، والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعمَّ الله بنهيه ذلك، ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه أو صفة يكرهها، وإذا كان ذلك كذلك صحَّت الأقوال التي قالها أهل التأويل في ذلك التي ذكرناها كلها، ولم يكن بعض ذلك أولى بالصواب من بعض؛ لأن كل ذلك مما نهى الله المسلمين أن ينبز بعضهم بعضًا.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا تتداعوا ولا تتنادوا بالأسماء المكروهة، بل تنادوا بالمستحب منها، فالملائكة يذكرون المؤمن - كما في حديث الاحتضار وخروج الروح - بأحب الأسماء التي كان يحب أن يُدعى بها[(١)].

وكذلك لا يُعير أحدكم أخاه بما كان منه في جاهليته ثم تاب منه.

س: هناك صور مستثناة من النهي عن التنابز بالألقاب. اذكر بعضها.

ج: نعم هناك ما يستثنى من ذلك كما إذا اشتهر رجل بلقب وعُرف به في الناس ولم يكن يتضايق منه أو يتبرم فحينئذ يجوز لنا أن ندعوه به كما قال النبي ﷺ: «أكما

(١) أخرج أحمد (٤/ ٢٨٧) بإسناد صحيح من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط[(*)] من حنوط الجنة حتىٰ يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان»، قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض» قال: «فيصعدون بها فلا يمرون - يعني: بها - علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح فيقولون: فلان بن فلان - بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا - حتىٰ ينتهوا بها إلىٰ السماء الدنيا».

(*) الحنوط: طيبٌ يُخلط للميت خاصة.

يقول ذو اليدين؟»[١]، وكما قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[عبس: ١-٢]، وقد قدمنا صورًا من ذلك في تفسير سورة عبس من جزء عم فراجع ذلك إن شئت.

وقد قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقع من ذلك مستثنى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب، ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، فجوَّزته الأمة واتفق على قوله أهل الملة، قال ابن العربي: وقد ورد - لعمر الله - من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جزرة، لأنه صحَّف (خرزة) فلُقِّب بها، وكذلك في قولهم في محمد بن سليمان الحضرمي: مُطَيَّن؛ لأنه وقع في طين ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين، ولا أراه سائغًا في الدِّين. وقد كان موسى بن علي ابن رباح المصري يقول: لا أجعل أحدًا صغَّر اسم أبي في حلٍّ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين. والذي يضبط هذا كله: أن كل ما يكره الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الأذيَّة. والله أعلم.

قلت: وعلى هذا المعنى ترجم البخاريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب الأدب» من الجامع الصحيح. في «باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شين الرجل». قال: وقال النبي ﷺ: **«ما يقول ذو اليدين»**. قال أبو عبد الله بن خُويز مَنْدَاد: تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان ما يكره، ويجوز تلقيبه بما يحب، ألا ترى أن النبي ﷺ لقب عمر بالفاروق، وأبا بكر بالصديق، وعثمان بذي النورين، وخزيمة بذي الشهادتين، وأبا هريرة بذي الشمالين وبذي اليدين، في أشباه ذلك.

الزمخشري: روي عن النبي ﷺ: **«من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه»**؛ ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أشيعوا الكُنى فإنها منبِّهة. ولقد لُقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة أسد الله، وخالد سيف الله، وقلَّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها - ومن العرب والعجم - تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. قال الماوردي: فأما مستحب الألقاب

---

(١) البخاري (حديث ٤٨٢)، ومسلم (حديث ٥٧٣).

ومستحسنها فلا يكره، وقد وصف رسول الله ﷺ عددًا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجلّ الألقاب.

قلت: فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير.

وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول: حُميد الطويل، وسليمان الأعمش، وحُميد الأعرج، ومروان الأصغر، فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سرجس قال: رأيت الأصلع - يعني عمر - يقبل الحجر، وفي رواية: الأصيلع.

❀ ❀ ❀

حكم من قال لأخيه: يا كافر أو يا منافق

س: ما جزاء من قال لأخيه يا كافر أو يا منافق؟

ج: ورد في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «إذا كفَّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما»[1].

وفي رواية: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما».

ونحوه عند البخاري أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا[2].

وعند مسلم[3] من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس ذلك إلا حار عليه»[4].

أما أقوال أهل العلم في شرح هذا، فهذا بعضها:

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: هذا الحديث مما عده بعض العلماء من المشكلات من حيث إن ظاهره غير مراد؛ وذلك أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر المسلم بالمعاصي كالقتل والزنا، وكذا قوله لأخيه: كافر من غير اعتقاد بطلان دين الإسلام، وإذا عرف ما ذكرناه فقيل في تأويل الحديث أوجه.

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦١٠٤)، ومسلم (حديث ٦٠).

(٢) البخاري (٦١٠٣).

(٣) مسلم (حديث ٦١).

(٤) «حار عليه»: أي: رجع عليه.

أحدها: أنه محمول على المستحل لذلك وهذا يكفر، فعلى هذا المعنى (باء بها) أي: بكلمة الكفر، وكذا حار عليه، وهو معنى رجعت عليه، أي: رجع عليه الكفر، فباء وحار ورجع بمعنى واحد.

والوجه الثاني: معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره.

والثالث: أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، وهذا الوجه نقله القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام مالك بن أنس، وهو ضعيف؛ لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع.

والوجه الرابع: معناه أن ذلك يؤول به إلى الكفر؛ وذلك أن المعاصي - كما قالوا - بريد الكفر، ويخاف على المكثر منها أن يكون عاقبة شؤمها المصير إلى الكفر، ويؤيد هذا الوجه ما جاء في رواية لأبي عوانة الإسفراييني في كتابه (المخرج على صحيح مسلم): فإن كان كما قال: وإلّا فقد باء بالكفر، وفي رواية: إذا قال لأخيه (يا كافر) وجب الكفر على أحدهما.

والوجه الخامس: معناه فقد رجع عليه تكفيره فليس الراجع حقيقة الكفر بل التكفير؛ لكونه جعل أخاه المؤمن كافرًا فكأنه كفر نفسه؛ إما لأنه كفر من هو مثله؛ وإما لأنه كفر من لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام. والله أعلم.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى[1]:

قال ابن بطال: كنت أسأل المهلب كثيرًا عن هذا الحديث لصعوبته فيجيبني بأجوبة مختلفة والمعنى واحد قال: قوله: «فهو كما قال» يعني: فهو كاذب لا كافر، إلا أنه لما تعمد الكذب الذي حلف عليه والتزم الملة التي حلف بها قال عليه السلام: «فهو كما قال» من التزام تلك الملة إن صح قصده بكذبه إلى التزامها في تلك الحالة، لا في وقت ثان إذا كان ذلك على سبيل الخديعة للمحلوف له. قلت: وحاصله: أنه لا يصير بذلك كافرًا وإنما يكون كالكافر في حال حلفه بذلك خاصة، وسيأتي أن غيره حمل الحديث على الزجر والتغليظ، وأن ظاهره غير مراد، وفيه غير

---

(١) فتح الباري شرح حديث (٦١٠٥).

ذلك من التأويلات.

قلت: ويخرج من ذلك المتأول؛ وذلك لأن عمر ﵁ قال لرسول الله ﷺ في شأن حاطب بن أبي بلتعة - لما أرسل حاطب رسالة إلى المشركين يخبرهم فيها ببعض أمر رسول الله - قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله[(١)]، وكذلك قال أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: إنك منافق تجادل عن المنافقين[(٢)]، وذلك في حديث الإفك، ووصف معاذ ﵁ الرجل الذي فارقه لما أطال في صلاة العشاء، بأنه منافق[(٣)].

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]؟

ج: في ذلك وجهان:

أحدهما: بئس الاسم الذي يُطلق عليكم وهو الفسق بعد أن تسميتم بالمؤمنين؛ وذلك لأن الذي ينبز أخاه بالألقاب يستحق أن يوصف بالفسق؛ وذلك لقول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق»[(٤)]. وبئس أن يتسمى الرجل فاسقًا بعد أن كان مؤمنًا.

الثاني: بئس الاسم الذي تطلقه على أخيك، أن تطلق عليه فاسق بعد أن تاب من فسقه وآمن.

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بحديث النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[(٥)].

ج: ابتداءً ليس المراد بالكفر الكفر المخرج من الملة؛ وذلك لأن الله تعالى قال:

---

(١) أخرج ذلك البخاري (٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤)، وانظره في سياق مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (طرق حديث ٤٦٥ ص ٣٤٠) عن جابر ﵁: «أن معاذ بن جبل ﵁ كان يصلي مع النبي ﷺ، ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة، قال: فتجوز رجل فصلى صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذًا فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا قوم نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضحنا، وإن معاذًا صلى بنا البارحة فقرأ البقرة، فتجوزت، فزعم أني منافق. فقال النبي ﷺ: «يا معاذ أفتان أنت؟» ثلاثًا اقرأ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ونحوهما.

(٤)، (٥) أخرجه البخاري (٧٠٧٦)، ومسلم (حديث ٦٤) من حديث ابن مسعود ﵁ مرفوعًا.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]. فسماهم الله مؤمنين مع اقتتالهم.

هذا وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى[1]: ولا متمسك للخوارج فيه لأن ظاهره غير مراد، لكن لما كان القتال أشد من السباب - لأنه مفض إلى إزهاق الأرواح - عبر عنه بلفظ أشد من لفظ الفسق وهو الكفر، ولم يرد حقيقة الكفر التي هي الخروج عن الملة بل أطلق عليه الكفر مبالغة في التحذير، معتمدًا على ما تقرر من القواعد أن مثل ذلك لا يخرج عن الملة مثل حديث الشفاعة، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد أشرنا إلى ذلك في باب المعاصي من أمر الجاهلية، أو أطلق عليه الكفر لشبهه به؛ لأن قتال المؤمن من شأن الكافر، وقيل: المراد هنا الكفر اللغوي وهو التغطية؛ لأن حق المسلم على المسلم أن يعينه وينصره ويكف عنه أذاه، فلما قاتله كان كأنه غطى على هذا الحق. والأولان أليق بمراد المصنف وأولى بالمقصود من التحذير من فعل ذلك والزجر عنه بخلاف الثالث. وقيل: أراد بقوله كفر أي: قد يؤول هذا الفعل بشؤمه إلى الكفر، وهذا بعيد، وأبعد منه حمله على المستحل لذلك؛ لأنه لا يطابق الترجمة، ولو كان مرادًا لم يحصل التفريق بين السباب والقتال؛ فإن مستحل لعن المسلم بغير تأويل يكفر أيضًا، ثم ذلك محمول على من فعله بغير تأويل، ومثل هذا الحديث قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» ففيه هذه الأجوبة، وسيأتي في كتاب الفتن، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] بعد قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية، فدل على أن بعض الأعمال يطلق عليه الكفر تغليظًا، وأما قوله ﷺ فيما رواه مسلم: «لعن المسلم كقتله» فلا يخفف هذا الحديث؛ لأن المشبه به فوق المشبه، والقدر الذي اشتركا فيه: بلوغ الغاية في التأثير، وهذا في العِرض، وهذا في النفس، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

---

(١) فتح الباري (١/ ١١٢).

س: هذا التوجيه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١] أحيط بالترغيب والترهيب. وضح ذلك؟

ج: وجه ذلك: أن الآية صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهذا تذكير لهم بالإيمان الذين هم له أهل، وتذكير بمقتضيات ذلك الإيمان وبالجزاء الذي أُعد للمؤمنين ثم ذكَّر بأخوة المؤمنين لبعضهم البعض في قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا إخوانكم، ثم لوَّح بالوصف بالفسق في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثم ختم بالترهيب بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾؟

ج: في ذلك حثٌّ على التوبة وترغيب فيها، وكذلك تحذير من التمادي في السخرية من الناس وازدرائهم ونبذهم بالألقاب المكروهة المذمومة.

❁ ❁ ❁

س: اذكر حديثًا في معنى الآية الكريمة: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]؟

ج: في معناه قوله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[(١)].

❁ ❁ ❁

س: ما مدى صحة حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «احترسوا من الناس بسوء الظن»؟

ج: هذا حديث ضعيف جدًّا، وانظره إن شئت في السلسلة الضعيفة للشيخ

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى[١] .

❁ ❁ ❁

س: ما الظن المأمور باجتنابه؟

ج: هو ظن الشر بالمؤمنين، وقال بعض العلماء: إنه التهمة.

❁ ❁ ❁

س: ما الذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواهما؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سـواها: أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب، وذلـك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأُونسْت منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث.

وقال أيضًا: وإن العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح. قاله المهدوي.

❁ ❁ ❁

س: لماذا قيل: اجتنبوا كثيرًا من الظـن، ولم يقـل: اجتنبـوا الظـن كلـه، ولم يقـل كذلك: اجتنبوا بعض الظن؟

ج: لم يقل: اجتنبوا بعض الظن كله؛ لأن من الظن ما هو خيـر كمـا قـال تعـالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] .

ولم يقل: اجتنبوا بعض الظـن حتـى يـدخل الـبعض الـذي هـو إثـمٌ في الكثيـر المجتنب؛ وذلك لكوننا لا نستطيع تحديد هذا الذي هو إثم بالضبط، فتركنا الكثيـر حتى يدخل فيه القليل الذي هو إثم، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

س: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] قاعدة نافعة

---

(١) أورده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى (حديث ١٥٦).

اذكر هذه القاعدة. وأيدها بمزيد من الأدلة؟

ج: هي قاعدة الاحتياط، فقد تركنا كثيرًا من الظن احتياطًا واحترازًا مع أن الذي حُرِّم إنما هو بعض الظن.

أما الأدلة التي تشهد لها فمنها ما يلي:

قول النبي ﷺ لما سئل عن البرِّ والإثم فقال: «البرُّ حسن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[١].

وقول النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٢].

وكذلك قول النبي ﷺ[٣]: «إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن[٤] وبينهما مشتبهات لا

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم فقال... الحديث.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وكذلك أخرجه أحمد (١/ ٢٠٠) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة».

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥٢)، ومسلم (حديث ١٥٩٩).

(٤) «إن الحلال بين والحرام بين» أجمع العلماء علىٰ عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

قال جماعة: هو ثلث الإسلام، وإن الإسلام يدور عليه وعلىٰ حديث: «الأعمال بالنية»، وحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وقال أبو داود السجستاني: يدور علىٰ أربعة أحاديث: هذه الثلاثة وحديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وقيل: حديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».

قال العلماء: وسبب عظم موقعه: أنه نبه فيه علىٰ إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرها، وإنه ينبغي أن يكون حلالًا، وأرشد إلىٰ معرفة الحلال، وأنه ينبغي ترك المشتبهات؛ فإنه سبب لحماية دينه وعرضه، وحذر من مواقعة الشبهات، وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمىٰ، ثم بين أهم الأمور، وهو مراعاة القلب.

فقال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة» إلخ. فبين ﷺ أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد، وبفساده يفسد باقيه.

وأما قوله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين» فمعناه أن الأشياء ثلاثة أقسام: حلال بين واضح لا يخفىٰ حله كالخبز والفواكه والزيت والعسل والسمن ولبن مأكول اللحم وبيضه وغير ذلك من المطعومات، وكذلك الكلام والنظر والمشي، وغير ذلك من التصرفات فيها، حلال بين واضح لا شك في حله، وأما الحرام البين فكالخمر والخنزير والميتة والدم المسفوح، وكذلك الزنىٰ والكذب والغيبة والنميمة والنظر إلىٰ الأجنبية وأشباه ذلك.

وأما المشتبهات فمعناه أنها ليست بواضحة الحل ولا الحرمة؛ فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يعلمون=

يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه[١]، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

❁ ❁ ❁

س: هل يجوز أن نظن ببعض المسلمين شرًّا؟

ج: الأصل أننا نظن بالمؤمنين خيرًا؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. أي: بإخوانهم ولكن إذا غلب على مسلم الشر والفساد، فلنا أن نظن به شرًّا، قال النبي ﷺ: «ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا»[٢].

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة، ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان ديننا الذي نحن عليه».

❁ ❁ ❁

س: ما مدى صحة حديث: «إذا ظننت فلا تحقق»؟ ومن أخرجه؟

ج: هذا الحديث ضعيف من كل طرقه التي وقفت عليها.

❁ ❁ ❁

س: هل هناك صلة بين قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، وبين قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾؟

ج: ذكر بعض العلماء صلة بينهما، وفحوى ذلك: أن التجسس من ثمرات سوء

= حكمها، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك، فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة، ولم يكن فيه نص ولا إجماع، اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا ألحقه به صار حلالًا، وقد يكون دليله غير خالٍ عن الاحتمال البين، فيكون الورع تركه، ويكون داخلًا في قوله ﷺ: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».

(١) «استبرأ لدينه وعرضه» أي: حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي، وصان عرضه عن كلام الناس فيه. (نقلًا من التعليق على مسلم).

(٢) البخاري (حديث ٦٠٦٧).

الظن؛ وذلك لأن الظن لا يُقنع القلب، فيتجه صاحب هذا القلب إلى التجسس، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما مدى صحة حديث ابن عمرو رضي الله عنهما الذي قال فيه: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا»[١]؟

ج: الحديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالتجسس؟ وما المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؟

ج: التجسس هو البحث عن السرائر، وتتبع العورات. أما المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، فقد قال الطبري رحمه الله: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره».

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الوارد في ذم التجسس وتحريمه؟

ج: من ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

وقول النبي ﷺ: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا»[٢].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «ومن استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون، أو يفرون منه صبَّ في أذنه الآنك[٣] يوم القيامة»[٤].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢)، وفي إسناده نصر بن محمد بن سليمان الحمصي، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (حديث ٢٥٦٣).

(٣) الآنك: هو الرصاص المنصهر.

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٧٠٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

كدت أن تفسدهم»[(١)].

❁ ❁ ❁

س: هل يجوز التجسس أحيانًا؟

ج: نعم، يجوز التجسس على مسلم أحيانًا، وذلك على شخص من أهل الشر والريب والفساد، وذلك للأدلة التالية:

أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: انطلق رسول الله ﷺ ومعه أُبي بن كعب قِبَلَ ابن صياد فحُدِّث به في نخل، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ طفق يتقي بجذوع النخل، وابن صيادٍ في قطيفة له فيها رمرمة، فرأت أم صياد رسول الله ﷺ فقالت: يا صاف، هذا محمد. فوثب ابن صياد، فقال رسول الله ﷺ: «لو تركته بيّن»[(٢)].

فلما عُلم عن ابن صياد الشر والسوء والفساد أراد النبي ﷺ أن يتثبت من أمره ويعرف حقيقته.

ومن الأدلة أيضًا: قول النبي ﷺ لأصحابه يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم؟»[(٣)] فقال الزبير: أنا... الحديث.

وورد نحو ذلك أيضًا من حديث حذيفة، ففي سيرة ابن إسحاق[(٤)] من طريق محمد بن كعب القرظي قال:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما

---

(١) إسناده صحيح، أخرجه أبو داود (٤٨٨٨) من حديث معاوية رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٣)، ومسلم (٢٩٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٤١٤) وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) سيرة ابن إسحاق (٣/ ٢٣١).

فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟»، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا»، قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تُقِر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء. الحديث.

هذا فضلًا عن العمومات التي يستدل بها في هذا الباب وفي غيره من الأبواب:

كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[البقرة: ٢٠٥].

وكقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[هود: ١١٦].

وكقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[آل عمران: ١٠٤].

وكقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

ومن الأحاديث قول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١].

وكقول النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا...»[٢].

وإيضاحه كيف ينصر الظالم بقوله: «تأخذ فوق يديه» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

فلو كان ثَمَّ شرير مفسد يروِّج للدعارة والمخدرات والإلحاد، فلا شك أن تتبع هذا لقطع شره عن البلاد أمرٌ محمود ومستحب ولا يشك في ذلك عاقل.

❀ ❀ ❀

---

(١) مسلم (حديث ٤٩).

(٢) البخاري (٢٤٤٤).

باب في الغيبة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]. ووضح المراد بالغيبة؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، لا يذكر أحدكم أخاه في غيبته بما يكره أن يُقال في حضوره.

أما الغيبة فقال النبي ﷺ في بيانها لأصحابه: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه، فقد بهته»[١].

❁ ❁ ❁

س: فرَّق كثير من العلماء بين الغيبة والإفك والبهتان. وضح ذلك؟

ج: نقل القرطبي عن الحسن قوله: فأما الغيبة: فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه، وأما الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه[٢]، وأما البهتان: فأن تقول فيه ما ليس فيه.

❁ ❁ ❁

س: هل الغيبة كبيرة من الكبائر؟

ج: أكثر أهل العلم على أن الغيبة من الكبائر، بل وقد نقل القرطبي الاتفاق على ذلك فقال القرطبي[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدًا عليه أن يتوب إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: والغيبة محرمةٌ بالإجماع ونقل الحافظ ابن حجر عن النووي قوله: الغيبة والنميمة محرمتان بإجماع المسلمين.. ثم قال الحافظ بعد أن أورد الأحاديث الواردة في ذم الغيبة: وهذا الوعيد في هذه الأحاديث

---

(١) مسلم (حديث ٢٥٨٩).

(٢) قلت: وينبغي أن يُقيد ذلك بالكذب.

(٣) القرطبي وابن كثير عند تفسير الآية المذكورة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ من سورة الحجرات.

يدل على أن الغيبة من الكبائر لكن تقييده في بعضها بغير حق قد يخرج الغيبة بحق لما تقرر أنها ذكر المرء بما فيه.

❁ ❁ ❁

س: هل يتفاوت إثم اغتياب شخص عن شخص آخر؟

ج: نعم يتفاوت إثم الاغتياب من شخص لآخر، فمن اغتاب وليًّا لله أو عالمًا ليس كمن اغتاب مجهول الحال؛ ولذلك قال بعض أهل لعلم: إن لحوم العلماء مسمومة.

ويتوقف الإثم أيضًا على القدر الذي تم به الاغتياب فمن ذكر شخصًا بقذف في العرض ليس كمن هو دون ذلك.

ويتوقف الإثم على المجامع التي تم فيها الاغتياب.

وزمان الاغتياب كذلك له أثر في قدر الإثم اللاحق بالمغتاب.

❁ ❁ ❁

بعض الوارد في التحذير من الغيبة وبيان إثم المغتابين

س: اذكر بعض ما ورد في ذم الاغتياب والمغتابين؟

ج: من ذلك ما يلي[1]:

قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[2] [الحجرات: ١٢].

(١) وقد وردت في هذا الباب جملة كبيرة جدًّا من الأحاديث فيها مقال أعرضنا عن ذكرها.

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «التفسير القيم»:

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

هذا من أحسن القياس التمثيلي؛ فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بمتزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت.

ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبًا من مجلس ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتاضها من الذم والطعن،=

وقال النبي ﷺ[١] يوم النحر: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ليبلغ الشاهد الغائب؛ فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه».

وقال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أربى الربا عرض الرجل المسلم»[٣].

وفي مسند الإمام أحمد[٤] بإسناد صحيح من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي ربي عزَّ وجلَّ مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

❁ ❁ ❁

= كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه. ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض لحم أخيه، متفكهًا بغيبته وذمه، متحليًا بذلك شُبة بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه.

ولما كان المغتاب محبًّا لذلك معجبًا به شُبّه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتًا، ومحبته لذلك قدر زائد علىٰ مجرد أكله كما أن أكله قدر زائد علىٰ تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه للمحسوس!

وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتًا، ووصفهم بذلك في آخر الآية والإنكار عليهم في أولها: أن يحب أحدهم ذلك فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره؟!

فاحتج عليهم بما كرهوه علىٰ ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم وهم أشد شيء نفرة عنه. فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة: أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه. وبالله التوفيق.

(١) البخاري (حديث ٦٧)، ومسلم (حديث ١٦٧٩).

(٢) البخاري (حديث ١٠)، ومسلم (٤٠).

(٣) هذا طرف من حديث أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قلت: وفي إسناده مقال، لكن لهذه الفقرة منه شواهد. وانظر سنن أبي داود (عون المعبود، ١٣/ ٢٢٢).

(٤) أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨).

وأشار بعض العلماء (كأبي داود) إلىٰ أنه رُوي من بعض الطرق مرسلًا.

قلت: ولكن إسناد الموصول صحيح.

النميمة وإثم النمام

س: وضح معنى النميمة، واذكر شيئًا مما ورد في ذمها.

ج: والنميمة: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم.

وتدخل فيها بعض صور الغيبة كأن تذكر الشخص في غيبته بما فيه مما يسوؤه قاصدًا بذلك الإفساد.

والنميمة من الكبائر، وعلى ذلك جملة أدلة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١٠-١١].

وقال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»، وفي رواية: «لا يدخل الجنة نمام»، والنمام هو القتات.

ففي الصحيحين[(١)] من طريق همام بن الحارث قال: كنا جلوسًا مع حذيفة في المسجد، فجاء رجلٌ حتى جلس إلينا فقيل لحذيفة: إن هذا يرفع إلى السلطان أشياء، فقال حذيفة - إرادةَ أن يُسمعه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

وفي رواية مسلم: «لا يدخل الجنة نمام» من حديث حذيفة أيضًا.

وفي رواية لمسلم من طريق همام أيضًا قال: كان رجل ينقل الحديث إلى الأمير فكنا جلوسًا في المسجد، فقال القوم: هذا ممن ينقل الحديث إلى الأمير، قال: فجاء حتى جلس إلينا، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال في شأن النمام والذي لا يستتر من بوله: «يعذبان...» الحديث.

هذا ويجدر بنا أن ننقل هنا ما ذكره النووي في «شرح مسلم» قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال العلماء: النميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإحياء»: اعلم أن النميمة إنما تطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كما تقول: فلان يتكلم فيك بكذا، قال:

---

(١) البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (حديث ١٠٥)، وفي رواية البخاري: إن رجلًا يرفع الحديث إلىٰ عثمان.

وليست النميمة مخصوصة بهذا، بل حد النميمة: كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث، وسواء كان الكشف بالكناية أو بالرمز أو بالإيماء.

فحقيقة النميمة: إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، فلو رآه يخفي مالًا لنفسه فذكره فهو نميمة.

قال: وكل من حملت إليه نميمة وقيل له: فلان يقول فيك أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور:

(الأول): ألا يصدقه لأن النمام فاسق.

(الثاني): أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح له فعله.

(الثالث): أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

(الرابع): ألا يظن بأخيه الغائب السوء.

(الخامس): ألا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث عن ذلك.

(السادس): ألا يرضى ما نهي النمام عنه فلا يحكي نميمته عنه فيقول: فلان حكى كذا فيصير به نمامًا ويكون آتيًا ما نهى عنه.

هذا آخر كلام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكل هذا المذكور في النميمة إذا لم يكن فيها مصلحة شرعية، فإن دعت الحاجة إليها فلا مانع منها وذلك كما إذا أخبره بأن إنسانًا يريد الفتك به أو بأهله أو بماله أو أخبر الإمام أو من له ولاية بأن إنسانًا يفعل كذا ويسعى بما فيه مفسدة، ويجب على صاحب الولاية الكشف عن ذلك وإزالته.

فكل هذا وما أشبهه ليس بحرام، وقد يكون بعضه واجبًا وبعضه مستحبًّا على حسب المواطن. والله أعلم.

أخرج البخاري (حديث ٢١٦)، ومسلم (حديث ٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: «أما إنهما ليعذبان، وما يعذبان في

كبير[١]، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة[٢]، وأما الآخر فكان لا يستتر[٣] من بوله».

قال: فدعا بعسيب[٤] رطب فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحدًا، وعلى هذا واحدًا، ثم قال: «لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا».

❁ ❁ ❁

الغيبة وإفطار الصائم

س: هل الغيبة تفطر الصائم؟ وما دليل القائلين بذلك؟

ج: الغيبة لا تفطر الصائم عند جمهور العلماء.

والأحاديث الصريحة الواردة في أنها تفطر الصائم لا يثبت منها حديث.

وثمَّ أحاديث أُخر وردت يمكن أن يستدل بها مستدل على ذلك كحديث: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٥].

❁ ❁ ❁

الغيبة والوضوء

س: هل الغيبة تنقض الوضوء؟

ج: الغيبة لا تنقض الوضوء عند جماهير العلماء، والأحاديث الواردة في أن الغيبة تنقض الوضوء لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

بعض وسائل التخلص من الغيبة

س: اذكر بعض وسائل التخلص من الغيبة.

ج: من ذلك ما يلي:

---

(١) «وما يعذبان في كبير» قد ذكر العلماء فيه تأويلين: أحدهما: أنه ليس في زعمهما. والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكىٰ القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ تأويلًا. ثالثًا: أي ليس بأكبر الكبائر.

(٢) «بالنميمة»: حقيقتها: نقل كلام الناس بعضهم إلىٰ بعض علىٰ جهة الإفساد.

(٣) «لا يستتر»: روي ثلاث روايات: يستتر ويستنزه ويستبرئ. وكلها صحيحة، ومعناها: لا يتجنبه ويتحرز منه.

(٤) «بعسيب»: هو الجريد والغصن من النخل، ويقال له: العثكال.

(٥) أخرجه البخاري (١٩٠٣).

سؤال الله عزَّ وجلَّ كشف هذا الداء فهو سبحانه الذي يكشف الضر، وهو سبحانه الذي يهدي لأحسن الأخلاق والأقوال والأعمال، ألا تراه سبحانه قال: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤] فترى من الذي هداهم، إنه الله سبحانه وتعالى.

ومن ثم كان النبي ﷺ يسأل ربه الهداية لأحسن الأخلاق[1]، ويتعوذ بالله من منكراتها.

ومن أعظم الوسائل للتخلص من هذا الداء: مراقبةُ الله عزَّ وجلَّ وخشيته في السر والعلن، وتذكر أنه سبحانه يراك في كل وقت وحين، ويعلم ما تكن الصدور وما تُعلن.

وكذلك تذكر الملائكة الكرام الكاتبين الذين كلفهم الله برصد حركاتك وكتابة أعمالك، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، وكما قال سبحانه: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وكما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

كذلك تذكر خطر اللسان وما يجره من ذنوب وآثام، فليقلل حينئذ من الكلام ويعرض عن اللغو، فمن صفات أهل الإيمان: الإعراض عن اللغو.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١-٣].

وقال سبحانه في شأن عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

---

(١) أخرج مسلم (٦/ ٥٧) من حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت».

وأخرج الطبراني (كتاب الدعاء حديث ١٣٨٤) من حديث قطبة بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يدع بهؤلاء الدعوات: «اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء».

وفي رواية: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء» أخرجه الترمذي (٣٥٩١).

والثرثارون - وهم كثيرو الكلام - من أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ قال ﷺ: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون»[1].

قال الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: والثرثار هو كثير الكلام، والمتشدق هو الذي يتطاول على الناس ويبذو عليهم.

وقد كره الله سبحانه وتعالى لنا قيل وقال، قال النبي ﷺ: «إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[2].

وانظر إلى حصائد الألسن وما تجره على صاحبها في قول النبي ﷺ: «وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلى حصائد ألسنتهم»[3].

وفي قول النبي ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»[4].

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم»[5].

وكذلك تَذَكُّر الآيات والأحاديث المحذرة من الاغتياب والمبينة لسوء مغبته.

ومن وسائل التخلص من الاغتياب: اتقاء مجالس أهل الشر والفساد، والإقبال

---

(١) أخرجه الترمذي (حديث ٢٠١٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
قلت (مصطفى): وله شواهد يُحسَّن بها، انظر مسند الإمام أحمد (٤/ ١٩٣، ١٩٤)، (٢/ ١٨٥).

(٢) أخرج البخاري (٧٢٩٢)، ومسلم (حديث ٥٩٣ صـ ١٣٤١) من حديث المغيرة بن شعبة الذي كتبه إلى معاوية لما طلب منه معاوية أن يرسل إليه بشيء سمعه من رسول الله ﷺ فكتب: «.. كان النبي ﷺ ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

(٣) صحيح لشواهده: أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وانظر الحاكم (٤/ ٢٨٦) المستدرك.

(٤) البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٥) البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

على مجالس العلماء والفضلاء.

فكما قال النبي ﷺ[١]: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك[٢]، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة».

وتَذَكَّر ما تجلبه هذه الغيبة من إحن ومحن وفتن ومشاكل وقلاقل بين المسلمين وعداوات وبغضاء كذلك فكم من رحمٍ قد قطعت بسبب الاغتياب، وكم من نفس قد أُزهقت بسبب الاغتياب، وكم من عداوة قد حلت، وبلية قد نزلت وأوصال قد قطعت، ومودة قد زالت، كل ذلك بسبب الاغتياب ومن جرائه.

ومن وسائل التخلص من الغيبة كذلك الإكثار من ذكر الله عزَّ وجلَّ، وتذكر الموت والدار الآخرة.

ومن ذلك كذلك: علاج الغيبة بقطع البواعث التي تبعث عليها وتحمل عليها فمن ذلك: الحسد، والكبر، والتنافس على الدنيا، وحب الظهور، والشهرة ومجاملات الأصحاب، وشفاء الغيظ، وحب الرئاسة والتسلط ونحو ذلك، فهذه أسباب وبواعث تبعث على الاغتياب وتحمل عليه يجب اتقاؤها واجتنابها حتى يسلم لك دينك ويحفظ عليك لسانك وتسلم لك دنياك وأُخراك.

❁ ❁ ❁

ما يفعله من جلس مجلسًا يُغتاب فيه المسلمون

س: ما موقف من جلس مجلسًا فسمع أقوامًا يغتابون المسلمين؟

ج: يلزم من جلس في هذا المجلس أمور، منها ما يلي:

تقديم النصح لهؤلاء المغتابين الذين اجتمعوا على جيف الأموات يأكلون منها: «فالدين النصيحة» كما قال النبي ﷺ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢١٠١)، ومسلم (حديث ٢٦٢٨) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) يُحذيك: أي يعطيك.

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٥٥).

وقد بايع النبي ﷺ بعض أصحابه على النصح لكل مسلم[١] .

ثم نهيهم عن هذا المنكر الذي وقعوا فيه؛ فإن النبي ﷺ قال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٢] .

ويلزم تذكير هؤلاء بحدود الله ومحارمه.

وأيضًا: الذب عن أعراض إخوانك المسلمين وأخواتك المسلمات.

فقد ورد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: نال رجلٌ من رجل عند النبي ﷺ فردَّ عليه رجلٌ، فقال النبي ﷺ: «**من ردَّ عن عرض أخيه كان له حجابًا من النار**»[٣] .

وقد تقدم حديث النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، قيل: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «**تمنعه من الظلم...**».

وفي الصحيحين[٤] أن النبي ﷺ سمع أقوامًا يقولون عن مالك بن الدُّخْشُن: ذاك

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨)، ومسلم (حديث ٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٤٩).

(٣) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» بتحقيقي (حديث ٢٠٦)، وانظر تخريجه هناك وهو صحيح وله شاهد عند أحمد (٦/ ٤٤٩، ٤٥٠).

(٤) أخرج البخاري (حديث ٤٢٥)، ومسلم (حديث ٣٣) من طريق محمود بن الربيع الأنصاري أن عتبان بن مالك، وهو من أصحاب النبي ﷺ، ممن شهد بدرًا من الأنصار؛ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني قد أنكرت بصري، وأنا أصلي لقومي، وإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، ولم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي لهم، وودت أنك يا رسول الله تأتي فتصلي في مصلى، فأتخذه مصلًّى. قال: فقال رسول الله: «سأفعل. إن شاء الله». قال عتبان: فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق حين ارتفع النهار، فاستأذن رسول الله ﷺ، فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت، ثم قال: «**أين تحب أن أصلي من بيتك؟**» قال: فأشرت إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله ﷺ فكبَّر، فقمنا وراءه، فصلى ركعتين ثم سلم، قال: وحبسناه على خزير[*] صنعناه له. قال: فثاب رجال من أهل الدار[**] حولنا حتى اجتمع في البيت رجال ذوو عدد، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقل له ذلك ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟**»، قال: قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنما نرى وجهه ونصيحته للمنافقين. قال. فقال رسول الله ﷺ: «**فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**».

(*) (خزير) ويقال: خزيرة. قال ابن قتيبة: الخزيرة لحم يقطع صغارًا ثم يصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذُرَّ عليه دقيق، فإن لم يكن فيها لحم، فهي عصيدة.

(**) (فثاب رجال من أهل الدار) أي: اجتمعوا. والمراد: بالدار، هنا: المحلة.

منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يُريد بذلك وجه الله؟».

وفي الصحيحين[(١)] كذلك في قصة الثلاثة الذين خلفوا: أن كعب بن مالك رضي الله عنه قال... ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه براده ونظره في عِطفهِ[(٢)]، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا.

والشاهد من ذلك: أن معاذًا رضي الله عنه دافع عن كعب بن مالك أمام من ذكره بسوءٍ.

وفي صحيح مسلم[(٣)]: أنا عائذ بن عمرو - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - دخل على عبيد الله بن زياد، فقال: أي بُني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرعاء الحُطمة»[(٤)]، فإياك أن تكون منهم، فقال له: اجلس؛ فإنما أنت من نخالة[(٥)] أصحاب محمد ﷺ. فقال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم[(٦)].

هذا، وقد قال النووي[(٧)] رحمه الله تعالى:

[فصل]: اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها فيجب على من سمع إنسانًا يبتدئ بغيبة محرّمة أن ينهاه إن لم

---

(١) البخاري (حديث ٤٤١٨)، ومسلم (حديث ٢٧٦٩).

(٢) مراده: أنه شغل بحسنه وبهجته وبهائه وثيابه عن الجهاد. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والعرب تصف الرداء بصفة الحسن وتسميه عطفًا؛ لوقوعه على عطفي الرجل.

(٣) مسلم (ص ١٤٦١، حديث ١٨٣٠).

(٤) «إن شر الرعاء الحطمة» قال في النهاية: الحطمة هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار. يلقي بعضها على بعض ويعسفها. ضربه مثلًا لوالي السوء. ويقال أيضًا: حُطَمن بلا هاء.

(٥) (نخالة) يعني لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم، بل من سقطهم، والنخالة هنا: استعارة من نخالة الدقيق، وهي قشوره. والنخالة والحثالة والحفالة بمعنى واحد.

(٦) (وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم) هذا من جزل الكلام وفصيحه وصدقه الذي ينقاد له كل مسلم؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم كلهم هم صفوة الناس وسادات الأمة وأفضل ممن بعدهم، وفيمن بعدهم كانت النخالة.

(٧) النووي في الأذكار (٥٢٧-٥٢٨).

يَخَف ضررًا ظاهرًا، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن لم يفعل عصى، فإن قال بلسانه: اسكت وهو يشتهي بقلبه استمراره، فقال أبو حامد الغزالي: ذلك نفاقٌ لا يخرجه عن الإثم، ولا بد من كراهته بقلبه، ومتى اضطر إلى المقام في ذلك المجلس الذي فيه الغيبة وعجز عن الإنكار أو أنكر فلم يُقبل منه ولم يمكنه المفارقة بطريق حرم عليه الاستماع والإصغاء للغيبة، بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو يفكر في أمر آخر ليشتغل عن استماعها، ولا يضرّه بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغار في هذه الحالة المذكورة، فإن تمكن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرون في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

وروينا عن إبراهيم بن أدهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنه دُعي إلى وليمة، فحضر، فذكروا رجلًا لم يأتهم، فقالوا: إنه ثقيل، فقال إبراهيم: أنا فعلت هذا بنفسي حيثُ حضرت موضعًا يُغتاب فيه الناس، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام. ومما أنشدوه في هذا:

وسَمَعك صُنْ عن سماعِ القبيح ... كصَوْن اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح ... شريكٌ لقائله فانتبه

قلت (مصطفى): وإذا لم تستطع إزالة هذا المنكر واستمر هؤلاء البغاة المغتابون في اغتيابهم وبغيهم فاترك لهم مجلسهم إن رأيت الصلاح في ذلك؛ فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

فمجالس أهل الصلاح أولى بك، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم أما مجالس

غيرهم، فكما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

هذا، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[1]:

ولا يجوز لأحد أن يحضر مجالس المنكر باختياره لغير ضرورة، كما في الحديث أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»، ورفع لعمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر فأمر بجلدهم، فقيل له: إن فيهم صائمًا. فقال: ابدأوا به، أما سمعتم الله يقول: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٠]؟! بين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن الله جعل حاضر المنكر كفاعله؛ ولهذا قال العلماء: إذا دعي إلى وليمة فيها منكر كالخمر والزمر لم يجز حضورها؛ وذلك أن الله تعالى قد أمرنا بإنكار المنكر بحسب الإمكان، فمن حضر باختياره ولم ينكره، فقد عصى الله ورسوله بترك ما أمره به، من بغض إنكاره والنهي عنه. وإذا كان كذلك، فهذا الذي يحضر مجالس الخمر باختياره من غير ضرورة، ولا ينكر المنكر كما أمره الله، هو شريك الفساق في فسقهم فيلحق بهم.

❁ ❁ ❁

ولا يغتاب الأموات

س: هل للأموات غيبة؟

ج: نعم من تكلم في الأموات بما يُكره فقد اغتابهم؛ لأن أخوتهم الإيمانية لنا لم تنقطع، فمن ثَمَّ تنسحب كل النصوص عليهم أيضًا كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وكقول النبي ﷺ في الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره».

وأخرج النسائي[2]: بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذكر عند النبي ﷺ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٢١، ٢٢٢).

(٢) النسائي (٤/ ٥٢).

هالكٌ بسوء، فقال: «لا تذكروا هلكاكم إلا بخير».

وفي سنن الترمذي[١] بإسناد صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه»[٢].

إلا إذا كان الميت إمامًا من أئمة البدع والضلال ويُخشى أن يقتدى بـه فحينئـذ يجوز سبه وبيان مساوئه، بل ويستحب ذلك تحذيرًا للأمة.

قال الله تعالى في شأن قوم فرعون: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١].

وقال النبي ﷺ[٣]: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه[٤] في النار؛ لأنه أول من سـيَّب السوائب»[٥].

وقد تقدم لهذا الباب مزيد.

❁ ❁ ❁

وكذلك الصبي والمجنون لا يُغتابان

س: هل يجوز اغتياب الصبي الصغير، وكذلك المجنون؟

ج: لا يجوز اغتياب الصبي ولا المجنون فالأصل في الغيبـة أنهـا محرمـة؛ لمـا قدمنا ذكره من الأدلة وليس هناك - فيما اطلعت عليه - دليل يُجوِّز اغتياب الـصبي

---

(١) الترمذي (مع التحفة ١٠/ ٣٩٤)، وقال: هذاحديث حسن صحيح، وروي هذا عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبي ﷺ مرسلًا.

(٢) أي: لا تذكروه بسوء.

(٣) البخاري (حديث ٤٦٢٤)، ومسلم (حديث ٢٨٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) قصبه: أي أمعاءه.

(٥) السوائب: جمع سائبة.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكانوا إذا تابعت الناقة بين عشر إناث لم يركب ظهرها، ولم يُجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو ضيف، وتركوها مسيبة لسبيلها وسموها: السائبة، فما ولدت من ذلك من أنثىٰ شقوا أذنها، وخلوا سبيلها، وحرم ما حرم من أمها، وسموها: البحيرة.

والمجنون، وقد يلحق بالصبي عارٌ من جراء الاغتياب ويستمر به بعد كبره، وكذلك فالمجنون قد يلحق أهله عارٌ من جراء اغتيابه.

❁ ❁ ❁

حكم اغتياب الكافر والذميّ

س: هل يجوز اغتياب الكافر والذمي؟

ج: الظاهر، والله تعالى أعلم، هو جواز ذلك إلا إذا كان هناك من العهود والمواثيق بين المسلمين وبينهم تمنع ذلك.

أما الدليل على الجواز فهو: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢]. وهذا ليس بأخ لنا في الدين.

وكذلك عرَّف النبي ﷺ الغيبة بقوله: «ذكرك أخاك بما يكره»، وهذا ليس لنا بأخ.

وبهذا استدل فريق من العلماء، قال الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه سبل السلام[(١)]: وفي قوله: «أخاك» أي: أخ في الدين دليل على أن غير المؤمن تجوز غيبته، ونقل قول ابن المنذر وهو: في الحديث دليل على أن ليس بأخ كاليهودي والنصراني وسائر أهل الملل، ومن قد أخرجته بدعته عن الإسلام لا غيبة له.

أما الدليل على المنع في حالة وجود عهود ومواثيق تمنع ذلك، فهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ونحوها من الآيات، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

تحلل الشخص ممن اغتابه

س: هل يستحل المغتاب من اغتابه؟

ج: في هذه المسألة أقوال لأهل العلم، فمنهم من يقول بوجوب تحلل الشخص من المظالم كقول النبي ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نُقُّوا وهذِّبوا أُذن لهم

---

(١) سبل السلام (٤/ ١٥٨٣).

بدخول الجنة...»[١].

وكقول النبي ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[٢].

وكحديث: «المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[٣].

وكقول النبي ﷺ[٤]: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه».

ومن أهل العلم من فصَّل في مسألة التحلل من المغتاب، فقال: إذا وصلت المقولة إلى الشخص المغتاب منه، وإلا فلا، وذلك حتى لا يتكدر خاطره. قالوا: ويكفي حينئذٍ الاستغفار للشخص وتحسين صورته أمام من قام باغتيابه أمامهم وإصلاح ما قد صدر من فساد.

والظاهر لي - والله أعلم - أن مسألة التحلل من المغتاب تتوقف على الشخص الذي قد تمت غيبته، وعلى نوعية الكلام الذي تمَّ به الاغتياب والنظر في المصلحة الناشئة من التحلل أو المفسدة، ويؤخذ من ذلك كله أخف الأضرار.

فرُبَّ شخص تذهب للتحلل منه من الاغتياب الذي قد تم في حقه فيزداد كربًا ونكدًا ويسألك: أمام من اغتبتني؟ وماذا قلت فيَّ؟ ويذهب به الشيطان هنا وهناك.

ورُبَّ شخص تأتي عليه الكلمات خفيفة هينة ويزداد توقيره لك إذا طلبت منه التحلل.

---

(١) البخاري (حديث ٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) مسلم (حديث ٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

وعلى ذلك فشأنها شأن سائر المحرمات فلا يقبل عليها شخص ولا يستجيزها إلا عند الضرورات، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]. هذا، ومع أنه يجوز للمظلوم مثلًا أن يغتاب من ظلمه بقدر مظلمته إلا أن الأولى والأفضل هو العفو، وقد دلت عدة نصوص على هذا المعنى، فالآية الكريمة: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، عُقِّبت بالحث على العفو في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]، وكذلك قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وكذلك أرشدنا ربنا إلى العفو في قوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج: ٦٠]، فهو إرشاد إلى العفو كما هو واضح.

وتُباح الغِيبة في بعض المواطن كما ذكر الحافظ ابن حجر - رَحِمَهُ اللَّهُ - في «فتح الباري» حيث قال:

قال العلماء: تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعًا؛ حيث يتعين طريقًا إلى الوصول إليه بما كالتظلم، والاستعانة على تغيير المنكر، والاستفتاء والمحاكمة، والتحذير من الشر.

ويدخل فيه:

تجريح الرواة والشهود، وإعلام من له ولاية عامة بسيرة من هو تحت يده، وجواب الاستشارة في نكاح أو عقد من العقود، وكذا من رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق ويخاف عليه الاقتداء به. وممن تجوز غيبتهم: مَن يتجاهر بالفسق أو الظلم أو البدعة.

هكذا ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - على وجه الإجمال.

وأجمل ذلك أيضًا النووي[1] - رحمه الله تعالى - فقال:

---

(١) الأذكار (ص ٥٢٩).

باب بيان ما يباح من الغِيبة

اعلم أنَّ الغيبةَ وإن كانت محرّمة فإنها تُباح في أحوال للمصلحة، والمُجوِّزُ لهَا غرض صحيح شرعي لا يمكن الوصولُ إليه إلا بها، وهو أحد ستة أسباب:

الأوّل: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلَّم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممّن له ولاية أو له قدرة على إنصافه من ظالمه فيذكرُ أن فلاناً ظلمني وفعل بي كذا وأخذ لي كذا، ونحو ذلك.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعملُ كذا فازجرْه عنه ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوسل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، بأن يقولَ للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو فلان بكذا، فهل له ذلك أم لا؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقّي ودفع الظلم عني؟ ونحو ذلك.

وكذلك قوله: زوجتي تفعلُ معي كذا، أو زوجي يفعلُ كذا ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط أن يقول: ما تقولُ في رجل كان من أمره كذا، أو في زوج أو زوجة تفعلُ كذا، ونحو ذلك، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند الذي سنذكره إن شاء اللّه تعالى وقولُها: يا رسول اللّه! إن أبا سفيانَ رجلٌ شحيح.. الحديث. ولم ينهها رسولُ اللّه ﷺ.

الرابع: تحذير المسلمين من الشرّ ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها جرح المجروحين من الرواة للحديث والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: إذا ما استشارك إنسان في مصاهرته أو مشاركته أو إيداعه أو الإيداع عنده أو معاملته أو غير ذلك وجب عليك أن تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة، فإن حصل الغرض بمجرّد قولك لا تصلحُ لك معاملتُه أو مصاهرتُه أو لا تفعلْ هذا أو نحو ذلك لم تجز الزيادةُ بذكر المساوئ، وإن لم يحصل الغرض إلا بالتصريح بعينه

فاذكره بصريحه. ومنها إذا رأيتَ مَن يشتري عبدًا معروفاً بالسرقة أو الزنا أو الشرب أو غيرها، فعليك أن تبيّن ذلك للمشتري إن لم يكن عالماً به، ولا يختصّ بذلك، بل كل من علم بالسلعة المبيعة عيباً وجب عليه بيانه للمشتري إذا لم يعلمه.

ومنها: إذا رأيت متفقهاً يتردَّدُ إلى مبتدعٍ أو فاسقٍ يأخذ عنه العلم خِفْتَ أن يتضرَّرَ المتفقّه بذلك، فعليك نصيحته ببيانِ حاله، ويُشترط أن يقصدَ النصيحةَ، وهذا مما يُغلَطُ فيه، وقد يَحملُ المُتكلمَ بذلك الحسدُ، أو يُلَبِّسُ الشيطانُ عليه ذلك، ويُخيِّلُ إليه أنه نصيحةٌ وشفقةٌ، فليتفطَّنْ لذلك.

ومنها: أن لا يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً أو مغفلًا ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيلَه ويُولِّي من يَصلحُ، أو يعلم ذلك منه لتعامله بمقتضى حاله ولا يغترّ به، وأن يسعى في أن يحثَّه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مُجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، أو مصادرة الناس وأخذ المُكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولّي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يُجاهر به ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأصمّ والأعمى والأحول والأفطس وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بنيّة التعريف، ويحرمُ إطلاقُه على جهة النقص، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى. فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء مما تُباح بها الغِيبة على ما ذكرناه.

وممّن نصّ عليها هكذا الإمام أبو حامد الغزالي في «الإحياء» وآخرون من العلماء، ودلائلُها ظاهرة من الأحاديث الصحيحة المشهورة، وأكثرُ هذه الأسباب مجمع على جواز الغِيبة بها.

قلت: أما بشيء من التفصيل والاستدلال فأقول -وبالله التوفيق-:

إن من صور الاغتياب الجائزة ما يلي:

التظلم: فالمظلوم له أن يتكلم في حق ظالمه بالقدر الذي به تُرد المظلمة وبنوع

الظلم الذي وقع عليه، وليس له أن يستطيل في عرض الظالم كيف يشاء، فمثلًا شخص أخذ مال شخص فلصاحب المال أن يقول: إن فلانًا (ويسميه إن شاء) أخذ مالي وليس له أن يقول: إن فلانًا يزني ويقتل ويشرب الخمر...

وكون الانتصار يكون بقدر المظلمة؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، ولقوله تعالى: ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ...﴾ [الحج: ٦٠] إلى غير ذلك من الآيات، وكذلك فمن الأحاديث قول النبي ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما ما لم يعْتدِ المظلوم»[(١)].

أما الأدلة الدالة على جواز اغتياب الظالم فمنها ما يلي:

قوله ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» معناه: أن إثم السباب الواقع من اثنين مختصٌّ بالبادئ منهما كله، إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار، فيقول للبادئ أكثر مما قال له.

وفي هذا جواز الانتصار، ولا خلاف في جوازه، وقد تظاهره عليه دلائل الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾ [الشورى: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشورى: ٣٩]، ومع هذا فالصبر أفضل، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: ٤٣]، وللحديث المذكور بعد هذا: «ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا».

واعلم أن سباب المسلم بغير حقٍّ حرام، كما قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق»، ولا يجوز للمسبوب أن ينتصر إلا بمثل ما سبه، ما لم يكن كذبًا أو قذفًا أو سبًّا لأسلافه، فمن صور المباح: أن ينتصر بـ يا ظالم، يا أحمق، أو جافي، أو نحو ذلك؛ لأنه لا يكاد أحد ينفك من هذه الأوصاف.

قالوا: وإذا انتصر المسبوب استوفى ظلامته، وبرئ الأول من حقه، وبقي عليه إثم الابتداء، أو الإثم المستحق لله تعالى، وقيل: يرتفع عنه جميع الإثم بالانتصار منه،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. قاله النووي في «شرح مسلم» (٥/ ٤٤٨) طبعة الشعب.

ويكون معنى على البادئ: أي عليه اللوم والذم لا الإثم.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]. فأخذ أقوال أهل العلم[١] في تأويل هذه الآية الكريمة: لا يحب الله - أيها الناس - أن يجهر أحدٌ لأحدٍ بالسوء من القول: «إلا من ظُلم» فلا حرج عليه أن يُخبر بما أُسيء إليه[٢].

أما الدليل الثاني على تجويز الاغتياب في حالة التظلم فهو قول النبي ﷺ: «مطل الغني ظلم»[٣]، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «ليُّ الواجد يُحِلُّ عرضه وعقوبته»[٤].

أما المطل: فهو من المماطلة أي: التخلف عن السداد في وقته، أما قوله: «ليُّ الواجد»، فاللَّيُّ هو المماطلة أيضًا، والواجد: هو الغني وقوله ﷺ: «يُحل عقوبته» أي: أن المماطلة تجوِّز عقوبة المماطل، والعقوبة هي الحبس، وهي أيضًا تُحلُّ عرضه فلصاحب الدين أن يتكلم في عرض المدين بقوله: فلان مماطل وظلمني حقي.

أما الدليل الثالث: فهو ما أخرجه أبو داود والبخاري[٥] في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره، فقال: «اذهب فاصبر» فأتاه مرتين أو ثلاثًا، فقال: «اذهب فاطرح متاعك في الطريق»، فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه، فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه: فعل الله به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جاره، فقال له: ارجع لا ترى مني شيئًا تكرهه.

الاستفتاء: فمن الأمور التي تجوِّز الاغتياب الاستفتاء، فها هي هند بنت عتبة تشكو زوجها أبا سفيان أمام رسول الله ﷺ، وتذكر في زوجها ما يُكره لعلة دعت إلى

---

(١) وهو قول الطبري رحمه الله تعالى.

(٢) ومن الأقوال في تأويلها أيضًا: لا يحب الله أن يدعو أحدٌ على أحد إلا أن يكون مظلومًا؛ فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٨٨)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٢٨) بسندٍ حسن.

(٥) البخاري في الأدب المفرد (١٢٤)، وأبو داود (٥١٥٣) بسند حسن.

ذلك ولحاجة ألجأتها إلى ذلك.

ففي الصحيحين[(١)] من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يُعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهل عليَّ في ذلك من جناح؟ فقال رسول الله ﷺ: «خُذي من ماله بالمعروف، ما يكفيك ويكفي بنيك».

فلو كان قولها: «إن أبا سفيان رجل شحيح» فيه اغتياب مذموم لأبي سفيان ما أقرها عليه رسول الله ﷺ، ولكن لما كان الباب باب فتيا لم يمنعها رسول الله ﷺ من ذكر زوجها بما يحتاج إليه المقام.

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[(٢)] من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رفاعة القرظي طلَّق امرأته فبتَّ طلاقها، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، فجاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنها كانت تحت رفاعة فطلقها آخر ثلاث تطليقات، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنه والله ما معه إلا مثل الهُدبة[(٣)]، وأخذت بِهُدبة من جلبابها، قال: فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا فقال: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عُسيلتك وتذوقي عسيلته» الحديث.

قلت: ولا شك في أن زوجها كان يكره أن يُقال عنه: إنه ما معه إلا مثل الهدبة، لكن لما كان الباب باب استفتاء فلم تُمنع من أن تذكر مثل هذا، وذلك للمصلحة المترتبة على ذلك.

هذا ويرى بعض العلماء أنه، وإن كان يجوز أن يُذكر ما في الشخص من مكروه إذا كان الداعي لذلك هو الاستفتاء، إلا أن الأولى والأفضل ترك ذكر أسماء الأشخاص، فلأن يقول قائل: ما رأيك في رجل شحيح لا يعطي زوجته ما يكفيها فهل لها أن تأخذ من ماله بغير إذنه؟ أولى من أن يُذكر الرجل باسمه، اللهم إلا إذا

---

(١) البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

(٢) البخاري (حديث ٦٠٨٤)، ومسلم (١٤٣٣، ص ١٠٥٦).

(٣) تعني بذلك: الذكر.

كانت هناك حاجة داعية لذلك كصنيع هند عند رسول الله ﷺ.

الاستشارات:

جاءت فاطمة بنت قيس إلى رسول الله ﷺ تستشيره في شأن مَن خطبها، وكان قد خطبها معاوية وأبو جهم رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ: «أما معاوية فصعلوك، لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه».

فوصف الرسول معاوية رضي الله عنه بأنه صعلوك لا مال له، وأبا جهم بأنه لا يضع عصاه عن عاتقه، ثم رشح لها رسول الله ﷺ رجلًا آخر وهو أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «أنكحي أسامة».

وهذا هو الحديث بذلك:

أخرج مسلم[1] من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها: أنا أبا عمرو بن حفص طلقها ألبتة وهو غائب فأرسل إليها وكِيلَه بشعير فَسَخِطته[2]، فقال: والله! ما لك علينا من شيء، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «ليس لك عليه نفقةٌ» فأمرها أن تعتد[3] في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي اعتدِّي عند ابن أمِّ مكتوم؛ فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك فإذا حللت فآذنيني»[4]، قالت: فلما حللت ذكرت له: أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه[5]، وأما معاوية فصعلوك[6] لا مال له. أنكحي أسامة بن زيد»، فكرهته ثم قال: «أنكحي أسامة بن زيد»، فنكحته، فجعل الله فيه

---

(١) مسلم (حديث ١٤٨٠).

(٢) فسخطته: أي ما رضيت به؛ لكونه شعيرًا، أو لكونه قليلًا.

(٣) تعتد: أي تستوفي عدتها. وعدة المرأة، قيل: أيام أقرائها، وقيل: تربصها المدة الواجبة عليها.

(٤) فآذنيني: أي: فأعلميني.

(٥) فلا يضع العصا عن عاتقه: فيه تأويلان مشهوران:

أحدهما: أنه كثير الأسفار، والثاني: أنه كثير الضرب للنساء. وهذا أصح. والعاتق هو: ما بين العنق إلى المنكب.

(٦) فصعلوك: أي فقير في الغاية.

خيرًا، واغتبطت[١].

التحذير والتعريف والبيان:

قال النبي ﷺ في شأن رجل أقبل عليه واستأذن للدخول عليه: «بئس أخو العشير»[٢].

وقال النبي ﷺ في شأن رجلين: «ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا»[٣].

وفي رواية أخرى: «يا عائشة ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان ديننا الذي نحن عليه».

وقول النبي ﷺ في شأن الخوارج والرجل الذي قال له: يا رسول الله، اعدل: «دعه فإن له أصحابًا، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

وأيضًا: ففي صحيح مسلم[٤] من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: عُدنا مع رسول الله، رجلًا مُوعوكًا، قال: فوضعت يدي عليه فقلت: والله! ما رأيت كاليوم رجلًا أشد حرًّا. فقال نبي الله ﷺ: «ألا أُخبركم بأشد حرًّا منه يوم القيامة؟ هاذينك

---

(١) واغتبطت في بعض النسخ: واغتبطت به. ولم تقع لفظة: «به» في أكثر النسخ. قال أهل اللغة: الغبطة أن يتمنىٰ مثل حال المغبوط من غير إرادة زوالها عنه وليس هو بحسد تقول منه: غبطته بما نال أغبطه، بكسر الباء، غبطًا وغبطة فاغتبط هو، كمنعته فامتنع، وحبسته فاحتبس.

(٢) البخاري (٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها: أن رجلًا استأذن علىٰ النبي ﷺ، فقال: «ائذنوا له فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة»، فلما دخل عليه ألان له القول. قالت عائشة: فقلتُ: يا رسول الله قلت له الذي قلت، ثم ألنت له القول. قال: «يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، من ودعه الناس اتقاء فحشه».

قال النووي -رحمه الله-: قال القاضي: هذا الرجل: عيينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذٍ، وإن كان قد أظهر الإسلام، فأراد النبي ﷺ أن يبين حاله ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله، قال: وكان منه في حياة النبي وبعده ما دل علىٰ ضعف إيمانه وارتد مع المرتدين وجيء به أسيرًا إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه، ووصف النبي ﷺ له بأنه بئس أخو العشيرة، من أعلام النبوة؛ لأنه ظهر كما وصف، وإنما ألان له القول، تألفًا له ولأمثاله علىٰ الإسلام.

والمراد بالعشيرة: قبيلته، أي: بئس هذا الرجل منها.

(٣) البخاري (حديث ٦٠٦٧).

(٤) مسلم (حديث ٢٧٨٣).

الرجلين الرَّاكبين المقفيين»[١] لرجلين حينئذٍ من أصحابه[٢].

وفي مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بإسناد حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان»[٣].

وقال النووي[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان المباح من الغيبة:

التعريف: فإذا كان معروفًا بلقب الأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع، ونحوها جاز تعريفه به، ويحرم ذكره به تنقصًا، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى، والله أعلم.

وقال النووي في كتابه «الأذكار»[٥]:

باب النهي عن الألقاب التي يكرهها صاحبها

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، واتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء كان له صفة؛ كالأعمش، والأجلح، والأعمى، والأعرج، والأحول، والأبرص، والأشج، والأصفر، والأحدب، والأصم، والأزرق، والأفطس، والأشتر، والأثرم، والأقطع، والزمن، والمقعد، والأشلّ، أو كان صفة لأبيه أو لأمه أو غير ذلك مما يكره. واتفقوا على جواز ذكره بذلك على جهة التعريف لمن لا يعرفه إلا بذلك، ودلائل ما ذكرته كثيرة ومشهورة حذفتها اختصارًا واستغناء بشهرتها.

ومن ذلك إخبار الشخص بما قاله عنه غيره إن كان في ذلك مصلحة وذلك كصنيع زيد بن أرقم مع رسول الله ﷺ لما نقل له مقولة عبد الله بن أُبي ابن سلول، إذ قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل.

---

(١) المقفيين: أي المنصرفين الموليين.

(٢) قال النووي: سماهما من أصحابه؛ لإظهارهما الإسلام والصحبة، لا أنهما ممن نالتهما فضيلة الصحبة. (نقلًا من محمد فؤاد).

(٣) أحمد في المسند (١/ ٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠).

(٤) النووي (شرح مسلم ٥/ ٤٥٠) طبعة الشعب.

(٥) الأذكار صـ ٤٥٩.

ففي الصحيحين[(١)] من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرج الأعز منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي - أو لعمر - فذكره للنبي ﷺ، فدعاني، فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه. فأصابني همٌّ لم يُصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ومقتك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فبعث إليَّ النبي ﷺ، فقرأ، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد»[(٢)].

ومن ذلك ما في الصحيحين[(٣)] أيضًا من حديث أنس رضي الله عنه قال: قالت الأنصار يوم فتح مكة - وأعطى قريشًا -: والله إن هذا لهو العجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وغنائمنا ترد عليهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا الأنصار، قال: فقال: «ما الذي بلغني عنكم؟» - وكانوا لا يكذبون - فقالوا: هو الذي بلغك. قال: «أولا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ لو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم».

المجاهرة بالفسق:

قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم» في بيان المباح من الغيبة: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته، كالخمر ومصادرة الناس، وجباية المكوس، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر.

---

(١) البخاري (حديث ٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢).

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٦٤٦)... وفي مرسل الحسن: فأخذ رسول الله ﷺ بأذن الغلام فقال: «وفت أذنك يا غلام».

قلت: ومن ذلك أيضًا: ما فيه مصالح عامة للمسلمين فينقل ما يعود عليهم بالنفع، وإعلام من له ولاية عامة بسيرة من هم تحت يده. كما أشار الحافظ ابن حجر رحمه الله (فتح ١٠/ ٤٨٦) مقتصرًا على الفقرة الأخيرة.

(٣) البخاري (حديث ص ٧٣٥)، ومسلم (حديث ٣٧٧٨).

هذا، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)] رحمه الله تعالى عن قوله ﷺ: «**لا غيبة لفاسق**» وما حد الفسق؟ ورجل شاجر رجلين: أحدهما شارب خمر، أو جليس في الشرب، أو آكل حرام، أو حاضر الرقص، أو السماع للدف، أو الشَّبابة، فهل على من لم يسلم عليه إثم؟

فأجاب: أما الحديث فليس هو من كلام النبي ﷺ؟ ولكنه مأثور عن الحسن البصري، أنه قال: أترغبون عن ذكر الفاجر؟ اذكروه بما فيه يحذره الناس. وفي حديث آخر: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له. وهذان النوعان يجوز فيهما الغيبة بلا نزاع بين العلماء.

أحدهما: أن يكون الرجل مظهرًا للفجور. مثل الظلم والفواحش والبدع المخالفة للسنة، فإذا أظهر المنكر وجب الإنكار عليه بحسب القدرة، كما قال النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» رواه مسلم، وفي المسند والسنن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس إنكم تقرؤون القرآن وتقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**». فمن أظهر المنكر وجب عليه الإنكار، وأن يهجر ويذم على ذلك، فهذا معنى قوله: فإن هذا يستر عليه؛ لكن ينصح سرًّا، ويهجره من عرف حاله حتى يتوب، ويذكر أمره على وجه النصيحة.

النوع الثاني: أن يستشار الرجل في مناكحته ومعاملته أو استشهاده، ويعلم أنه لا يصلح لذلك؛ فينصحه مستشاره ببيان حاله، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قالت له فاطمة بنت قيس: قد خطبني أبو جهم ومعاوية، فقال لها: «**أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء**[(٢)]**، وأما معاوية فصعلوك لا مال له**» فبين النبي ﷺ حال

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٩).

(٢) تقدم لفظ هذا الحديث.

الخاطبين للمرأة. فهذا حجة لقول الحسن: أترغبون عن ذكر الفاجر! اذكروه بما فيه يحذره الناس؛ فإن النصح في الدين أعظم من النصح في الدنيا، فإذا كان النبي ﷺ نصح المرأة في دنياها، فالنصيحة في الدين أعظم.

وإذا كان الرجل يترك الصلوات، ويرتكب المنكرات، وقد عاشره من يخاف أن يفسد دينه: بيِّن أمره له لتتقي معاشرته، وإذا كان مبتدعًا يدعو إلى عقائد تخالف الكتاب والسنة، أو يسلك طريقًا يخالف الكتاب والسنة، ويخاف أن يضل الرجل الناس بذلك: بيِّن أمره للناس؛ ليتقوا ضلاله ويعلموا حاله. وهذا كله يجب أن يكون على وجه النصح وابتغاء وجه الله تعالى لا لهوى الشخص مع الإنسان: مثل أن يكون بينهما عداوة دنيوية، أو تحاسد، أو تباغض، أو تنازع على الرئاسة، فيتكلم بمساوئه مظهرًا للنصح، وقصده في الباطن الغض من الشخص واستيفاؤه منه، فهذا من عمل الشيطان و«**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» بل يكون الناصح قصده أن الله يصلح لك الشخص، وأن يكفي المسلمين ضرره في دينهم ودنياهم، ويسلك في هذا المقصود أيسر الطرق التي تمكنه.

بيان جرح المجروحين وضعف الضعفاء من رواة الحديث والأثر:

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح مسلم» في بيان المباح من الغيبة: تحذير المسلمين من الشر، وذلك من وجوه: منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين، وذلك جائز بالإجماع بل واجب صونًا للشريعة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياء وأمواتًا.

قلت: وفي هذا دفاع عن سنة رسول الله ﷺ، ونصح لأمة محمد ﷺ، وتحذير من أهل الشر والباطل والكذب والافتراء.

وإلا لطعن الظالمون والمفترون في السنة ولأدخلوا فيها ما ليس منها، وحينئذٍ يضيع الدِّين وتذهب معالمه ويختلط الحق بالباطل.

❁ ❁ ❁

طلب الإعانة لإزالة المنكر

فتغيير المنكر واجب شرعي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤]، وقال لقمان لولده: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

فالنصوص في هذا الباب كثيرة جدًّا ومتعددة وقد لا يتم هذا الواجب - واجب النهي عن المنكر - إلا بتسمية الأشخاص وذكر أسمائهم، ومن ثَمَّ فإن ذلك يجوز، وقد قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[(١)].

وقد نظم بعض العلماء ما ذُكر في نظم فقالوا:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلِّم، ومعرِّفٍ، ومحذِّرِ

ومجاهر بالفسق ثمت سائل ... ومن استعان على إزالة منكرِ

ونظمها آخرون فقالوا:

---

(١) صحيح، وقد تقدم.

يبـاح اغتيـاب للفتـى إن تجـاهرا بفسق، وللتعريف، أو للتظلم
كذاك لتحذير ومن جاء سائلًا كذا من أتى يبغي زوال المحرم

❁ ❁ ❁

س: هل من مواطن أُخر يتسامح فيها مع من اغتاب الناس؟

ج: هناك بعض المواطن التي يسكت فيها الشخص عن من قام بالاغتياب فمن ذلك: امرأة غارت غيرة شديدة فصدرت منها مقالات فيها نوع تجوزات أثناء غيرتها، ففي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: «اللهم هالة بنت خويلد»، فغرت، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيرًا منها[1].

فالشاهد من ذلك: أن أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذكرت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بقولها: «عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين» أي: سقطت أسنانها ولم يبق إلا لثتها الحمراء، ولا شك أن هذا مما يكره، ولكن لم يؤاخذها رسول الله ﷺ بل تجاوز لها عن ذلك؛ إذ علم أن الحامل لها على ذلك هو الغيرة الشديدة.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض صور الاغتياب التي ينبغي أن تُتقى.

ج: من ذلك: ما ذكره النووي رحمه الله تعالى[2] في كتابه الأذكار حيث قال: قد ذكرنا في الباب السابق أن الغيبة: ذكرك الإنسان بما يكره، سواء ذكرته بلفظك أو في كتابك، أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك. وضابطُه: كلَّ ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرَّمة، ومن ذلك: المحاكاة بأن يمشي متعارجًا أو مُطَأْطِئًا أو على غير ذلك من الهيئات، مريدًا حكاية هيئة من يتنقصه بذلك، فكلُّ ذلك حرام بلا خلاف، ومن ذلك: إذا ذكر مُصنف كتاب شخصًا بعينه في كتابه

---

(١) مسلم (حديث ٢٤٣٧).

(٢) النووي في الأذكار (صـ ٥٢٦-٥٢٧).

قائلًا: قال فلان كذا مريدًا تنقيصه والشناعة عليه، فهو حرام، فإن أراد بيان غلطه؛ لئلا يُقلَّد أو بيان ضعفه في العلم لئلا يُغتر به ويُقبل قوله، فهذا ليس غِيبة، بل نصيحة واجبة يُثاب عليها إذا أراد ذلك، وكذا إذا قال المصنف أو غيره: قال قوم أو جماعة كذا، وهذا غلط أو خطأ أو جهالة وغفلة، ونحو ذلك فليس غيبة، إنما الغيبة ذكر الإنسان بعينه أو جماعة معينين.

ومن الغيبة المحرَّمة قولك: فعل كذا بعضُ الناس أو بعض الفقهاء أو بعض من يدعي العلم، أو بعضُ المفتين، أو بعض من يُنسب إلى الصلاح أو يَدَّعي الزهد، أو بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه، أو نحو ذلك إذا كان المخاطب يفهمه بعينه؛ لحصول التفهيم.

ومن ذلك: غيبة المتفقهين والمتعبدين، فإنهم يعرضون بالغيبة تعريضًا يفهم به كما يفهم بالصريح، فيُقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يُصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الشر، الله يعافينا من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما يُفهم منه تنقصه، فكلُّ ذلك غيبة محرمة، وكذلك إذا قال: فلان يُبتلى بما ابتلينا به كلُّنا، أو ما له حيلة في هذا، كلنا نفعله، وهذه أمثلة، وإلا فضابط الغيبة: تفهيمك المخاطب نقص إنسان كما سبق، وكلُّ هذا معلوم من مقتضى الحديث الذي ذكرناه في الباب الذي قبل هذا عن صحيح مسلم وغيره في حدِّ الغيبة، والله أعلم.

قلت: ومن ذلك: إلباس الاغتياب ثوب الترحم والتعجب والغضب ونحو ذلك فمن ذلك أن تقول امرأة عن أُخرى: مسكينة فلانة! مظلومة فلانة! ثم بعد ذلك تذكر كل ما تكرهه أختها تحت هذا الستار، فتقول: فعل بها زوجها كذا وكذا، وضربها ولدها، وابنتها بها كذا وكذا، وتذكر كل ما تكرهه هذه المسكينة المظلومة!!!

وآخر يقول: عجبت من أمر فلان، وإن أمره لعجب، ثم يذكر ما يكرهه أخوه، فيقول: إنه يقول كذا ويفعل كذا.

وثالث يظهر أنه يغضب لله ولرسوله، ثم يذكر كل ما يكرهه أخوه تحت هذا الستار.

فهذه نماذج يجب أن ينتبه لها المسلم حتى لا يزين له الشيطان سوء عمله فيراه حسنًا، وهو مسيء من المسيئين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[1] رَحِمَهُ اللَّهُ:

فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره، مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون، أو فيه بعض ما يقولون؛ لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه، فيرى موافقتهم من حسن المعاشرة وطيب المصاحبة، وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم.

ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى: تارة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحدًا إلا بخير، ولا أحب الغيبة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحواله. ويقول: والله إنه مسكين، أو رجل جيد؛ ولكن فيه كيت وكيت. وربما يقول: دعونا منه، الله يغفر لنا وله؛ وإنما قصَدَه استنقاصًا وهضمًا لجنابه. ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادعون مخلوقًا، وقد رأينا منهم ألوانًا كثيرة من هذا وأشباهه.

ومنهم من يرفع غيره رياء فيرفع نفسه، فيقول: لو دعوت البارحة في صلاتي لفلان؛ لما بلغني عنه كيت وكيت، ليرفع نفسه ويضعه عند من يعتقده، أو يقول: فلان بليد الذهن، قليل الفهم؛ وقصده مدح نفسه، وإثبات معرفته، وأنه أفضل منه.

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة، والحسد، وإذا أثنى على شخص، أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقصه في قالب دين وصلاح، أو في قالب حسد وفجور وقدح ليسقط ذلك عنه.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب؛ ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزئ به.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٦).

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب، فيقول: تعجبت من فلان، كيف لا يفعل كيت وكيت؟! ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت، وكيف فعل كيت وكيت، فيخرج اسمه في معرض تعجبه.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب الاغتمام، فيقول: مسكين فلان، غمني ما جرى له وما تم له، فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف، وقلبه منطو على التشفي به، ولو قدر لزاد على ما به، وربما يذكره عند أعدائه ليشتفوا به، وهذا وغيره أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه.

ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر، فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول، وقصده غير ما أظهر. والله المستعان.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الدوافع التي تدفع إلى الاغتياب.

ج: لذلك أسباب شرحها يطول نذكِّر ببعضها على وجه الإجمال حتى تُتَّقَى، فمن هذه الدوافع التي تدفع إلى الاغتياب: التحاسد والتباغض[(١)]، فهذان يحملان الحاسد والمبغض على أن يتكلما في عرض المحسود بما يكره.

وكذلك: التنافس وحب الرئاسة يدفعان المتنافس إلى انتقاص خصمه ولو أدى ذلك بهما إلى اغتيابه.

وكذلك: حب النفس وحب التعالي على الناس يدفعان المغتاب إلى انتقاص غيره.

وكذلك: الغفلة عن ذكر الله، والغفلة عن عيوب النفس، وقلة الورع، كل ذلك يدفع إلى الاغتياب.

وكذلك: مما يدفع إلى الاغتياب: الحزبيات والعصبيات الجاهلية

---

(١) وقد قال الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أنداد له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدًا وبغيًا: إنه لدميم

والمذهبيات، فترى صاحب الحزب أو المذهب أو القبيلة يتعصب لحزبه ومذهبه وقبيلته وعشيرته مما يؤول إلى انتقاص الآخرين واغتيابهم.

وكذلك: مجاملات الأصدقاء والخلان تدفع في كثير من الأحيان إلى الخوض معهم فيما يخوضون فيه طلبًا لإرضائهم ومجاراة لأهوائهم.

وكذلك: فالمزاح والسخرية وحب إضحاك الناس وتسليتهم، كلُّ ذلك يحمل ضعيف الإيمان وقليل الورع على أن يذكر الآخرين بسوء.

وكذلك: فالفراغ يدفع إلى الاغتياب في كثير من الأحيان.

وثمَّ أسباب أُخر عافانا الله والمسلمين من ذلك أجمع.

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

ج: المعنى - والله أعلم -: كما أنكم لا تحبون أكل لحم أخيكم وهو ميت، وذلك لأمرين: أحدهما: لحرمته؛ فإن الله حرَّم عليكم الميتة.

وثانيهما: لنتنه وجيافته.

فكذلك فاتقوا اغتياب إخوانكم، فأعراضهم محرمة عليكم، واغتيابهم قبيح منكم، وملوثٌ لأفواهكم، ومُضرٌّ لأبدانكم.

وقال قتادة[١]: كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها فكذلك فاكره غيبته وهو حيٌّ.

قلت: وقد قدمنا قول ابن القيم في ذلك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ [الحجرات: ١٢].

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى:

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ يقول تعالى ذكره: فاتقوا الله أيها الناس،

---

(١) الطبري (٣١٧٥٨) وإسناده صحيح.

فخافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن أحدكم بأخيه المؤمن ظن السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتيابه بما يكرهه، تريدون به شينه وعيبه، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾ يقول: إن الله راجع لعبده إلى ما يحبه إذا رجع العبد لربه إلى ما يحبه منه، رحيم به بأن يعاقبه على ذنب أذنبه بعد توبته منه.

❁ ❁ ❁

س: هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؟ ناسب فيها أن تُبدأ بالناس فما وجه هذه المناسبة؟ وما وجه ابتداء الآيات الأُخر في هذه السورة بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟

ج: ومن مناسبة ذكر الناس هنا أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] يعمُّ الناس جميعًا، فناسب أن تُبدأ الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والله أعلم.

وأما وجه بداية الآيات الأخر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لكونها تشتمل على أوامر ونواهٍ، والمخاطب بذلك هم أهل الإيمان الذين يمتثلون الأوامر ويجتنبون النواهي، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: هل كل الناس خُلقوا من ذكر وأنثى؟

ج: نعم! كلهم كذلك باستثناء آدم عليه السلام فقد خُلق من تراب، وحواء عليها السلام خُلقت من ضِلع، وعيسى عليه السلام خلق بكلمة: (كُن) وله أمٌّ وليس له أب.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»:

الأول منها: خلقه لا من أنثى ولا من ذكر وهو آدم عليه السلام.

والثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى وهو حواء.

والثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

الرابع: خلقه من ذكر وأنثى وهو سائر الآدميين، وهذا يدل على كمال قدرته

جل وعلا.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

ج: المعنى - والله أعلم -: إنا خلقناكم من ماء رجل وماء أنثى، أي من منيِّ الرجل ومني المرأة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧]، وكما قال تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٦-٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاط وقيل: إن أصلكم واحد، ذكرٌ وهو آدم عليه السلام، وأنثى وهي حواء عليها السلام.

❀ ❀ ❀

س: هل الجنين يكون من ماء الرجل وحده أم من ماء الرجل والمرأة معًا؟

ج: قال القرطبي رحمه الله تعالى:

ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربَّى في رحم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠، ٢١]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨]. وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧]. فدل على أن الخلق من ماء واحد. والصحيح: أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية؛ فإنها نصٌّ لا يحتمل التأويل. وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٦-٧]، والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء، على ما يأتي بيانه. وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسُّلالة والنطفة ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر، فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا، وبأن المرأة تُمني كما يُمني الرجل، وعن ذلك يكون الشبه، حسب ما تقدم بيانه في آخر الشورى. وقد قال في قصة نوح: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٢]، وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا ينكر أن يكون ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠]، ويريد

ماءين. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بالشعوب والقبائل.

ج: والشعوب جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل.

خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة.

وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تتشعب منها. اهـ.

ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاثة شعوب: القبائل كما في هذه الآية، والفصيلة في المعارج في قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾[المعارج: ١٣] . وقد قدمنا ما دلت عليه هذه الآية موضحًا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩] .

واعلم أن العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض كإطلاق البطن على القبيلة في قول الشاعر:

وإن كلابًا هذه عشر أبطن ... وأنت بريء من قبائلها العشر

كما قدمناه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[البقرة: ٢٢٨] .

❁ ❁ ❁

س: ما العلة من جعل الناس شعوبًا وقبائل؟

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى:

وقوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ يقول: ليعرف بعضكم بعضًا في النسب، يقول تعالى ذكره: إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس؛ ليعرف بعضكم بعضًا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقُربة تقرِّبكم إلى الله، بل أكرمكم عند

الله أتقاكم.

س: هل معرفة الأنساب مطلوب شرعًا؟

ج: نعم، وذلك للتعاون والتوارث والقيامة بحقوق الأقارب وصلة الأرحام.
وقد جعل الله الناس شعوبًا وقبائل من أجل ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

❀ ❀ ❀

أبواب في الكفاءة في النكاح

س: استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على إسقاط اعتبار الكفاءة في النكاح واعتبار الكفاءة في الدين فقط. وضح ذلك واذكر معنى الكفاءة وشيئًا من فقهها؟

ج: أما الكفاءة فهي المساواة والمماثلة، ففلان يكافئ فلانًا أي يساويه ويماثله، وفلانةٌ تكافئ فلانًا من ناحية النسب: أي أنها في درجة نسبها تساويه وتماثله، فإن كان قرشيًّا فهي قرشية، أو هاشميًّا فهي هاشمية، وهكذا.

وفلانة تكافئ فلانًا من ناحية المال: أي أنها ثريةٌ كما أنه ثري وفلانة تكافئ فلانًا من ناحية الدين، أي: أنها ذات دين كما أنه ذو دين، فهي مسلمةٌ كما أنه مسلم، وصالحة كما أنه صالح، وعابدة كما أنه عابد.

فيستحب للمرأة أن تتزوج بكُفءٍ لها أو بمن هو أكفأ منها خاصة من ناحية الدين، فلا يصح ابتداءً ولا يحل أن تتزوج مسلمةٌ بكافر ويكره كراهية شديدة للصالحة أن تتزوج بعاصٍ مسرفٍ على نفسه.

والكفاءة أنواع: فمنها: كفاءةٌ في الدين، وكفاءةٌ في النسب، وكفاءة في المال، وكفاءة في الحرية، وكفاءة في الصنعة، وكفاءة في السلامة من العيوب، وبكلٍّ قد قال فريق من أهل العلم.

فبالنسبة للكفاءة في الدين: فهي معتبرة عند العلماء كافة، خاصة عند الخلاف في أصل الدين، فلا يحل لمسلمة أن تتزوج بكافر؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾

[الممتحنة: ١٠]؛ ولقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ثم أيضًا ينبغي أن يُنظر درجة الصلاح فيكره أن تتزوج الصالحة بعاص، ويكره أن تتزوج الطيبة بخبيث، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [النور: ٣].

وقال النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»[١].

وفي الباب حديث كذلك[٢]: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» لكن أسانيده ضعيفة.

أما أدلة القائلين باعتبار الكفاءة في النسب فمنها:

ما أخرجه مسلم[٣] في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريش من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وهناك من لم يعتبر الكفاءة في النسب ومن أدلتهم ما يلي:

تزويج النبي ﷺ وهو هاشمي - ابنتيه بعثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهو قرشي.

تزويج النبي ﷺ زينب بنت جحش - وهي أسدية بزيد بن حارثة - رضي الله عنه - وهو مولى.

وزوج النبي ﷺ أسامة بن زيد - وهو مولى - فاطمة بنت قيس وهي قرشية.

وها هي أدلة أخر في هذا الباب:

أخرج البخاري ومسلم[٤] من حديث عائشة رضي الله عنها قال: دخل رسول الله ﷺ على

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٠٩٠)، ومسلم (حديث ١٤٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (حديث ١٠٩٠)، وقد أوضحت أوجه العلل فيه في «جامع أحكام النساء» (٣/ ٢٦٤).

(٣) مسلم (حديث ٢٢٧٦).

(٤) البخاري (حديث ٥٠٨٩)، ومسلم (ص ٨٦٨).

ضباعة بنت الزبير فقال لها: «لعلك أردت الحج»، قالت: والله لا أجدني إلا وجعة، فقال لها: «حجي واشترطي قولي: اللهم محلي حيث حبستني»، وكنت تحت المقداد بن الأسود[1].

وأخرج البخاري[2] من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - وكان ممن شهد بدرًا مع النبي ﷺ - تبنى سالمًا وأنكحه بنت أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وهو مولى لامرأة من الأنصار.

ومن ذلك ما أخرجه مسلم[3] من حديث أبي مالك الأشعري: أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب».

أما الكفاءة في المال[4] فاعتبرها قوم ولم يعتبرها آخرون:

فمن أدلة الذين اعتبروها: ما أخرجه مسلم[5] من حديث فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب، فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته فقال: والله ما لك علينا من شيء، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «ليس لك عليه نفقة»، فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم؛ فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده، فإذا

---

(١) الشاهد: أن المقداد بن الأسود كان من حلفاء قريش ولم يكن بقرشي، وتزوج ضباعة وهي هاشمية أي: أرفع منه نسبًا.

قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ١٣٥): المقداد هو ابن عمرو الكندي، نُسب إلىٰ الأسود بن عبد يغوث الزهري؛ لكونه تبناه فكان من حلفاء قريش، وتزوج ضباعة وهي هاشمية فلولا أن الكفاءة لا تعتبر بالنسب لما جاز له أن يتزوجها؛ لأنها فوقه في النسب، ولمن يعتبر الكفاءة في النسب أن يجيب بأنها رضيت هي وأولياؤها فسقط حقهم في الكفاءة، وهو جواب صحيح إن ثبت أصل اعتبار الكفاءة في النسب.

(٢) البخاري (حديث ٥٠٨٨).

(٣) مسلم حديث (٩٣٤).

(٤) وليس المراد تحريم تزويج من ليس بغني بامرأةٍ غنية، إنما المراد الاستحباب.

(٥) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

حللت فآذنيني» قالت: فلما حللت ذكرت له: أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، أنكحي أسامة بن زيد»، فكرهته ثم قال: «أنكحي أسامة»، فنكحته فجعل الله فيه خيرًا كثيرًا واغتبطت.

أما الذين لم يعتبروها فمن أدلتهم:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢].

وما أخرجه البخاري[1] من حديث سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل، فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حريٌّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا».

ومن أدلة الذين قالوا باعتبار الكفاءة في الصنعة: ما أخرجه أبو داود[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن أبا هند حجم النبي ﷺ في اليافوخ فقال النبي ﷺ: «يا بني بياضة، أنكحوا أبا هندٍ وانكحوا إليه».

وثَمَّ أنواع أُخر من أنواع الكفاءة، كالكفاءة في السلامة من العيوب ومن أدلة القائلين بها حديث: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[3]، وحديث: «لا يوردن ممرض على مُصح»[4]، وورد عليه حديث: «لا عدوى»[5].

---

(١) البخاري (حديث ٦٤٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٠٢) بإسنادٍ حسن.

(٣) أخرجه البخاري معلقًا (مع الفتح ١٠/ ١٥٨)، وأشار الحافظ هناك إلىٰ من وصله.

(٤) أخرجه البخاري (١٠/ ٢٤١ مع الفتح).

(٥) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٠/ ١٥٨، ١٧١،...).

وأنواع أُخر اعتبرها بعض العلماء كتقارب السن، وقد ورد عليه أن النبي ﷺ تزوج عائشة وهو يكبرها بما يقارب خمسة وأربعين عامًا، وتزوج خديجة وهي تكبره بخمسة عشر عامًا، وتزوج عمر بأم كلثوم بنت عليٍّ - رضي الله عنهم أجمعين - وهو أكبر سنًّا من أبيها.

فهذا ما أحببنا أن نشير إليه في أبواب الكفاءة، وإنما أشرنا إشارات فقط، ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة كتب الفقهاء في ذلك.



قال الله تعالى:

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[الحجرات: ١٤- ١٨]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿لَا يَلِتْكُم - مِّنْ أَعْمَالِكُمْ - لَمْ يَرْتَابُوا - ٱلصَّادِقُونَ - بِدِينِكُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَا يَلِتْكُم﴾	لا ينقصكم
﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ﴾	من ثواب أعمالكم
﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾	لم يشكوا في وحدانية الله ولا في نبوة نبيه ﷺ
﴿ٱلصَّادِقُونَ﴾	الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم
﴿بِدِينِكُمْ﴾	بطاعتكم لربكم - ما أنتم عليه من إيمان

❁ ❁ ❁

س: كيف تجمع بين قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وبين قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩]؟

ج: الجمع يمكن من وجهين:

الوجه الأول: أن يقال: إن القائلين: ﴿ءَامَنَّا﴾ من الأعراب هم أعراب مخصوصون معروفون، وهم كما قال بعض أهل العلم: أعراب بني أسد بن خزيمة، قاله الطبري.

الوجه الثاني: أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤] من العام المخصوص، فالحكم للأغلب، وذلك بأن يقال: إن عموم الأعراب لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وإنما هم مسلمون في الظاهر ولم يصدق عمل كثيرٍ منهم قوله، وقلة منهم هم المؤمنون المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩]، ويؤيد هذا الوجه الأخير قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، والله أعلم.

س: ما السبب الذي من أجله قيل لهؤلاء الأعراب: ﴿...وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؟

ج: في ذلك أقوال:

أحدها: أنه قيل لهم: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؛ لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولم تصدق أفعالُهم أقوالهم. وهذا هو اختيار الطبري رحمه الله تعالى، وأورد عددًا من الآثار عن القائلين به.

فأورد عن الزهري[1] قوله: الإسلام الكلمة والإيمان العمل. وأورد قول ابن زيد[2] في قوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ [الحجرات: ١٤]، قال: لم يصدقوا إيمانهم بأعمالهم، فرد الله ذلك عليهم: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وأخبرهم أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون، صدقوا إيمانهم بأعمالهم، فمن قال منهم: أنا مؤمن فقد صدق، قال: وأما من انتحل الإيمان بالكلام ولم يعمل فقد كذب، وليس بصادق.

وأورد الطبري آثارًا أخر وأقوالًا أخر ثم قال: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن الزهري، وهو أن الله تقدم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا في الملة إقرارًا منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعلمهم أن يقولوا بالإطلاق: آمنا دون تقييد قولهم بذلك بأن يقولوا: آمنا بالله ورسوله، ولكن أمرهم أن يقولوا القول الذي لا يشكل على سامعيه والذي قائله فيه محق، وهو أن يقولوا: أسلمنا، بمعنى: دخلنا في الملة والأموال، والشهادة الحق.

القول الثاني: أن هؤلاء الأعراب أرادوا أن ينزلوا أنفسهم منزلة ليست لهم، وهي منزلة المهاجرين، ولم يكونوا قد هاجروا، ومنزلة المؤمنين المجاهدين ولم يكونوا قد جاهدوا فقيل لهم ما ذكره الله في كتابه.

القول الثالث: أنه قيل لهم ذلك لما امتنوا على رسول الله ﷺ بإيمانهم وقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك، فقيل لهم: قولوا: أسلمنا واستسلمنا خوف القتل والسبي، وحفاظًا على أموالنا وأنفسنا ونسائنا.

---

(١)، (٢) وأسانيدهما صحيحة عنهما.

في الإيمان والإسلام

س: أيهما أعلى وأخص الإيمان أم الإسلام؟

ج: الإيمان أعلى مرتبة من الإسلام؛ إذ هو تصديق القلب مع عمل الجوارح فأعمال الجوارح من شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا وهي أعمال الإسلام، قد يعلمها الشخص وهو يضمر النفاق، كما قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

أما الإيمان فيستلزم أن نؤدي هذه الأعمال والقلب راضٍ عنها مرتاحٌ لها مصدقٌ بثوابها مؤمن بوجوبها.

فالإيمان أعلى وأخص من الإسلام، وذلك بما يلي:

لقوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولما أخرجه البخاري[1] ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فيهم. قال سعد: فترك رسول الله ﷺ منهم من لم يعطه. وهم أعجبهم إليَّ. فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلمًا» قال: فسكت قليلًا. ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله! ما لك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلمًا» قال: فسكت قليلًا، ثم غلبني ما علمته منه، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلمًا. إني لأُعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه خشية أن يُكب في النار على وجهه».

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٧)، ومسلم (حديث ١٥٠ صـ ١٣٢).

س: اذكر بعض أقوال أهل العلم في التفريق بين الإيمان والإسلام؟

ج: ابتداءً فقد سئل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان فأجاب، فتقدم جوابه أولًا وآخرًا على كل جواب، ففي صحيح مسلم[١] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند رُكبتيه إلى رُكبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا»**، قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويُصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»** قال: صدقت. فظهر بهذا الحديث أن الإسلام هو الاستسلام والانقياد والامتثال في الظاهر بالشهادتين وإقام الصلاة... إلى آخر ما ورد في تعريفه، أما الإيمان فهو التصديق بالقلب.

ولكن أحيانًا يأتي الإيمان ويتنزل على بعض الأعمال الظاهرة كما قال رسول الله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[٢].

وفي الصحيح[٣] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن وفد عبد القيس أتوا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«من الوفد؟» أو «من القوم؟»**... الحديث. وفيه: أنه أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: **«أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخُمس... الحديث.

ففسَّر فيه الإيمان ببعض الأعمال الظاهرة التي هي من أعمال الإسلام فعلى هذا

---

(١) مسلم حديث رقم (٨).

(٢) أخرجه مسلم (ص٦٣) واللفظ له، وأصله في البخاري (حديث رقم ٩).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥٣)، ومسلم (حديث ١٧ ص ٤٨).

قال بعض أهل العلم: إن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا كثير من الاصطلاحات في الكتاب العزيز بمعنى: أن الإيمان إذا جاء منفردًا عن الإسلام - في كثير من الأحيان يدخل فيه معنى الإسلام، وكذلك الأمر بالنسبة للإسلام، أما إذا جاء الإيمان والإسلام معًا في سياق واحد أخذ الإيمان معنى أخص وأعلى من الإسلام، وهو: تصديق القلب كما هو الحال في آية الحجرات التي نحن بصددها.

وأورد هنا بعض أقوال أهل العلم في هذا الصدد. قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح مسلم» في أول كتاب الإيمان.

في شرح حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان:

أهم ما يذكر في الباب اختلاف العلماء في الإيمان والإسلام وعمومهما وخصوصهما، وأن الإيمان يزيد وينقص أم لا؟ وأن الأعمال من الإيمان أم لا؟ وقد أكثر العلماء رحمهم الله تعالى من المتقدمين والمتأخرين القول في كل ما ذكرناه، وأنا أقتصر على نقل أطراف من متفرقات كلامهم يحصل منها مقصود ما ذكرته مع زيادات كثيرة. قال الإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي الفقيه الأديب الشافعي المحقق رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه معالم السنن: ما أكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة! فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة والإيمان العمل. واحتج بالآية يعني قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد. واحتج بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]. قال الخطابي: وقد تكلم في هذا الباب رجلان من كبراء أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قوله من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم وصنف عليه كتابًا يبلغ عدد أوراقه المئين.

قال الخطابي: والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنًا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنًا في بعضها والمؤمن مسلم

في جميع الأحوال، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا، وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات، واعتدل القول فيها ولم يختلف شيء منها. وأصل الإيمان: التصديق وأصل الإسلام الاستسلام والانقياد. فقد يكون المرء مستسلمًا في الظاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون صادقًا في الباطن غير منقاد في الظاهر، وقال الخطابي أيضًا في قول النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»: في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبه وتستوفي جملة أجزائه كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء له أدنى وأعلى، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبه وتستوفي جملة أجزائه كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء والاسم يتعلق ببعضها والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها ويدل عليه قوله ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**». وفيه: إثبات التفاضل في الإيمان، وتباين المؤمنين في درجاته هذا آخر كلام الخطابي.

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث سؤال جبريل ﷺ عن الإيمان والإسلام وجوابه قال: جعل النبي ﷺ الإسلام اسمًا لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك؛ لأن الأعمال ليست من الإيمان، والتصديق بالقلب ليس من الإسلام بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحدة جماعها الدين؛ ولذلك قال ﷺ: «**ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعًا يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام ولا يكون الدين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل. هذا كلام البغوي.

ثم قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله ﷺ:

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول اللهﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، والإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: هذا بيان لأصل الإيمان، وهو: التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام وهو: الاستسلام والانقياد الظاهر وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشهادتين وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والحج والصوم؛ لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر له الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات؛ لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان ومقويات ومتمات وحافظات له؛ ولهذا فسرﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو بدل فريضة؛ لأن اسم الشيء مطلقًا يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص ظاهرًا إلا بقيد؛ ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قولهﷺ: «لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»، واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن ويتناول أصل الطاعات؛ فإن ذلك كله استسلام، قال: فخرج مما ذكرناه وحققنا. أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا قال: وهذا تحقيق وافر بالتوفيق بين متفرقات نصوص الكتاب والسنة الواردة في الإيمان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون. وما حققناه من ذلك موافق لجماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم. هذا آخر كلام الشيخ أبي عمرو بن الصلاح، فإذا تقرر ما ذكرناه من مذاهب السلف وأئمة الخلف فهي متظاهرة متطابقة على كون الإيمان يزيد وينقص وقالوا: متى قبل الزيادة كان شكًّا وكفرًا. قال المحققون من أصحابنا المتكلمين: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها. قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف وبين أصل

وضعه في اللغة وما عليه المتكلمون. وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهرًا حسنًا فالأظهر- والله أعلم - أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة؛ ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك فهذا مما لا يمكن إنكاره ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس؛ ولهذا قال البخاري في صحيحه: قال ابن مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل. والله أعلم.

وأما إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فمتفق عليه عند أهل الحق ودلائله في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تشهر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[البقرة: ١٤٣]، أجمعوا على أن المراد: صلاتكم. وأما الأحاديث فستمر بك في هذا الكتاب منها جمل مستكثرات، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما الفرق بين الإسلام والإيمان في هذه الآية: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]؟

ج: أُورد هنا قول الشنقيطي رحمه الله تعالى، فقد قال في «أضواء البيان» عند تفسير هذه الآية: ذكر جل وعلا هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء الأعراب - وهم أهل البادية من العرب - قالوا: آمنا، وأن الله جل وعلا أمر نبيه أن يقول لهم: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[الحجرات: ١٤]، وهذا يدل على نفي الإيمان عنهم وثبوت الإسلام لهم.

وذلك يستلزم أن الإيمان أخص من الإسلام؛ لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

وقد قدمنا مرارًا أن مسمى الإيمان الشرعي الصحيح، والإسلام الشرعي

الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل، فمؤداها واحد كما يدل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

وإذا كان ذلك كذلك فإنه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام في هذه الآية الكريمة؛ لأن الله نفى عنهم الإيمان دون الإسلام، ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما عندي: أن الإيمان المنفي عنهم في هذه الآية هو مسماه الشرعي الصحيح، والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب.

وإنما ساغ إطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الإسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح؛ لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر، وأن توكل السرائر إلى الله.

فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل واللسان بالإقرار يكتفي به شرعًا، وإن كان القلب منطويًا على الكفر.

ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغوية في قوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، لأن انقياد اللسان والجوارح في الظاهر إسلام لغوي مكتفي به شرعًا عن التنقيب عن القلوب.

وكل انقياد واستسلام وإذعان يسمى: إسلامًا لغةً. ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوي مسلم الجاهلية:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخرًا ثقالًا
دحاها فلما استوت شدَّها	جميعًا وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له المزن تحمل عذبًا زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة	أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الريح تصرف حالًا فحالا

فالمراد بالإسلام في هذه الأبيات: الاستسلام والانقياد، وإذا حمل الإسلام في

قوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ انقدنا واستسلمنا بالألسنة والجوارح. فلا إشكال في الآية.

وعلى هذا القول فالأعراب المذكورون منافقون؛ لأنهم مسلمون في الظاهر، وهم كفار في الباطن.

الوجه الثاني: أن المراد بنفي الإيمان في قوله: ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ نفي كمال الإيمان، لا نفيه من أصله.

وعليه إشكال أيضًا؛ لأنهم مسلمون مع أن إيمانهم غير تام، وهذا لا إشكال فيه عند أهل السنة والجماعة القائلين: بأن الإيمان يزيد وينقص.

وإنما استظهرنا الوجه الأول، وهو أن المراد الإسلام معناه اللغوي دون الشرعي، وأن الأعراب المذكورين كفار في الباطن وإن أسلموا في الظاهر؛ لأن قوله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ يدل على ذلك دلالة كما ترى؛ لأن قوله: ﴿يَدۡخُلِ﴾ فعل في سياق النفي وهو من صيغ العموم كما أوضحناه مرارًا، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود:

ونحو لا شربت أو إن شربا ... واتفقوا إن مصدر قد جلبا

فقوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ في معنى: لا دخول للإيمان في قلوبكم.

والذين قالوا بالثاني قالوا: إن المراد بنفي دخوله نفي كماله، والأول أظهر كما ترى.

وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾: المراد به بعض الأعراب، وقد استظهرنا أنهم منافقون؛ لدلالة القرآن على ذلك، وهم من جنس الأعراب قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ [التوبة: ٩٨]، وإنما قلنا: إن المراد بعض الأعراب في هذه الآية؛ لأن الله بين في موضع آخر أن منهم من ليس كذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التوبة: ٩٩].

س: هل هؤلاء الأعراب الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ كانوا مسلمين، أم كانوا منافقين؟

ج: الظاهر أنهم كانوا مسلمين، وقد قال الله تبارك وتعالى لهم: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ ولم يرد في الآية الكريمة ما يشير إلى أنهم من أهل النفاق، وإنما هم مسلمون ادَّعوا لأنفسهم مقامًا أعلى من مقام الإسلام، وهو مقام الإيمان، فأدبوا لذلك، وهو الذي اختاره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورد ما ذكره بعض العلماء، إذ وصفوا هؤلاء الأعراب بالنفاق، وحملوا قولهم. ﴿أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبي، فرد الحافظ هذا الكلام، واختار أنهم من أهل الإسلام.

ولمزيد انظر كلام الشنقيطي المتقدم.

❁ ❁ ❁

إجراء الأحكام على الأغلب

س: هل لبناء الأحكام على الأغلب شواهد؟

ج: نعم لهذا شواهد، ومن شواهد ذلك ما يلي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ومن ثمَّ حرمت الخمر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[(١)] من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه[(٢)]»، قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم! إذا كثر الخبث».

وفي الصحيحين[(٣)] من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أنها قالت: قال

---

(١) البخاري حديث (٧٠٥٩)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) في بعض الروايات: وعقد سفيان بيده عَشَرَةً، وفي بعضها وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها.

(٣) البخاري (حديث ٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤). =

رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم» قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم».

وكذلك أحد الأوجه في تفسير قوله تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ [الحجرات: ١٤] مع أن هناك من الأعراب من هو مؤمن، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة: ٩٩].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم﴾ [الحجرات: ١٤].

ج: المعنى، والله أعلم، وإن تصدقوا إيمانكم بأعمالكم يقبل ذلك منكم ولا يبخسكم حقوقكم، ولا ينقصكم أجوركم.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٤]؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الله ذو عفو - أيها الأعراب - لمن أطاعه، وتاب إليه من سالف ذنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبكم، رحيم بخلقه التائبين إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذنوبهم، على ما تابوا منه، فتوبوا إليه يرحمكم.

قلت (مصطفى): ووجه ختام الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ للحث على التوبة والاستغفار، ورجاء رحمة الله عزَّ وجلَّ.

❁ ❁ ❁

= وفي بعض روايات مسلم: فقلنا يا رسول الله: إن الطريق قد يجمع الناس، قال: «نعم، فيهم المستبصر، والمجبور، وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم».

س: ما المراد بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١٥]؟

ج: المراد: المؤمنون الكُمل في إيمانهم.

❁ ❁ ❁

تعدد صور الجهاد في سبيل الله

س: صور الجهاد في سبيل الله تتعدد ولا تقف عند الجهاد بالسيف، اذكر بعض هذه الصور.

ج: لذلك صور، فمنها:

الجهاد بالمال؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ...﴾[التوبة: ٨٨] .

وبالنفس كذلك كما في قوله تعالى أيضًا: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾[التوبة: ١١١] .

وباللسان أيضًا ففي صحيح مسلم[(١)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧] سبب نزول؟

ج: لم يصح لهذه الآية سبب نزول.

❁ ❁ ❁

(١) مسلم (حديث ٥٠ ص ٧٠).

س: من هم الذين امتنوا على رسول الله بإسلامهم؟

ج: هم طائفة من الأعراب، قال بعض أهل العلم: إنهم بنو أسد.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: ١٧].

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يمن عليك هؤلاء الأعراب يا محمد أن أسلموا ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] يقول: بل الله يمن عليكم - أيها القوم - أن وفقكم للإيمان به وبرسوله ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ يقول: إن كنتم صادقين في قولكم: آمنا، فإن الله هو الذي منَّ عليكم بأن هداكم له، فلا تمنوا عليَّ بإسلامكم.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه ختام السورة الكريمة والحديث عن الأعراب الوارد فيها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحجرات: ١٨]؟

ج: وجه ذلك: الحث على مراقبة الله سبحانه وتعالى في السر والعلن، وفي الغيب والشهادة.

قال الطبري رحمه الله تعالى:

يقول تعالى ذكره: إن الله - أيها الأعراب - لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب، ومن الداخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه، ومن الداخل فيه رهبة من رسولنا محمد ﷺ وجنده، فلا تعلمونا دينكم وضمائر صدوركم؛ فإن الله يعلم ما تكنه ضمائر صدوركم، وتحدثون به أنفسكم، ويعلم ما غاب عنكم، فاستسرَّ في خبايا السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ يقول: والله ذو بصر بأعمالكم التي تعملونها أجهرًا تعملون أم سرًّا، طاعة تعلمون أم معصية، وهو مجازيكم على جميع ذلك، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ وكُفُؤه.

سورة ق

قال الله تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾

[ق: ١-١١]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿قٓ - ٱلۡمَجِيدِ - عَجِبُوٓاْ - رَجۡعُۢ - بَعِيدٞ - مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ - حَفِيظُۢ - مَّرِيجٍ - فُرُوجٖ - مَدَدۡنَٰهَا - رَوَٰسِيَ - زَوۡجِۭ - بَهِيجٖ - تَبۡصِرَةٗ - وَذِكۡرَىٰ - مُّنِيبٖ - مُّبَٰرَكٗا - جَنَّٰتٖ - وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ - بَاسِقَٰتٖ - طَلۡعٞ - نَّضِيدٞ - رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ - بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿قٓ﴾	حرف من الحروف المقطعة التي بُدئت بها بعض السور لا يعلمها إلا الله
﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾	العظيم - الكريم - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (أي: الذى لا يُدخل عليه الشيطان شيئًا ليس منه)
﴿عَجِبُوٓاْ﴾	تعجبوا
﴿رَجۡعُۢ﴾	بعثٌ ورجوع إلى الحياة الدنيا بعد الممات (وذلك في الدار الآخرة)
﴿بَعِيدٞ﴾	مستبعد
﴿مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾	ما تأكله الأرض من أجسادهم
﴿حَفِيظُۢ﴾	حُفظت فيه الأعمال والمقادير فلا تُمحى ولا يُدرس هذا الكتاب ولا يبلى
﴿مَّرِيجٍ﴾	مختلط[1] - ملتبس عليهم - مضطرب - مختلف[2] - منكر
﴿فُرُوجٖ﴾	شقوق - ثقوب
﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾	بسطناها
﴿رَوَٰسِيَ﴾	جبالًا

(١) ومنه مرج البحرين يلتقيان، ومنه مرجت عهودهم.

(٢) وشاهده: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨﴾ [الذاريات: ٨]

﴿زَوۡجِۭ﴾	صنف - نوع من أنواع النباتات
﴿بَهِيجٖ﴾	حسن المنظر
﴿تَبۡصِرَةٗ﴾	شيءٌ تبصرونه بأعينكم فيحملكم على الطاعة - تبصرون به قدرة الله - دلالةً - إيضاحًا
﴿وَذِكۡرَىٰ﴾	تذكيرًا
﴿مُّنِيبٖ﴾	رجَّاع إلى الله - مقبل على طاعة الله
﴿مُّبَٰرَكٗا﴾	نافعًا - كثير النفع
﴿جَنَّٰتٖ﴾	حدائق وبساتين
﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾	الحب الذي يحصد ويُدخر (كالبر والشعير وسائر الحبوب)
﴿بَاسِقَٰتٖ﴾	طوالًا
﴿طَلۡعٞ﴾	الطلع أول ما يخرج من ثمر النخل
﴿نَّضِيدٞ﴾	منضود - بعضه على بعض - متراكب
﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾	غذاء للعباد - قوامًا للعباد
﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾	أرضًا لا زرع فيها ولا نبات

❁ ❁ ❁

بداية المفصل

س: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المفصل يبدأ من سورة «ق» حتى سورة «الناس» (أي: لآخر المصحف)، فما الدليل الذي استدلوا به لذلك؟

ج: نعم، قد نقل الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، فقد قال في مطلع تفسيره لسورة «ق»:

وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من ﴿عَمَّ﴾ فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا أخرجه أبو داود وغيره من حديث أوس بن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده[1].

هذا، وقد اختار الحافظ ابن كثير هذا القول الذي مفاده أن سورة «ق» هي أول سور المفصل، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: كثيرًا ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في الأعياد بسورة «ق» اذكر الدليل الوارد بذلك؟

ج: أخرج مسلم في صحيحه من طريق عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقدٍ الليثي ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾[2].

❁ ❁ ❁

س: لما كان رسول الله ﷺ يقرأ بهذه السورة في خطب الجمعة والأعياد؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.



التنبيه على بعض خرافات بني إسرائيل

س: ما المراد بـ﴿قٓۚ﴾؟

ج: الظاهر لي، والله تعالى أعلم، أنها حرفٌ من الحروف التي بُدئت بها بعض

(١) أبو داود (١٣٩٣)، وأحمد (٤/ ٩) وابن ماجه (١٣٤٥).

(٢) مسلم (٨٩١).

السور، كتلك الحروف المقطعة: ﴿الٓمٓ - الٓمٓصٓ - كٓهيعٓصٓ﴾ ونحو ذلك، والعلم بهذه الأحرف وبما تضمنته لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ.

هذا، وقد قدمت أقوال أهل العلم في ذلك في مطلع تفسير سورة البقرة، وهذا هو الذي اختاره هاهنا أنها حرف بُدئت به السورة المباركة، والعلم به موكول إلى الله عزَّ وجلَّ.

ومن العلماء من قال إنها اسم من أسماء القرآن، ومنهم من قال: إنها اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ، وكل هذا لا دليل عليه.

هذا، وقد أبعد جدًّا من قال: إنها جبلٌ محيط بالأرض، وقد أحسن الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى إذ جنح إلى أن هذا الأخير من خرافات بني إسرائيل، فقد قال قولًا في هذا المقام جديرٌ به أن ينقل، وذلك للاحتياج إليه حيث أن مثل هذه الخرافات تتكرر في تفسير كتاب الله عزَّ وجلَّ وحريٌّ بالمفسرين، أن يُضربوا عنها ويعرضوا عنها حفظًا للأوقات وصيانة للدين وللكتاب العزيز.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف. وكأن هذا -والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افتري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها- أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل - والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من

الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ هذا قسم، فما جوابه؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن جوابه يأتي بعد ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤﴾.

الثاني: أن جوابه مُضمَّن في الكلام الذي بعد القسم، وإن لم يُصرح به لفظًا، وهو إثبات صحة ما جاء به الكتاب العزيز من إثبات النبوة، وإثبات البعث وغير ذلك.

فيكون المعنى والقرآن المجيد إن هذا القرآن لحق، وإنك لنبيٌّ وإن الساعة لآتية لا ريب فيها...

وهذا الذي اختاره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال:

الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظًا، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إن هؤلاء أهل الكفر ما كذبوك يا رسول الله فإنهم يعلمون أنك صادق، ولكنهم تعجبوا من إرسال رسولٍ من البشر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ما

السور، كتلك الحروف المقطعة: ﴿الٓمٓ - الٓمٓصٓ - كٓهيعٓصٓ﴾ ونحو ذلك، والعلم بهذه الأحرف وبما تضمنته لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ.

هذا، وقد قدمت أقوال أهل العلم في ذلك في مطلع تفسير سورة البقرة، وهذا هو الذي اختاره هاهنا أنها حرف بُدئت به السورة المباركة، والعلم به موكول إلى الله عزَّ وجلَّ.

ومن العلماء من قال إنها اسم من أسماء القرآن، ومنهم من قال: إنها اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ، وكل هذا لا دليل عليه.

هذا، وقد أبعد جدًّا من قال: إنها جبلٌ محيط بالأرض، وقد أحسن الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى إذ جنح إلى أن هذا الأخير من خرافات بني إسرائيل، فقد قال قولًا في هذا المقام جديرٌ به أن ينقل، وذلك للاحتياج إليه حيث أن مثل هذه الخرافات تتكرر في تفسير كتاب الله عزَّ وجلَّ وحريٌّ بالمفسرين، أن يُضربوا عنها ويعرضوا عنها حفظًا للأوقات وصيانة للدين وللكتاب العزيز.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف. وكأن هذا -والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افتري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها- أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل - والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من

كذبك يا محمد مشركو قومك أن لا يكونوا عالمين بأنك صادق محق، ولكنهم كذبوك تعجبًا من أن جاءهم منذر ينذرهم عقاب الله منهم، يعني: بشرًا منهم من بني آدم، ولم يأتهم ملك برسالة من عند الله.

❁ ❁ ❁

س: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ...﴾ لماذا لم يقل: بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقالوا...؟

ج: أجاب على ذلك القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

ولم يقل: فقالوا بل قبّح حالهم وفعلهم، ووصفهم بالكفر كما تقول: جاءني فلان فأسمعني المكروه، وقال لي الفاسق: أنت كذا وكذا.

❁ ❁ ❁

س: دومًا يستنكر المشركون إرسال رسولٍ من البشر، دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قولهم الذي حكاه الله عزَّ وجلَّ عنهم إذ قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

وكذا قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وكذا قول قوم فرعون لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

إلى غير ذلك، وقد قدمنا كثيرًا من هذا، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: إلى ماذا الإشارة بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾؟

ج: الإشارة إلى إرسال الرسول من البشر فكأن المعنى، هذا الذي يحدث من إرسال رسولٍ من البشر شيءٌ عجيب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فقال المكذبون بالله

ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾: أي مجيء رجل منا من بني آدم برسالة الله إلينا، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: ٧].

❀ ❀ ❀

س: ما وجه قول الكفار: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ مع أنه لم يجر للبعث ذِكرٌ من قبل؟

ج: من العلماء من قال: إن الكلام الذي سبق هذه الآية فيه مُضمر، ومفاده أن الرسول الذي أُرسل إليهم منذر قد أنذرهم الساعة والبعث بعد الموت فقالوا متعجبين مُنكرين: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣...﴾ أي: كيف يُحيينا وقد صِرنا عظامًا ورفاتًا، فهذا أمرٌ مستبعد لا حدوث له.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال مخبرًا عنهم في تعجبهم أيضًا من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ أي: يقولون: أإذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابًا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه.

هذا، وقد أورد الطبري رحمه الله تعالى مثل هذا السؤال، واستفاض في الإجابة عليه فقال:

يقول القائل: لم يجر للبعث ذكر، فيخبر عن هؤلاء القوم بكفرهم ما دعوا إليه من ذلك، فما وجه الخبر عنهم بإنكارهم ما لم يدعوا إليه، وجوابهم عما لم يسألوا عنه. قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك، فنذكر ما قالوا في ذلك، ثم نتبعه البيان إن شاء الله تعالى، فقال في ذلك بعض نحويي البصرة قال: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾، لم يذكر أنه راجع، وذلك والله أعلم لأنه كان على جواب، كأنه قيل لهم: إنكم ترجعون، فقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ وقال بعض نحويي الكوفة قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ كلام لم يظهر قبله، ما يكون هذا جوابًا له، ولكن معناه مضمر، إنما كان والله أعلم: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ لتبعثن بعد الموت،

فقالوا: أإذا كنا ترابا بعثنا؟ جحدوا البعث، ثم قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ جحدوه أصلًا، قوله: ﴿بَعِيدٞ ۝٣﴾ كما تقول للرجل يخطئ في المسألة، لقد ذهبت مذهبًا بعيدًا من الصواب: أي أخطأت.

والصواب من القول في ذلك عندنا، أن في هذا الكلام متروكًا استغني بدلالة ما ذكر عليه من ذكره، وذلك أن الله دل بخبره عن تكذيب هؤلاء المشركين الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عن تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ على وعيده إياهم على تكذيبهم محمدا ﷺ، فكأنه قال لهم: إذ قالوا منكرين رسالة الله رسوله محمدًا ﷺ ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ ستعلمون أيها القوم إذا أنتم بعثتم يوم القيامة ما يكون حالكم في تكذيبكم محمدًا ﷺ، وإنكاركم نبوته، فقالوا مجيبين رسول الله ﷺ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ نعلم ذلك، ونرى ما تعدنا على تكذيبك ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾: أي أن ذلك غير كائن، ولسنا راجعين أحياء بعد مماتنا، فاستغني بدلالة قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ من ذكر ما ذكرت من الخبر.

❀ ❀ ❀

س: اذكر بعض الأدلة على إنكار المشركين للبعث؟

ج: الأدلة على ذلك كثيرةٌ جدًّا، منها:

قولهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ [ق: ٣].

وقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١﴾ [النازعات: ١٠-١١].

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨].

إلى غير ذلك من الآيات.

❀ ❀ ❀

س: ما المراد بالكتاب الحفيظ؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنه الكتاب الذي كتبت فيه أعمالهم.

الثاني: أنه اللوح المحفوظ، وثمَّ أقوال أُخر أَوْلاها أَوَّلُها، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، قد علمنا ما تأكله الأرض من أجسادهم ومن أبشارهم وجلودهم وعظامهم، ومع علمنا بذلك كله وبقدر ما أُكل من أجسادهم، عندنا أيضًا كتاب حافظ لذلك مثبت فيه كل ذلك.

كما في الآية الأخرى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله تعالى رادًّا عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالحق في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾؟

ج: جمهور أهل العلم أن المراد به القرآن[1]، بل نُقل الإجماع على ذلك، وقد قيل: إن ذلك يتضمن الإسلام، ويتضمن رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى كلمة مريجٍ؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

---

(١) قال القرطبي قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن في قول الجميع، حكاه الماوردي، وقال الثعلبي بالحق: القرآن، وقيل: الإسلام، وقيل: محمد ﷺ.

أحدها: أن مريج معناها: مختلط، وملتبسٌ.

الثاني: أن مريج معناها: منكر وضلالة.

الثالث: أن معنى مريج مختلف كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ [الذاريات: ٨].

وفي الباب قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ [الرحمن: ١٩].

وكذا الحديث: «مرجت عهودهم».

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما قلت: هذه العبارات وإن اختلفت ألفاظها فهي في المعنى متقاربات، لأن الشيء مختلف ملتبس، معناه مشكل. وإذا كان كذلك كان منكرًا، لأن المعروف واضح بَيِّن، وإذا كان غير معروف كان لا شك ضلالة، لأن الهدى بَيِّن لا لبس فيه.

❀ ❀ ❀

س: ما وجه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: فهم في أمر ملتبس، ووجه هذا الالتباس والتشكك والتضارب أنهم لم يتفقوا في القرآن على شيء واحد بل منهم من قال: سحر، ومنهم من قال: كهانة، ومنهم من قال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥]، ومنهم من قال عن الرسول ﷺ: شاعر، ومنهم من قال: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال، وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه من كل شائنةٍ تُشين.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، إن هؤلاء الكفار ما أصابوا حين قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾، ولكنهم كذبوا بالحق عند مجيئه إليهم، فالتبست عليهم الأمور، وهذا شأن من يرفض الحق ويكذب به ويُعرض عنه، فإنه يبتلى باختلاط الأمور واتباع الباطل والشكوك والريب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ما أصاب هؤلاء المشركون القائلون ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ٣﴾ في قيلهم هذا ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، وهو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ٥﴾ أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ٩﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

❀ ❀ ❀

الحث على التدبر والتفكر في آيات الله

س: اذكر بعض الأدلة على الحث على التفكر والتدبر في مخلوقات الله عزَّ وجلَّ للاستدلال بذلك على قدرة الله عزَّ وجلَّ ووحدانيته.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ...﴾ [ق: ٦-٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾ [الروم: ٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام: ١١].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث المشركون بالله إلى السماء فوقهم كيف بناها الله عزَّ وجلَّ، وجعلها متماسكة قوية ليس فيها ثقوب ولا شقوق ولا تصدعات ثم كيف زُيِّنت بالكواكب والنجوم، فيدفعهم هذا النظر إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ والإيمان به والإقلاع عما هم فيه من الغواية والكفر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ يقول تعالى ذكره: أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد بلائهم ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ فسويناها سقفًا محفوظًا، وزيناها بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ يعني: وما لها من صدوع وفتوق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى منبهًا للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾؟ أي: بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾. قال مجاهد: يعني من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣، ٤] أي: كليل، أي: عن أن يرى عيبًا أو نقصًا.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تعظيم شأن كيفية بنائه تعالى للسماء وتزيينه لها وكونها لا تصدع ولا شقوق فيها جاء كله موضحًا في آيات أخر كقوله جل وعلا في بنائه للسماء: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات:٢٧-٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات:٤٧]، وقوله تعالى:

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ [النبأ:١٢]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾ [المؤمنون:١٧]، وقوله تعالى في أول الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢]، وقوله تعالى في لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان:١٠]، إلى غير ذلك من الآيات. وكقوله تعالى في تزيينه للسماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك:٥]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت:١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦﴾ [الحجر:١٦]، وكقوله تعالى في حفظه للسماء من أن يكون فيها فروج أي شقوق: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك:٣]، والفطور والفروج بمعنى واحد، وهو الشقوق والصدوع، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء:٣٢]، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تتشقق وتتفطر، وتكون فيها الفروج كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان:٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ [الرحمن:٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ [الحاقة:١٥-١٦]. وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وقال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ [المرسلات:٨-٩].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا، ولا فروجًا، ولا خلالًا ولا إخلالًا.

قد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أفلم يروا الأرض وكيف بسطناها وثبتناها بالجبال وأنبتنا فيها من كل الأصناف، أصناف النباتات ذات المنظر الحسن البهيج فيستدلوا بذلك على وحدانية الله عزَّ وجلَّ، وعلى قدرته وعلى البعث بعد الموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ وهي: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي: حسن نضر.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ يقول: والأرض بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ يقول: وجعلنا فيها جبالا ثوابت، رست في الأرض، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ يقول تعالى ذكره: وأنبتنا في الأرض من كل نوع من نبات حسن، وهو البهيج.

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال الرواسي وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحا في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد:٣]، وكقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [لقمان:١٠-١١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي قدرنا الأرض

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أفلم يروا الأرض وكيف بسطناها وثبتناها بالجبال وأنبتنا فيها من كل الأصناف، أصناف النباتات ذات المنظر الحسن البهيج فيستدلوا بذلك على وحدانية الله عزَّ وجلَّ، وعلى قدرته وعلى البعث بعد الموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وهي: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي: حسن نضر.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ يقول: والأرض بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ يقول: وجعلنا فيها جبالا ثوابت، رست في الأرض، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ يقول تعالى ذكره: وأنبتنا في الأرض من كل نوع من نبات حسن، وهو البهيج.

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال الرواسي وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحا في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد:٣]، وكقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [لقمان:١٠-١١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي قدرنا الأرض

وألقينا فيها الرواسي وأنبتنا فيها أصناف النبات الحسنة لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلى كل شيء وعلى استحقاقنا للعبادة دون غيرنا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿و﴾ إلى ﴿ ٱلْأَرْضَ﴾ كيف ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ ووسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من التزلزل، والتموج، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ⁽٧⁾﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات، التي تسر ناظريها، وتعجب مبصريها، وتقر عين رامقيها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك، من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات، أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلى السماء، حتى تبلغ مبلغًا، لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قنوانها، ما هو رزق للعباد، قوتًا وأدمًا وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار، التي على وجه الأرض، تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بر وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⁽٨⁾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن ما ذُكر من خلق السموات والأرض، والجبال وصنوف النباتات كل ذلك إيضاحًا وتذكير لكل عبد رجاع إلى الله تائبٍ يستوضح بها الدلالات على قدرة الله عزَّ وجلَّ وعلى وحدانيته ويبصر بها ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⁽٨⁾﴾ أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جُعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي: خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾ يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس نبصركم بها قدرة

ربكم على ما يشاء، ﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾ يقول: وتذكيرا من الله عظمته وسلطانه، وتنبيها على وحدانيته ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾ يقول: لكل عبد رجع إلى الإيمان بالله، والعمل بطاعته.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ألم ينظر هؤلاء المكذبون، وكذا أو لم ينظر عموم الخلق إلى الماء الذي أنزلناه من السماء، ذلكم الماء المبارك النافع، فقد نزلناه من السماء فأنبتنا به حدائق وبساتين كانت ميتة، وكذا أنبتنا به سائر الحبوب التي تؤكل وتكال وتوزن وتدخر كالشعير والبرُّ ونحو ذلك من الحبوب وغيرها كذلك.

وكذلك النخل الباسق الطويل الذي له طلع متراكب بعضه فوق بعض، وكذا ثماره بعضها فوق بعض.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: نافعًا، ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨﴾ وهو: الزرع الذي يراد لحبته وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوالًا شاهقات.

وقال في معنى: ﴿نَّضِيدٌ ⑩﴾، أي: منضود.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن هذه الجنات والبساتين، وما فيها من فواكه وخضراوات وثمار، وكذا حب الحصيد الذي هو البر والشعير وسائر الحبوب، وكذا ثمار النخيل، كل ذلك جعلناه منفعة للعباد وغذاء للعباد ومتاعًا للعباد، ولقد قيل: إن المراد بالعباد هنا الخلق الذين هم على الأرض.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماءِ، والأرضَ التي كانت ميتة لا ثمر فيها ولا نبات ولا خضرة فيها ولا بهجة، فأنبتنا في الأرض من كل زوجٍ بهيج حسن المنظر، فكذلك البعث يوم القيامة بعد أن أمتناكم في الدنيا، فكما أننا نخرج النبات من الأرض بعد موتها فكذلك نخرج الموتى يوم القيامة بعد دفنهم في الأرض، نخرجهم منها للبعث والحساب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ﴾ وهي: الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ﴾ يقول تعالى ذكره: وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بلدة ميتا قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ يقول تعالى ذكره: كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾، معناه أن الله تبارك وتعالى: يبين أن إحياء الأرض بعد

موتها بإنبات النبات فيها بعد انعدامه واضمحلاله، دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم ترابا وعظاما. فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ يعني أن خروج الناس أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه، بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم، وهذا أحد براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن.

❁ ❁ ❁

بعض الأدلة على البعث

س: كثيرًا ما يستدل على البعث بعد الموت بإحياء الأرض بعد موتها. اذكر بعض الأدلة على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾...﴾ [يس: ٣٣] الآيات.

إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿الْأَيْكَةِ - وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿الْأَيْكَةِ﴾	الشجر الكثير الملتف
﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾	قوم شعيب عليه السلام

❁ ❁ ❁

س: من أصحاب الرس؟

ج: لم يرد في ذِكرهم - فيما علمت - خبرٌ ثابتٌ عن النبي ﷺ، وقد قال بعض أهل العلم إن الرسَّ بئرٌ وإنهم ألقوا نبيهم فيها، وقد قيل: إنه صاحب «سورة يس»، ولعلَّ الكلام يأتي في غير هذا الموطن باستيفاءٍ إن شاء الله.

❁ ❁ ❁

س: من أصحاب الأيكة؟ وما معنى الأيكة؟

ج: أما الأيكة فهي الشجر الكثير الملتف.

أما أصحاب الأيكة فهم القوم الذين أرسل إليهم نبي الله شعيب عليه السلام.

❁ ❁ ❁

س: من قوم تُبع؟ ومن تبعُ؟

ج: لم أقف في ذلك على خبر ثابت عن النبي ﷺ، والأخبار الواردة في ذلك فيها مقال، وقد قيل إن تبع رجلٌ صالح كان باليمن، وقيل: إنه نبي.

أما قومه فهم قوم كانوا يعبدون الأصنام مكذبين بالبعث، والله أعلم.

هذا، وقد أخرج الطبري[١] في تفسيره بإسناده إلى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تلعنوا تبعًا فإنه كان قد أسلم»[٢].

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، كذبت - قبل مشركي قريش - أقوام سبقتهم في الضلالة والغواية والعناد، وهم قوم نوحٍ وكذا أصحاب الرس وثمود (الذين هم قبيلة نبي الله صالح عليه السلام)، وعاد (وهم قبيلة نبي الله هود عليه السلام)، وفرعون، وأمره معلوم وإخوان لوط، الذين أرسل إليهم نبي الله لوط عليه السلام، وكذا كذب أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام، وكذا قوم تبع اليماني، كل هؤلاء كذبوا رسل الله الكرام فحق عليهم ما كتبه الله عليهم من الوعيد بالعذاب، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، كل هذه الأمم التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ، وذكر أنها كذبت رسلها كلها عُذِّبت وحلَّ بها ما كتب عليها من العذاب والعقاب.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ يقول تعالى ذكره: كل هؤلاء الذين ذكرناهم كذبوا رسل الله الذين أرسلهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ يقول: فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم بالله، وحل بهم العذاب والنقمة. وإنما وصف ربنا جل ثناؤه ما وصف في هذه الآية من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ترهيبًا منه بذلك مشركي قريش وإعلامًا منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ، أنه

---

(١) الطبري (٣١٨٤٦).

(٢) ضعيف جدًّا: ففي سنده عمرو بن جابر، وهو كذاب.

محل بهم من العذاب، مثل الذي أحل بهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة «الفرقان»، ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولًا فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.



قال الله تعالى:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾

[ق: ١٥-٣٠]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَفَعَيِينَا - بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ - لَبْسٍ - خَلْقٍ جَدِيدٍ - حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ - ٱلْمُتَلَقِّيَانِ - قَعِيدٌ - مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ - رَقِيبٌ - عَتِيدٌ - سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ - بِٱلْحَقِّ - تَحِيدُ - ٱلصُّورِ - ٱلْوَعِيدِ - سَآئِقٌ - شَهِيدٌ - غَفْلَةٍ - غِطَآءَكَ - فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ - قَرِينُهُۥ - مَا لَدَىَّ - عَتِيدٌ - كَفَّارٍ - عَنِيدٍ - مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ - مُعْتَدٍ - مُّرِيبٍ - مَآ أَطْغَيْتُهُۥ - ضَلَٰلٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَفَعَيِينَا﴾	أفأعجزنا - أفأرهقنا - أفتعبنا
﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾	ابتداء الخلق - خلق الإنسان أول مرة
﴿لَبْسٍ﴾	شك
﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾	البعث بعد الموت
﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾	عرق من ابن آدم- حبل العاتق (ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه)
﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾	ملكان من الملائكة
﴿قَعِيدٌ﴾	قاعدٌ مترصد يرصد
﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾	ما يتكلم به من شيء
﴿رَقِيبٌ﴾	حافظ - متبع للأمور - شاهد
﴿عَتِيدٌ﴾	حاضرٌ لا يغيب - مُعدٌّ (للشهادة) مهيأ
﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾	شدته وغلبته على فهم الإنسان (كالسكرة من النوم أو الشراب)
﴿بِٱلْحَقِّ﴾	موضحة الحق مظهرةٌ له - مجيئها بالحق
﴿تَحِيدُ﴾	تميل - تروغ - تهرب
﴿ٱلصُّورِ﴾	قرن يُنفخ فيه
﴿ٱلْوَعِيدِ﴾	اليوم الذي وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه

﴿سَآئِقٌ﴾	سائق يسوقها إلى الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة (وهو ملك من الملائكة)
﴿شَهِيدٌ﴾	من يشهد عليها يوم القيامة
﴿غَفْلَةٍ﴾	عدم رؤيا - عدم علم - عدم استيعاب الأمر على حقيقته
﴿غِطَآءَكَ﴾	ما كان يحجبك عن الرؤية الصحيحة والعلم الصحيح
﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾	بصرك اليوم - يوم القيامة نافذٌ وقوي وعلمك اليوم يقيني وهو من قولهم: فلان بصير بهذا الأمر إذا كان ذا علمٍ به وله بهذا الأمر بصرٌ
﴿قَرِينُهُۥ﴾	صاحبه
﴿مَا لَدَىَّ﴾	ما عندي
﴿عَتِيدٌ﴾	معدٌّ حاضرٌ
﴿كَفَّارٍ﴾	جاحد لوحدانية الله عزَّ وجلَّ
﴿عَنِيدٍ﴾	معاندٌ للحق معارض له
﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾	مناعٌ للزكوات الواجبة والصدقات
﴿مُعْتَدٍ﴾	ظالمٌ باغ
﴿مُّرِيبٍ﴾	شاك في أمر البعث
﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾	ما جعلته طاغيًا متجاوزًا للحد ما أضللته
﴿ضَلَٰلٍ﴾	بُعد عن الحق وانحراف عنه

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالخلق الأول، وما المراد بالخلق الجديد؟

ج: المراد بالخلق الأول خلق الإنسان في أول مرةٍ، أي لما كان نطفة ثم علقة ثم مضغة...

وقيل: المراد خلق آدم عليه السلام.

أما الخلق الجديد فهو البعث بعد الموت، والله أعلم.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

هذه الآية الكريمة من براهين البعث، لأن من لم يعي بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى، لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء. والآيات الدالة على هذا كثيرة جدًّا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

❀ ❀ ❀

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أفأعجزنا وأتعبنا وأرهقنا، وأصابنا العيُّ الذي هو التعبُ والإرهاق والنَّصبُ بسبب ابتدائنا الخلق، كلا بل ما أرهقنا الخلقُ الأول ولا أعجزنا ولا أتعبنا وأهل الشرك يعرفون ذلك، يعرفون أننا خلقناهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولكنهم في شك من البعث بعد الموت.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا تقريع من الله لمشركي قريش الذين قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق: ٣]، يقول لهم جل ثناؤه: أفعيينا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه، ولم يكن شيئًا فنعيا بإعادتهم خلقًا جديدًا بعد بلائهم في التراب، وبعد فنائهم؛ يقول: ليس يعيينا ذلك، بل نحن عليه قادرون.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ يقول تعالى ذكره: ما يشك هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث أنا لم نعي بالخلق الأول، ولكنهم في شك من قدرتنا على أن نخلقهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم، وبلائهم في قبورهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ أي: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»[١].

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؟

ج: قال فريق من أهل العلم: إنه آدم عليه السلام.

وقال آخرون: إنه آدم عليه السلام وعموم ذريته، وهذا أصح وأجمع، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: الله سبحانه وتعالى أعلم بالذي توسوس به النفوس فهل يؤاخذ العبد على هذه الوساوس العارضة؟

ج: لا يؤاخذ على هذه الوساوس العارضة، وذلك لقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمته ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»[٢].

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: ونحن أعلم به، وبالذي تُوسوس إليه به نفسه.

الثاني: ونحن أقدر عليه وأملك به وأقرب في المقدرة عليه من حبل الوريد.

---

(١) البخاري (٤٩٧٤).

(٢) البخاري (٢٥٢٨).

الثالث: أن المراد ملائكتنا أقرب إليه من حبل وريده، وهذا الأخير هو اختيار الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال مقررًا ما ذهب إليه واختاره:

وقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ يعني: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر -وهو القرآن- بإذن الله، عزَّ وجلَّ. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فالملك لَمّة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1]، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

أما الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فلم يورد هذا القول أصلًا بل قال: ونحن أقرب للإنسان من حبل العاتق، والوريد عرقٌ بين الحلقوم والعلباوين، والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد اختلف أهل العربية في معنى قوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ فقال بعضهم: معناه: نحن أملك به، وأقرب إليه في المقدرة عليه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ بالعلم بما توسوس به نفسه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه وهما وريدان عن يمين وشمال روي معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف

---

(١) البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

في اللغة والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين وقال الحسن: الوريد الوتين وهو عرق معلق بالقلب وهذا تمثيل للقرب أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه وليس على وجه قرب المسافة وقيل: أي: ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه، وقيل: أي: ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنه عرق يخالط القلب فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عرق يخالط القلب وهذا القرب قرب العلم والقدرة وأبعاض الإنسان يحجب البعض البعض ولا يحجب علم الله شيء.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

يخبر تعالى، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسره، وتوسوس به نفسه وأنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه في جميع أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

ج: في ذلك وجهان:

* أحدهما: أن الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها فيكون المعنى ونحن أقرب إليه من حبل وريده عندما يتلقى المتلقيان عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، أي: أننا أعلم به وإن كنا وكلنا به ملكين وإنما وكلناهما به إلزامًا للحجة وتوكيدًا للأمر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، حين يتلقى الملكان، وهما المتلقيان.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان وهما الملكان الموكلان به أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر ولكنهما وكلا به إلزامًا للحجة وتوكيدًا للأمر عليه.

* الوجه الثاني: أن الآية مستقلة في معناها عما قبلها، والمعنى واذكر إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.

أي: واذكر دومًا هذا، اذكر أن هناك ملكين ملكًا عن اليمين وملكًا عن الشمال يتلقيان الأقوال والأعمال فيكتبانها على الدوام فكن ذاكرًا لهذا، والله أعلم.

***

س: لماذا لم يقل عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، وإنما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾؟

ج: أجاب بعض العلماء بأن هذا هو الأفصح، وهو أشد اختصارًا كذلك مع أدائه للمعنى كاملًا ولهذا أمثلة في كتاب الله عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، أي: ونساءً كثيرات أو ونساء أكثر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف أهل العربية في وجه توحيد قعيد، وقد ذكر من قبل متلقيان، فقال بعض نحويي البصرة: قيل: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ ولم يقل: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، أي أحدهما، ثم استغنى، كما قال: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، ثم استغنى بالواحد عن الجمع، كما قال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤].

وقال بعض نحويي الكوفة: ﴿قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ يريد: قعودًا عن اليمين وعن الشمال، فجعل فعيل جمعًا، كما يجعل الرسول للقوم وللاثنين، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦] لموسى وأخيه.



س: ماذا يفعل القعيد الذي عن اليمين والقعيد الذي على الشمال؟

ج: يكتبان الأعمال والأقوال.

فالذي على اليمين يكتب الحسنات، والذي على الشمال يكتب السيئات، كذا قال كثيرٌ من أهل العلم.

أخرج الطبري[(١)] بإسنادٍ صحيح عن مجاهدٍ قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ قال: عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيئات، وعنده أيضًا[(٢)] بإسنادٍ صحيح عن إبراهيم التيمي قال: صاحب اليمين أمينٌ أو أميرٌ على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمسك لعله يتوب.

❁ ❁ ❁

كتابة الأعمال

س: هل كل الأقوال تكتب أم أن الذي يكتب الخير والشر فقط؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال، أظهرها وأشهرها وأقربها موافقة للدليل، والله أعلم، قول من قال: إن الأقوال كلها تُكتب.

ويشهد لهذا عموم قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

---

(١) الطبري (٣١٨٥٩).

(٢) الطبري (٣١٨٦٠).

وقولـه تعـالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عـن طـاوس أنـه قـال يكتـب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* الوجه الثاني: أن الذي يكتب الحسنات والسيئات.

ونُقل هذا القول عن عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وشاهد هذا القول أن كثيرًا من العلـماء قـال في الملكـين: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: أحدهما يكتب الحسنات والآخر يكتـب الـسيئات، فمـن الـذي يكتـب اللغو؟!

والشاهد الثاني الذي يستدل به لذلك قولـه تعـالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، والثالث قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

الوجه الثالث: ذهب فريق من أهل العلم إلى أن كل الأقوال تكتب ولكـن آخـر اليوم، وقيل: آخر الأسبوع (يوم الخميس) يُمحى ما لم يكـن حـسنات ولا سـيئات، وتثبت الحسنات والسيئات فقط، ولكن هذا القول يفتقر إلى الدليل الـصحيح، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: وجاءت شدة الموت وغلبته على فهم الإنسان حاملة الحق ومبينـةً لـه ومظهرةً له، ذلكم الحق الذي أخبر به الله عزَّ وجـلَّ في كتابـه وأخبـر بـه نبيـه ﷺ في سنَّته، جاءت سكرة الموت موضحة كل ذلك، وكذا من المعنـى: وجـاءت سـكرة الموت ومجيئها حق لا مرية فيه ولا اختلاف.

والوجه الثاني: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت أو جاءت سكرة الموت ومجيئها حق.

هذا، ومن القراء من أورد قراءة أخرى وهي: (وجاءت سكرة الحق بالموت).

أخرج الطبري بسندٍ صحيح عن واصل عن أبي وائل، قال: لما كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقضي، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا، كما قال الشاعر:

إذا حشرجت يومًا وضاق بها

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تقولي ذلك، ولكنه كما قال الله عزَّ وجلَّ: (وجاءت سكرة الحق بالموت ذلك ما كنت منه تحيد).

قال الطبري عقب ذلك، وقد ذكر أن ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود، ولقراءة من قرأ ذلك كذلك من التأويل وجهان:

أحدهما: وجاءت سكرة الله بالموت، فيكون الحق هو الله تعالى ذكره. والثاني: أن تكون السكرة هي الموت أضيفت إلى نفسها، كما قيل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ [الواقعة: ٩٥]. ويكون تأويل الكلام: وجاءت السكرة الحق بالموت.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ فتفسيره مبني على تفسير ﴿مَا﴾ هل هي اسم موصول بمعنى: الذي؟ فيكون المعنى ذلك يابن آدم الموت الذي كنت منه تفرُّ وعنه تبتعد وتهرب فقد حلَّ بك.

والثاني: أن ﴿مَا﴾ نافية، فيكون المعنى: ذلك ما كنت تستطيع الفرار منه لا الهرب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ قولان:

أحدهما: أن ﴿مَا﴾ هاهنا موصولة، أي: الذي كنت منه تحيد -بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر- قد حل بك ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن ﴿مَا﴾ نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

س: من المخاطب بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾؟

ج: قيل: إن المخاطب هو الإنسان الكافر.

وقيل: بل عموم بني آدم، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: ورد ذكر سكرة الموت في حديث عن رسول الله ﷺ. ما هذا الحديث؟

ج: ذلك عندما نزل برسول الله ﷺ مرض موته.

أخرج البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إن رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكوة - أو علبة فيها ماء، يشك عمر - فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات. ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعلى. حتى قُبض ومالت يده[1].

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ٢١﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وجاءت كل نفس يوم الوعيد - الذي هو يوم القيامة - معها سائق يسوقها إلى الله عزَّ وجلَّ وشاهد يشهد عليها بما عملته في دنياها.

❀ ❀ ❀

تفسير السائق والشهيد

س: ما المراد بالسائق؟ وما المراد بالشهيد؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن السائق ملك من الملائكة، وهذا رأي أكثر المفسرين.

أما الشهيد فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: أن الشهيد ملك من الملائكة أيضًا، فقد كانت الملائكة في الدنيا تشهد أعمال العباد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾

(١) البخاري (٦٥١٠)، ومسلم.

[الانفطار: ١٠-١٢].

وقال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطارق: ٤].

الثاني: أن الشهيد الإنسان نفسه وجوارحه، فهو شاهد على نفسه، وجوارحه شاهدة عليه يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ [القيامة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [فصلت: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [البلد: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥].

الثالث: أن الشهيد هو رسول الله ﷺ، وكذا الأنبياء شهداء على أممهم.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأقول، وبالله تعالى التوفيق: إن الأظهر هنا أن الشهيد ملك من الملائكة، وإن كانت الجوارح تشهد، وكذا إن كان الرسول ﷺ يشهد، لكن شهادة رسول الله ﷺ وشهادة الجوارح تكون في موطن آخر غير الذي ذُكرت فيه هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، لقد ظهرت لك الآن الأمور على حقيقتها، تلك الأمور التي لم تكن تتصورها حق التصور في دنياك، فقد أريناكها ظاهرةً وواضحةً وجليَّةً تراها تمام الرؤية وتبصرها تمام الإبصار، فقد تحققت أمامك غاية التحقق.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يقول تعالى ذكره: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك.

❀ ❀ ❀

س: من المراد بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد عموم الإنسان، البر والفاجر على السواء، ودليل هذا القول عموم قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾، وكذا ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

والثاني: أن المراد الإنسان الكافر خاصة، وذلك لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ولقوله تعالى في آيات مشابهة: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أشد سمعهم وما أشد بصرهم يوم يأتوننا.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

والثالث: أن المراد بهذا رسول الله محمد ﷺ، ولكن المراد أنه قبل أن يوحى إليه القرآن وقبل أن يبعث كان في غفلة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وكما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣].

وأظهر الأقوال في هذا المقام هو القول الأول إذ سياق الآيات يقتضيه، وهذا اختيار الطبري رحمه الله تعالى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني بها البر والفاجر، لأن الله أتبع هذه الآيات قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ والإنسان في هذا الموضع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض. فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءتك أيها الإنسان سكرة الموت بالحق ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ وإذا كان ذلك كذلك كانت بينة صحة ما قلنا.

❀ ❀ ❀

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ وكذا الآيات التي في معناها كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وبين قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]؟

ج: ذلك محمول على أحد أمرين، والله أعلم:

أحدهما: أن مواطن القيامة تتعدد فيحشرون عمياناً ثم بعد ذلك يرون ما يسؤوهم وما يكرهون زيادة في تعذيبهم والتنكيل بهم.

الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ المراد منه: تحقق العلم وتيقنه ووقوعه، والله أعلم.



س: ما المراد بالقرين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾؟

ج: لأهل العلم في هذا القرين أقوال:

أحدها: أن هذا القرين هو السائق أي الملك الذي يسوق الإنسان يوم القيامة.

الثاني: أنه السائق والشهيد.

الثالث: أنه الملك الذي كان موكلًا بكتابة الأعمال في الدنيا.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ج: في ذلك أيضًا أقوال:

أحدها: هذا العمل الذي عمله هذا العبد وقد كلفتني بكتابته قد كتبته وأحضرته بلا زيادة ولا نقصان فها هو عندي مُعتَدٌّ مُحضرٌ بلا زيادة ولا نقصان.

الثاني: هذا الذي كلفتني يا رب بإحضاره من بني آدم قد أحضرته فها هو بين يديك ومعه عمله قد كتبته عليه.

❊ ❊ ❊

س: لمن وجِّه الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: إنه وجِّه للملكين السائق والشهيد.

وقال آخرون من أهل العلم: إنَّه موجه للقرين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ ومن المخاطب؟ والجواب: أن المخاطب ملك واحد، ولكنه قال: ألقيا على عادة العرب، فإنهم يخاطبون الواحد بخطاب الاثنين.

قال الشاعر:

فإن تزجراني يابن عفان أنزجر ... وإن تدعاني أحم عرضا ممنعا

وقال آخر:

خليلي مرَّا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعذب
ألم تراني كلما جئت طارقًا وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب

وأراد بالخليلين الواحد. وكان الحجاج إذا أمر بقتل إنسان قال: يا حرسي اضربا. وقال المبرد: معنى قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ أي: ألق ألق، فلما ثنى خاطب كما يُخاطب اثنان.

عن بعضهم: أنه يقول لملكين حتى يلقياه في النار.

❀ ❀ ❀

س: إذا كان الخطاب وجه للقرين في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ فلماذا ثُني الضمير في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾؟

ج: ابتداءً من العلماء من قال: إن الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ موجَّهٌ إلى السائق والشهيد فعليه فلا إشكال أما إذا قلنا: إن الخطاب موجه للقرين، فوجه التثنية في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ محمول على أحد أمرين.

أحدهما: أن يكون القرين يطلق على الاثنين كما أنه يطلق على الواحد كما في قول موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦].

والثاني: أن هذه التثنية لغةٌ لبعض العرب، أحيانًا يخاطبون الواحد بخطاب المثنى، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ فيه متروك استغني بدلالة الظاهر عليه منه، وهو: يقال ألقيا في جهنم، أو قال تعالى: ألقيا، فأخرج الأمر للقرين، وهو بلفظ واحد مخرج خطاب الاثنين. وفي ذلك وجهان من التأويل: أحدهما: أن يكون القرين بمعنى الاثنين، كالرسول، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد، والتثنية والجمع، فرد قوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ إلى المعنى. والثاني: أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول، وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين، فتقول للرجل: ويلك أرحلاها وازجراها، وذكر أنه سمعها من العرب؛ قال:

وأنشدني بعضهم:

فقلت لصاحبي لا تحبسانا ... بنزع أصوله واجتز شيحا

قال: وأنشدني أبو ثروان:

فإن تزجراني يا بن عفان أنزجر ... وإن تدعاني أحم عرضا ممنعا

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما روي عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسي، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجراني -يا ابن عفان- أنزجر ... وإن تتركاني أحم عرضا ممنعا

وقيل: بل هي نون التأكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

ج: لأهل العلم فيها وجوه:

أحدها: إنه كثير المنع للزكوات المفروضة فلا يؤديها، ومعتد على الخلق باغ عليهم ظالمٌ لهم شاك في أمره مريب لمن نظر في أمره.

الثاني: أنه مناع للزكوات الواجبة وكذا لسائر ما أوجبه الله عليه وكذا فإنه مناع لما استحب له فعله ظالم للعباد، وكذا معتد في الإنفاق ينفق الأشياء في غير محلها ﴿مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ شاك في أمر الآخرة وفي البعث بعد الموت.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الذي أشرك بالله فعبد معه معبودًا آخر من خلقه ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي

ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فألقياه في عذاب جهنم الشديد، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الشيطان الذي كان مقارنًا للإنسان في الدنيا وتسبب في إغوائه فيها يقول يوم القيامة متبرأً كاذبًا: يا ربنا ما أضللت هذا الشخص ولا حملته على الطغيان ولا تسببت في كفره، ولكنه كان في طريق جائرٍ حائدٍ عن الصراط ومتجهٌ إلى الباطل، وقد كان ضالًّا في نفسه زائغًا قابلًا للباطل معاندًا للحق، وقد كان مختارًا للكفر مؤثرًا له على الإسلام.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالقرين في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾؟

ج: قال فريقٌ من أهل العلم، بل جمهور المفسرين: إن القرين هنا هو الشيطان الذي كان موكلًا به في الدنيا كما في الحديث: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكِّل به قرينه».

❁ ❁ ❁

س: الشيطان يتبرأ من أتباعه يوم القيامة. دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ق: ٢٧].

❁ ❁ ❁

س: لمن وجه الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾؟

ج: الخطاب موجه للإنسان الكافر وللشيطان (الذي هو القرين) الذي أضلَّه وأغواه.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨)﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله تعالى ذِكره يقول لهؤلاء المشركين الذي وصفهم، وكذا يقول لقرناءهم من الشياطين: لا تختصموا عندي في هذا اليوم يوم القيامة، وقد قدمت إليكم في الدنيا قبل اختصامكم هذا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني، أي: وقد أعذرت إليكم في دنياكم بأن أرسلت إليكم رسلي تحذركم من مخالفة أمري وتأمركم بتوحيدي وعبادتي وتنهاكم عن عصياني وعن الشرك بي.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول تعالى ذكره: قال الله لهؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم، وصفة قرنائهم من الشياطين ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ اليوم ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ في الدنيا قبل اختصامكم هذا، ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ لمن كفر بي، وعصاني، وخالف أمري ونهيي في كتبي، وعلى ألسن رسلي.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨)﴾ أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾.

ج: قال فريق من العلماء: إن المعنى، قد قضيت ما أنا قاضٍ.

أما قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾، فقد قيل في معناها: لست آخذًا أحدًا بذنب

أحد، وقيل أيضًا: لا أبخس أحدًا حقًّا وقيل: كذلك لا أعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه.

هذا، ومن العلماء من قال عند قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ إن المراد أنني قد أخبرت أن الحسنة بعشر أمثالها، وقد ورد نحو هذا في حادثة المعراج عند فرض الصلوات، فالله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: لماذا وجّه السؤال إلى النار في قوله تعالى: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟

ج: ذلك، والله أعلم لأن الله عزَّ وجلَّ وعد من قبل بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[هود: ١١٩]، فتُسأل جهنم هل امتلأت وتجيب بهذا الجواب.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، يتضح مما ذكره النبي ﷺ في حديثه إذ قال: «يُلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول قط قط»[(١)].

وأخرج البخاري[(٢)] ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذاب أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منها ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ، حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عزَّ وجلَّ من خلقه أحدًا. وأما الجنة فإن الله عزَّ وجلَّ ينشئ لها خلقًا».

فهذه الأحاديث مفادها أن قول النار: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ معناه: أنها تطلب

---

(١) البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

الزيادة، ولا تمتلئ حتى يضع رب العزة قدمه فيها.

وهناك قولٌ آخر حاصله: أن قولها ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ معناه: لم يَعُدْ فيَّ مكانٌ للزيادة فقد امتلأت.

وهذا مُصيَّرٌ إلى أن سؤالها ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بعد أن يضع ربُّ العزة قدمه فيها.

❁ ❁ ❁

س: على أي أساسٍ نُصب قوله: ﴿يَوْمَ﴾ من قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك وجهان:

أحدهما: أن هذا مرتبط بما قبله، والمعنى: وما أنا بظلَّام للعبيد يوم نقول لجهنم.. أي: أن الله عزَّ وجلَّ لا يظلم العباد شيئًا يوم القيامة، وإن كان سبحانه لا يظلم على الدوام.

الوجه الثاني: أن هنا عاملٌ في قوله: ﴿يَوْمَ﴾ وهو فعل محذوف فيحتمل أن يكون المعنى وأنذر الناس يوم نقول لجهنم هل امتلأت.. أي حذرهم هذا اليوم وخوفهم به. ويحتمل أن يكون المعنى، واذكر يوم نقول لجهنم هل امتلأت، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: هل هذا الكلام الذي قاله القرطبي في تفسيره صحيح، ألا وهو قوله: قال علماؤنا رحمهم الله أما معنى: القدم (يعني في حديث حتى يضع رب العزة قدمه فيها) فهم قوم يقدمهم الله إلى النار،.... إلى آخر ما ذكره القرطبي؟

ج: هذا القول ليس بصحيح، وهو من التأويلات المردودة التي لا يوافق عليها القرطبي ولا غيره.

والصحيح: إثبات صفة القدم لله عزَّ وجلَّ على الوجه اللائق به عزَّ وجلَّ مع اعتقادنا أنه سبحانه ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير.

قال الله تعالى:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

[ق: ٣١- ٤٥]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ وَأُزْلِفَتِ - لِلْمُتَّقِينَ - غَيْرَ بَعِيدٍ - هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ - أَوَّابٍ - حَفِيظٍ - مُّنِيبٍ - بِسَلَٰمٍ - يَوْمُ ٱلْخُلُودِ - قَرْنٍ - بَطْشًا - فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ - مَّحِيصٍ - لَذِكْرَىٰ - قَلْبٌ - أَلْقَى ٱلسَّمْعَ - شَهِيدٌ - لُّغُوبٍ - وَسَبِّحْ - فَسَبِّحْهُ - وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ - ٱلصَّيْحَةَ - يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ - ٱلْمَصِيرُ - تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا - حَشْرٌ - يَسِيرٌ - بِجَبَّارٍ - وَعِيدِ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾	قرِّبت - أُدنيت
﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾	الذين اتقوا الشرك، وجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه
﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾	ليست بعيدة فهي في الآخرة، وأمر الآخرة قريب وقيل: قُرِّبت من قلوبهم في الدنيا فاستحضروها وأعدوا لها عدتها، وقيل: للتأكيد (تأكيد قربها)
﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾	هذا الذي وعدكم الله به في الدنيا من الجزاء الحسن وهو
﴿ أَوَّابٍ ﴾	رجَّاع من معصية الله إلى طاعته - مسبِّح - مكثرٌ من التسبيح - مستغفرٌ من ذنوبه
﴿ حَفِيظٍ ﴾	حافظ لذنوبه مُتذكرها عارف بها مستغفر منها حفيظ لكل ما يقربه من الله محافظ على حدود الله - حفيظ لكل ما ائتمن عليه
﴿ مُّنِيبٍ ﴾	سليم (من الشرك) - تائب من الذنوب - خاضع راجع مما يكرهه الله إلى طاعة الله - مقبل على الله
﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾	بأمان (من الهموم والأحزان والتعب والنصب وسائر الأسقام) - بتسليم من الله والملائكة عليكم

س: وضح معنى ما يلي:

﴿وَأُزْلِفَتِ - لِلْمُتَّقِينَ - غَيْرَ بَعِيدٍ - هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ - أَوَّابٍ - حَفِيظٍ - مُّنِيبٍ - بِسَلَٰمٍ - يَوْمُ ٱلْخُلُودِ - قَرْنٍ - بَطْشًا - فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ - مَّحِيصٍ - لَذِكْرَىٰ - قَلْبٌ - أَلْقَى ٱلسَّمْعَ - شَهِيدٌ - لُّغُوبٍ - وَسَبِّحْ - فَسَبِّحْهُ - وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ - ٱلصَّيْحَةَ - يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ - ٱلْمَصِيرُ - تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا - حَشْرٌ - يَسِيرٌ - بِجَبَّارٍ - وَعِيدِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَأُزْلِفَتِ﴾	قرِّبت - أُدنيت
﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾	الذين اتقوا الشرك، وجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه
﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾	ليست بعيدة فهي في الآخرة، وأمر الآخرة قريب وقيل: قُرِّبت من قلوبهم في الدنيا فاستحضروها وأعدوا لها عدتها، وقيل: للتأكيد (تأكيد قربها)
﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾	هذا الذي وعدكم الله به في الدنيا من الجزاء الحسن وهو
﴿أَوَّابٍ﴾	رجَّاع من معصية الله إلى طاعته - مسبِّح - مكثرٌ من التسبيح - مستغفرٌ من ذنوبه
﴿حَفِيظٍ﴾	حافظ لذنوبه مُتذكرها عارف بها مستغفر منها حفيظ لكل ما يقربه من الله محافظ على حدود الله - حفيظ لكل ما ائتمن عليه
﴿مُّنِيبٍ﴾	سليم (من الشرك) - تائب من الذنوب - خاضع راجع مما يكرهه الله إلى طاعة الله - مقبل على الله
﴿بِسَلَٰمٍ﴾	بأمان (من الهموم والأحزان والتعب والنصب وسائر الأسقام) - بتسليم من الله والملائكة عليكم

﴿يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾	المكث الدائم (في الجنة) وكذا مكث أهل النار الدائم في النار - الخلود بلا موت
﴿قَرۡنٍ﴾	جماعة من الناس جمعهم شيء واحد وكانوا في زمن واحد أو متقارب
﴿بَطۡشٗا﴾	قوة وعددًا وتأثيرًا
﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾	خرَّقوا في البلاد - طافوا فيها - توغلوا فيها إلى آخر شيء
﴿مَّحِيصٍ﴾	مفر - مهرب (من قضاء الله وأمره وقدره) منجى
﴿لَذِكۡرَىٰ﴾	لعِظةٌ - لعبرةٌ
﴿قَلۡبٌ﴾	عقل يعقل به ويفهم
﴿أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾	استمع وأنصت وفهم
﴿شَهِيدٞ﴾	مقرٌ - موقن - شهيد على صحة ما جاءت به الرسل من عند ربها
﴿لُّغُوبٖ﴾	تعب - إعياء - سآمةٌ - نصب
﴿وَسَبِّحۡ﴾	صلِّ
﴿فَسَبِّحۡهُ﴾	فصلِّ له
﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾	الذكر بعد الصلاة - سنة المغرب البعدية
﴿ٱلصَّيۡحَةَ﴾	النفخة الثانية في الصور (نفخة البعث من القبور)
﴿يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾	يوم الخروج من القبور
﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾	المرجع والمآب
﴿تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾	تنشق الأرض التي دفنوا فيها فيخرجون منها
﴿سِرَاعٗا﴾	مسرعين (يخرجون مسرعين)
﴿حَشۡرٌ﴾	جمعٌ (للأولين والآخرين)

﴿يَسِيرٌ﴾	سهل - غير شاق
﴿بِجَبَّارٍ﴾	بمجبرٍ لهم على الهداية
﴿وَعِيدِ﴾	تخويف، أي: تخويفي الذي خوفته به

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال، منها:

أن الجنة قربت وأدنيت للمؤمنين يوم القيامة، وهذا اليوم ليس ببعيد بل هو قريب لأن كل ما هو آت قريب، وقد قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١].

والثاني: قربت الجنة من قلوبهم في الدنيا فعملوا بها واستبشروا بقدومها.

الثالث: أن قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ لتأكيد قربها.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»:

قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي قربت، وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾: فيه معنى التوكيد لقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ سواء أعربت ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ بأنها حال أو ظرف، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين جاء في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٢، ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١].

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: من خاف ربَّه عزَّ وجلَّ في حال عدم رؤية الناس له، أي: أنه يخشى الله عزَّ وجلَّ وإن كان الناس لا يرونه.

الثاني: أنه خاف ربَّه عزَّ وجلَّ في الدنيا قبل أن يلقاه يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

ج: المراد، والمعنى، والله أعلم.

ادخلوا الجنة سالمين آمنين من الهموم والأحزان والغضب والعذاب وما كنتم تلقونه في الدنيا.

وكذلك ادخلوا الجنة مصاحبين بالسلام من الله عزَّ وجلَّ، وكذا السلام من ملائكة الله الكرام ومن خلق الله أيضًا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ذلك اليوم - يوم القيامة - هو يوم المكث الدائم في الجنة لكم يا أهل الجنة جعلنا الله من أهلها وكذا فهو المكث الدائم لأهل النار في النار أعاذنا الله منها.

وفي الحديث[1] عن رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح - زاد أبو كريب: «فيوقف بين الجنة والنار»، واتفقا في باقي الحديث - فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت - قال: - ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت - قال: - فيؤمر به فيذبح - قال: - ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾ [مريم: ٣٩]، وأشار بيده إلى الدنيا.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالمزيد في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن المزيد هو رؤية الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة.

وقال آخرون: المراد بالمزيد: الزيادة فوق ما يريدونه وما يطلبونه، كما في الحديث: «أن العبد يتمنى ويتمنى فيقال له: لك ذلك وعشرة أمثاله»، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٤)، ومسلم (٢٨٤٩)، واللفظ له.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ولقد أهلكنا قرونًا كثيرةً قبل مشركي مكة وغيرهم من أهل الشرك، قرونًا قد خربت الأرض وسارت فيها يمينًا وشمالًا فساروا إلى أقصى الأرض شرقًا وغربًا، فهل من منجي وهل من مهربٍ ومفر؟ لقد حاصوا حيصة فلم يجدوا ملتجأً يلتجوؤن إليه ولا مهرب يهربون إليه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وكثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش من القرون، ﴿هُمْ أَشَدُّ﴾ من قريش الذين كذبوا محمدًا ﴿بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ يقول: فخرقوا البلاد فساروا فيها، فطافوا وتوغلوا إلى الأقاصي منها؛ قال امرؤ القيس:

لقد نقبت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال الطبري أيضًا:

وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ يقول جل ثناؤه: فهل كان لهم بتنقبهم في البلاد من معدل عن الموت؛ ومنجى من الهلاك إذ جاءهم أمرنا.

وأضمرت كان في هذا الموضع، كما أضمرت في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: ١٣] بمعنى: فلم يكن لهم ناصر عند إهلاكهم. وقرأت القراء قوله: ﴿فَنَقَّبُوا﴾ بالتشديد وفتح القاف على وجه الخبر عنهم. وذكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ ذلك (فنقِّبوا) بكسر القاف على وجه التهديد والوعيد: أي طوفوا في البلاد، وترددوا فيها، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم.

وأورد بسندٍ صحيح عن قتادة قال: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ قد حاص الفجرة فوجدوا أمر الله مُتبعًا.

وبسندٍ صحيح عن زيد بن أسلم قال: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ هل من منجي؟

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إن في إهلاكنا القرون المتقدمة وما أخبرناكم به من أمرها وأمر إهلاكها لعظة يتعظ بها من كان له عَقلٌ يعقل به وقلب حيٌّ يعي به.

قال الطبري:

يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا القرون التي أهلكناها من قبل قريش ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يعني: لمن كان له عقل من هذه الأمة، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم، خوفًا من أن يحل بهم مثل الذي حل بهم من العذاب.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: استمع الكلام بدقةٍ فوعاه وتفهمه وتعقله وهو حاضر السمع والقلب.

الثاني: قاله قتادة بسندٍ حسنٍ عنه عند الطبري[1] قال: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ قال: يعني بذلك أهل الكتاب، وهو شهيد على ما يقرأ في كتاب الله من بعث محمد ﷺ.

الثالث: أن المراد المؤمن يسمع القرآن وهو شهيد على ذلك.

الرابع: قاله ابن زيد ألقى السمع يسمع ما قد كان مما لم يُعاين من الأحاديث عن الأمم التي قد مضت كيف عذَّبهم الله وصنع بهم حين عصوا رسله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التفسير القيم»:

قال الله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته، وألف سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه. فإنه خطاب منه سبحانه لك على لسان رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ

---

(١) الطبري (٣١٩٥٥).

أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه: تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه، وأدله على المراد.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا وهذا هو المؤثر.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به: القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩-٧٠] أي: حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا هو شرط التأثر بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب قال ابن قتيبة استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه فما وجه دخول أداة أو في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ والموضع موضع واو الجمع لا موضع أو التي هي لأحد الشيئين؟

قيل: هذا سؤال جيد. والجواب عنه أن يقال:

خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه على صحة القرآن وأنه الحق وشهد قلبه بما أخبر به القرآن فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ

﴿ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقال في حقهم: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا نور الفطرة على نور الوحي وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي.

فصاحب القلب الحي بين قلبه وبين معاني القرآن أتم الاتصال فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرأها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ولم تبلغ حياة قلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول: حال من رأى بعينه ما دعى إليه وأخبر به.

والثاني: حال من علم صدق الخبر وتيقنه. وقال: يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان. هذا قد وصل إلى علم اليقين، وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين. وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام.

فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة. فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب، كنسبة الشاهد إلى العين. وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار. وفي الدنيا بالبصائر. فهو عين يقين في المرتبتين.

❀ ❀ ❀

س: كثيرًا ما يُستدل على البعث ويُشار إليه بخلق السموات والأرض. دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠].

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ... ﴾ [الأحقاف: ٣٣]

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ إشارة إلى معنى متكررٍ. وضح هذا المعنى؟

ج: هذا المعنى حاصله أننا عند الشدائد نستعين بالصبر والصلاة كما أمرنا الله تبارك وتعالى، إذ قال جل ذِكره: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكما قال تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص: ١٧]، أي: اصبر واذكر صلاة عبدنا داود وعبادته.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالتسبيح في قوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن المراد بذلك صلاة الفجر وصلاة العصر، وهما اللتان كانتا قد فُرضتا في أول الإسلام ودلَّ على ذلك ما أخرجه البخاري[1] من حديث جرير قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة – يعني: البدر – فقال: «إنكن سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

❁ ❁ ❁

(١) البخاري (٥٥٤).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن المراد بذلك صلاة العشاء.

وقال آخرون: إنها نافلة الليل، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾. ما معناه؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بذلك النافلة يتنفلها الشخص من الليل.

❁ ❁ ❁

المراد بقوله ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: وهو قول جمهور العلماء أن المراد بأدبار السجود الركعتان بعد المغرب (أي: سنة المغرب البعدية).

والثاني: أن المراد الذكر بعد الصلاة كالوارد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من أصحاب الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ولهم فضلٌ من أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون... الحديث، وفيه: «تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين..»[(١)].

الثالث: أن المراد: النوافل، وقد صح هذا عن ابن يزيد عند الطبري وغيره، قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: هما الركعتان بعد المغرب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه، لرأيت

---

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ٢/ ٣٢٥)، ومسلم (٥/ ٩٣ مع النووي).

أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد، لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عم أدبار الصلوات كلها، فقال: وأدبار السجود، ولم تقم بأنه معني به: دبر صلاة دون صلاة، حجة يجب التسليم لها من خبر ولا عقل.

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ فقرأته عامة قراء الحجاز والكوفة، سوى عاصم والكسائي: (وإدبار السجود) بكسر الألف، على أنه مصدر أدبر يدبر إدبارًا. وقرأه عاصم والكسائي وأبو عمرو (وأدبار) بفتح الألف على مذهب جمع دبر وأدبار.

والصواب عندي: الفتح على جمع دبر.

❁ ❁ ❁

س: هل ورد في فضل الركعتين بعد المغرب خبرٌ ثابتٌ عن رسول الله ﷺ؟

ج: لم أقف على شيء ثابت عن رسول الله ﷺ في فضل الركعتين بعد المغرب على وجه الخصوص، وإن كان قد ورد أن النبي ﷺ كان يصليها.

هذا، والخبر الذي أورده الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره في هذا الصدد، وهو قول النبي ﷺ لابن عباس: «**ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب أدبار السجود**»، فهذا خبر غير صحيح ولا ثابت عن رسول الله ﷺ، والله أعلم. وفيه أكثر من علةٍ.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، واستمع يا رسول الله إلى نداء المنادي الذي ينفخ في الصور.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾. ما هذا المكان القريب؟

ج: قال بعض أهل العلم: إنه صخرة بيت البيت.

ولا أعلم دليلًا على هذا، ولا مستندًا صحيحًا له من الكتاب والسُّنَّة.

إلا أن قتادة قال: كنا نحدث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة، وهي أوسط الأرض.

وهذا كما يبدو مأخوذٌ من الإسرائيليات كأقوال كعب الأحبار وغيره.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالصيحة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾؟

ج: المراد، والله تعالى أعلم، صيحة البعث والخروج من القبور، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم - على أن الآية مرتبطة بما قبلها - وإلينا المرجع والمآب يوم تتصدع الأرض وتنشق فيخرجون منها مسرعين، وهذا الجمع - جمع الخلائق بعد إخراجهم من القبور جمعٌ سهل ويسيرٌ علينا.

أما ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال:

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى ينزل مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عزَّ وجلَّ: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعًا، مبادرين إلى أمر الله، عزَّ وجلَّ، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨].

ففي هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير نظر، وكثيرٌ منه يحتاج إلى دليل لإثباته، وليس ثَمَّ دليلٌ، والله تعالى أعلم.

هذا، ثم قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض» وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان: ٢٨].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الداعي، جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المعارج:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يس:٥١]، وقوله: ﴿يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي يسرعون، وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر:٧، ٨] الآية، فقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾، أي: مسرعين مادي أعناقهم على الأصح، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة يس في الكلام على قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

❁ ❁ ❁

س: قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾. ما الذي يقولونه؟

ج: قال بعض أهل العلم: ذلك قولهم عن الله عزَّ وجلَّ أن له شريكًا أو أن له صاحبة أو أن له ولدًا، وكذا قولهم -عن رسول الله ﷺ-: إنه مجنون وساحر، وإنه كذاب، وإنه كاهن، وإنه مفترٍ، وإنه يتلو أساطير الأولين، وأنه يعلمه بشرٌ، وكذا قولهم عن القرآن: إنه أساطير الأولين، وكذا إنكارهم للبعث والمعاد.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، نحن يا رسول الله أعلم بالذي يقولونه ويفترونه ويدعونه لا يخفى علينا منه شيء وسنحاسبهم على ذلك.

س: في قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ نوع مواساة لرسول الله ﷺ. وضح ذلك؟

ج: نعم، في ذلك نوع مواساة وتطييبٌ لخاطر رسول الله ﷺ، فإذا كان رسول الله ﷺ يؤذى وأُخبر أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما أصابه من أذى وحزنٍ وهمٍّ وغمٍّ، فإن ما به من أذى وحزنٍ وهمٍّ وغمٍّ كل ذلك يزول، وذلك لكونه يعلم أن الله مولاه وأنه ناصره وأنه قادر على هؤلاء الذين يؤذونه وينالون منه.

ولذلك فقد ذُكِّر النبي ﷺ بمثل ذلك مرارًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

ونحوه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

❁ ❁ ❁

س: لا يملك أحدٌ من البشر هداية أحدٍ ولا توفيقه ولا إجباره على الإيمان، ولا حتى رسول الله ﷺ. دلِّل على ذلك.

ج: نعم، هداية التوفيق لا يملكها أحدٌ إلا الله عزَّ وجلَّ هو الذي يهدي وهو الذي يضل.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ [ق: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢٢].

❁ ❁ ❁

س: يستحب التذكير بكتاب الله عزَّ وجلَّ والإكثار من ذلك. دلِّل على ذلك.

ج: نعم، يستحب التذكير بكتاب الله عزَّ وجلَّ فهو أولى من القصص والخرافات والحكايات، وقد وردت الأدلة بذلك كثيرة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية: ٦].


فهرس

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

تفسير سورة الأحقاف

الموضوع — الصفحة

سورة محمد

سورة الحجرات

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة